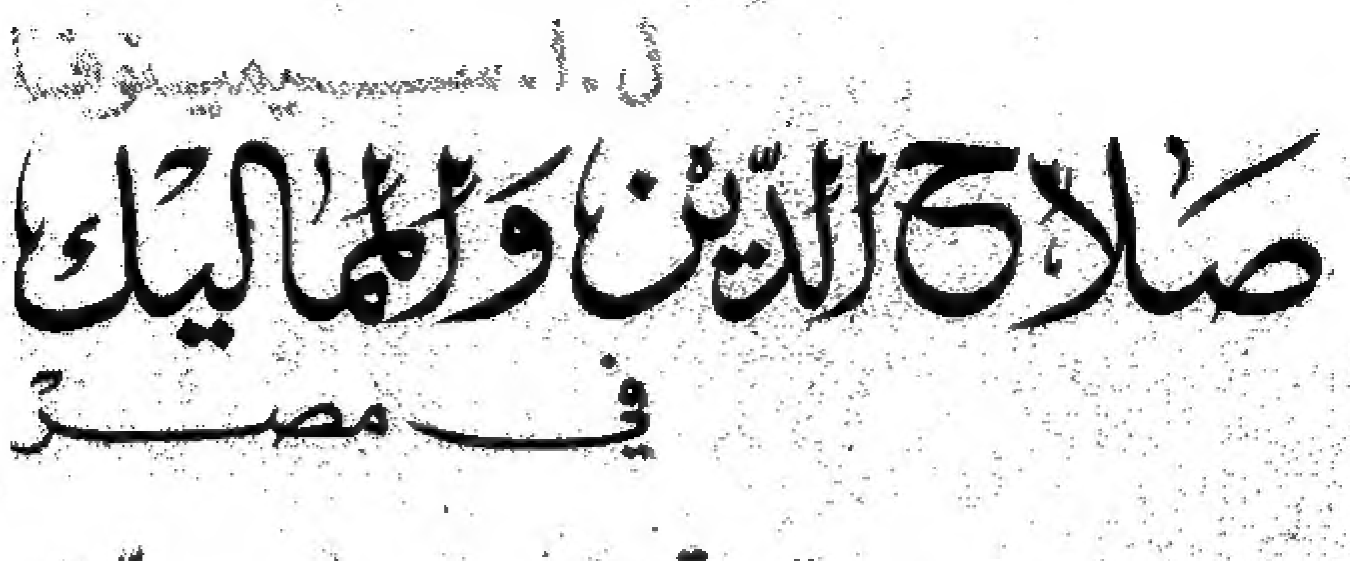
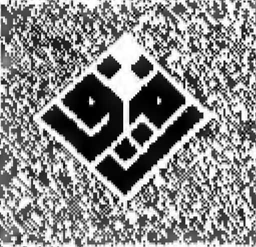


ل. ا. سميونوفا

صلاح الدين والمماليك في مصر

ترجمة: حسن بيومي

المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومي للترجمة

74

المشروع القومى للترجمة

ل . ا . سيمينوفا

صلاح الدين والمماليك فى مصر

ترجمة

حسن بيومى



١٩٩٨

العنوان الأصلي للكتاب المترجم عن الروسية

АКАДЕМИЯ НАУК СССР
ИНСТИТУТ НАРОДОВ АЗИИ

Л. А. СЕМЕНОВА

САЛАХ АД-ДИН И МАМЛЮКИ В ЕГИПТЕ



ИЗДАТЕЛЬСТВО «НАУКА»
Главная редакция восточной литературы
Москва 1966

مؤلفة هذا الكتاب هي الأستاذة ليديا أندريفنا سيميتوفا عضو المعهد السوفيتي لشعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، وللمؤلفة كتاب آخر عن مصر يسمى .

دراسات تاريخية فى مصر الفاطمية

وهو لم يترجم بعد إلى العربية

أما هذا الكتاب فهو من إصدار هيئة تحرير الآداب الشرقية التابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية – موسكو ، ١٩٦٦ .

تقديم المترجم

لا يسعنا ونحن نقدم هذا الكتاب للقارىء المصرى والعربى ، إلا أن نشيد بالجهد الخارق الذى بذلته المؤلفة وهى تتصفح مجلدات التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، وهى وافرة وعديدة وضخمة . وقد أشارت إليها المؤلفة فى مقدمتها بالتفصيل مما يعفينا من التكرار . إن هذه المجلدات تصل إلى عشرات الآلاف من الصفحات ، وقد استطاعت المؤلفة أن تسبح بل وأن تغوص داخل هذا المحيط من الصفحات ، وأن تقتطف المقاطع والاستشهادات ، وأن تقرأ أيضا إلى جوار ذلك الكتب المعاصرة ، حول هذه الفترة التاريخية ، الصادرة فى مصر وسوريا ولبنان للمؤرخين المصريين والعرب ، وأن تناقش كل هذه المعطيات مع الكثير من المؤرخين والمستشرقين الغربيين والروس الذين اهتموا بتاريخ هذه الفترة فى مصر من أمثال المستشرق الفرنسى الشهير : سلفستر دى ساسى ، والباحث الألمانى : بيكر ، والمستشرق الفرنسى : كلود كهن ، وغيرهم من المؤرخين والمستشرقين ، راسمة لنا فى نهاية الأمر بانوراما اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية ، بل وأخلاقية عن مصر أيام السلاطين الأيوبيين وخلفائهم من المماليك التركية أو الشراكسة .

وهذه الفترة محل الدراسة غنية بتغيراتها وصراعاتها ؛ إذ هى أعقبت الفترة الفاطمية ، وألحقت البلاد بالمذهب السنى بعد أن كانت فى عهد الفاطميين تدين بمذهب الشيعة – وهى تبدأ بالصراع مع الصليبيين ابتداء من حملات صلاح الدين ومن حذا حذوه من الأيوبيين أو المماليك .. ثم الغزو المغولى ، وما ألحقه ببغداد وسوريا من خراب ودمار ، والصراع المملوكى ضد هؤلاء المغول الذى امتد فترة غير قصيرة ، ثم أخيرا صراع السلاطين الأيوبيين أو المماليك ضد بعضهم البعض والذى أدى إلى تدهور كافة الأوضاع تدريجيا ، حتى كانت الضربة القاضية فى تحول طرق التجارة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وما أدى إليه من خراب وتدهور ، مهدا السبيل أمام الغزو العثمانى لمصر ١٥١٧ م . أى أن فترة الدراسة تبدأ بزوال عهد الفاطميين فى مصر ١١٧١ م وبتحقيق النجاحات البارزة للحكومة المصرية فى صراعها ضد الصليبيين ، وتنتهى بدخول العثمانيين إلى مصر .

وعلى هذه الأرضية التاريخية جرى كثير من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية على يد صلاح الدين الأيوبى ، كانت نتيجتها القضاء على الملكية الحكومية للأرض التى كانت سائدة فى العصر الفاطمى ، وإقرار شكل أكثر تقدما - كما تقول المؤلفة - للملكية الإقطاعية للأرض ، وهو (الإقطاع) - وهذا هو المحتوى الأساسى لتاريخ مصر الداخلى فى عهد الأيوبيين والمماليك الأوائل (انظر الفصل التاسع) .

هذا الإقطاع الذى يتميز بطبقة غير محددة فى مصر الأيوبية والملوكية ، شأنها فى ذلك شأن بلدان الشرق الأوسط فى كل العصور الوسطى . وهو فى مصر يتميز بأنه إقطاع حربى يعتمد على نظام هرمى (هراركى) ، تقوم فئاته العليا والوسطى بدور هام فى السلطة المركزية بفرض المشاركة فى فائض إنتاج المنتجين المباشرين (الفلاحين) . وهذا النوع من الإقطاع قابل لإحداث تغيرات عديدة داخله ، فهو لم يعرف الثبات ، والجداول التى تقدمها المؤلفة فى هذا الكتاب لبيان ما يلحق بهذا الإقطاع من تغيرات فى العهود المختلفة لدليل على تدخل الحكومة المركزية التى أقامت هذا الإقطاع أساسا بسبب التدهور الاقتصادى الذى ورثته عن الخلفاء الفاطميين ، ثم الضرورة الملحة لتأمين حياة الجيش الذى يُعد للمعارك الفاصلة ، مما أدى إلى أن تفقد الحكومة فى عهد الأيوبيين حق الاستغلال المباشر للفلاحين ، ونتج عن ذلك ازدهار الأوضاع الزراعية .

وبالرغم من أن الإقطاع الأيوبى كان شبيها بالإقطاع الفئوى الهرمى فى أوربا الغربية فى العصور الوسطى ، إلا أن الفئات المالكة كانت تتكون فى أغلبها من الأعيان المحاربين الذين ينحدرون من الأصل الكردى والتركى ، وهو يتميز أساسا بالغياب الكامل لحيازة الملكية الخاصة للإقطاعى (يراجع الفصل الثانى) وبالتغيرات المستمرة فى أنواع الأراضى (الوقف - الرزقة - الخلق - أملاك السلاطين ، على امتداد الفترة محل الدراسة بتغيير ظروف السلاطين الحكام .

ونحن قد نتفق أو نختلف مع المؤلفة فى هذه النقطة أو تلك ، وفى هذا الاستنتاج أو ذاك ، غير أن هذا لا يمكن أن يقلل من قيمة هذا الكتاب أو أن يبخسه حقه ، فهو جهد رائع لباحثة جادة استطاعت أن تضئ لنا مساحات مظلمة من تاريخ هذه الفترة

وأن تضع أيدينا على مواضع كانت تائهة عنا ، رغم أنها بين أيدينا .. فيكفيها شرفا أنها قد فتَّحت عيوننا على الكثير مما تزخر به كتب المؤرخين المصريين والعرب فى العصور الوسطى – محل الدراسة – الذى يجب علينا أن نعيد قراءتها لا للمتعة والترفيه ولكن للاستكشاف والمقارنة والمتابعة والرصد والمناقشة والفهم والاستنتاج ، مما يثرى وعينا التاريخى ، ويدفعنا إلى فهم أكثر علمية لمراحل تاريخنا المختلفة .

بقيت كلمة ضرورية عن هذا الكتاب الذى يعتمد أساسا على المراجع العربية وعلى الاقتباس منها والاستشهاد بها ، وقد قمنا بترجمة كل ذلك ترجمة أمينة من الروسية إلى العربية وأثبتناه فى مكانه من المتن . لكننا رأينا أنه لا بد من الرجوع إلى هذه النصوص فى لغتها الأصلية .. فى المصادر العربية ، حيث إن ترجمة نص مرتين (أى من العربية إلى الروسية – المؤلفة – ثم من الروسية إلى العربية – المترجم – من الجائز أن يفقده الكثير أو أن يشوه بعض معانيه مهما كانت دقة الترجمة .. لذا كانت الرحلة الشاقة من أجل تحقيق هذا الكتاب ، إذ إن معظم المراجع العربية التى رجعنا إليها تختلف طبعاتها عن الطبعات ، التى رجعت إليها المؤلفة – حيث لم يتيسر لنا الحصول على هذه الطبعات ولكن أعاننا إلى تجاوز هذه المشكلة أن معظم مؤرخى هذه الفترة يؤرخون سنة بسنة ويثبتون على رأس الأحداث السنة التى حدثت فيها ، مما سهل لنا عملية البحث قليلا .

لقد قمنا بتحقيق المقاطع والنصوص التى اقتبستها المؤلفة وأثبتناها فى هوامش كل صفحة بعلامة مميزة لها كما وردت فى مراجعنا ، وأشرنا إليها بإيجاز طبقا للقائمة الخاصة بمراجع المترجم والموضوعة فى نهاية الكتاب ؛ لأنها تسهل للقارىء كثيرا البحث عن هذه الاستشهادات فى المراجع المصرية التى رجعنا إليها ، ولابد من الإشارة إلى أننا لم نجد فروقا جوهرية بين ما أثبتته المؤلفة وبين ماوجدناه فى مراجعنا من حيث الفحوى والمضمون ، سوى بعض الاختلافات التى أشرنا إليها فى مكانها من الصفحات وبيناها للقارىء ، إلا أن هناك فروقاً من حيث لغة العصور الوسطى للمؤرخين المصريين والعرب واللغة المعاصرة – كما أن الترجمة مرتين أوجدت فروقا ، ولكنها ليست كبيرة .

وبكل سرور نود أن نقدم وافر الشكر للصديق الباحث صلاح العمروسى الذى أعان بالجهد وبالكتاب من أجل تحقيق هذه النصوص .

هذا وقد قمنا بتحقيق أسماء التقويم التاريخى للسلاطين الأيوبيين والمماليك فى مصر وفى سوريا ، ثم الخلفاء العباسيين فى هذه الفترة وقد أثبتنا أسماءهم بالكامل رغم أن المؤلفة اكتفت بكتابة أسمائهم بإيجاز . هذا وقد آثرنا أن ننقل الصفحات التى اختارتها المؤلفة من كتاب المقريزى « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » لنعطى القارئ المزيد من التأمل فى تاريخ الفترة محل الدراسة وفهم ملامحها وأثبتناها فى مكانها من الكتاب كما أرادت المؤلفة .

أما الهوامش الأصلية للكتاب فقد آثرنا أن تكون هوامش كل فصل فى نهايته ، وأن نترجم لها كل ما هو ذو أصل عربى ، وأن نكتب المراجع والوثائق الأجنبية بلغتها سواء كانت فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية أو روسية أو عربية مترجمين كل ملاحظات المؤلفة أو شروحها التى ترد تحت هذه الوثائق .

وكان علينا أن نضع قائمة المراجع الأصلية لهذا الكتاب فى مكانها كما قدمتها المؤلفة وكذلك قائمة الكتب التى استفادت منها ، مما يتيح للقارئ العربى الفرصة فى الاستزادة والتوثيق ، وللمهتمين والباحثين الفرصة للبحث والدراسة .

المترجـم

المقدمة

فى هذا الكتاب ، تتكشف العلاقات الاجتماعية فى مصر منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وحتى القرن السادس عشر ؛ أى فترة حكم السلاطين الأيوبيين والمماليك . وهذه الفترة تتميز بالتغيرات العميقة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كما تتميز بهذه التغيرات أيضا فى الأيديولوجية ، وفى بدايتها ، تحققت النجاحات البارزة للحكومة المصرية فى صراعها ضد الصليبين والمغول ، وفى نهايتها وقع الغزو التركى .

ومؤرخو أوربا الغربية ، كرسوا العديد من الأبحاث عن مصر فى هذه الفترة وقد احتل مركز الصدارة فى هذه الأعمال ، شخصيات السلاطين ، وفى مقدمتهم السلطان الشهير : صلاح الدين ، بحروبه وسياساته ، وعلاقاته التجارية وقضاياه الثقافية والدينية : أعمال ؛ ج . فيل ، هـ . جب ، جتشالك ، ل . ديفيك ، س لين بول ، ف موير .

لكن القضايا الاجتماعية والاقتصادية ، احتلت فى هذه الأعمال مكانا قليل الأهمية بشكل غير عادى .

وكانت الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه ، على يد المستشرق الفرنسى الشهير : سيلفستر دى ساسى١٧٥٨ – ١٨٣٨ م فى كتابة الشهير ، الذى قام هو نفسه بترجمة العديد من المصادر التى زودها بالتعقيبات التى تعطى الكثير من التعريفات عن نظام الزراعة فى مصر فى العصور الوسطى (١) وبعض ملاحظات سيلفستر دى ساسى ، وعلى رأسها رأيه فى تناوب الأشكال المختلفة لملكية الأراضى الزراعية – والتى تدحض التصور السائد فى عصره عن ثبات نظام الزراعة فى مصر منذ عهد الفراعنة – لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا .

واهتم أيضا بدراسة العلاقات الاجتماعية فى مصر ، فى العهدين الأيوبى والمملوكى : الباحث الألمانى : ك . بيكر ١٨٧٦ – ١٩٣٣م فى دراسة له عن مصر فى العصور الوسطى منشورة فى دائرة المعارف الإسلامية ، وأيضا بحثه المخصص .. عن نشوء نظام .. المنح الإقطاعية العسكرية ، ويقدم أيضا وصفا لبعض الكتابات السورية المتعلقة فى أغلبها بملكية الوقف (٢) غير أن تاريخ مصر سيستضئ بهم فى ضوء

المنهج العلمى . فبيكر كممثل نموذجى لعلم التاريخ البرجوازى الغربى ، من طبيعته أن يقابل طرق التطور التاريخى فى الشرق بالغرب ، التى تستوجب ، من وجهة نظره ، الفروق العنصرية [٣] . ومفهومه عن الإقطاع - كنظام اقتصادى ، محدد - غريب للغاية . وحقيقة فإن بيكر فى أعماله لم يطرح منشأ وتطور الإقطاع متمسكا بوجهة النظر الشرعية الشكلية ، وغافلا عن الفروق الجوهرية فى العلاقات الاجتماعية قديمة العهد بمصر فى العصور الوسطى ، معتقدا أن نظام الزراعة حتى العصر الأيوبى (نظام الالتزام) لم يكن إلا انبعاثا بسيطا لنظام الإيجار الرومانى المشدد [٤] وبدرجة ما فإن بيكر يتميز بكيفية تسجيل تاريخ عصر الإمبريالية وتحديث عملية كتابة التاريخ .

وكذلك فإن العديد من من أعمال المؤرخ الإسرائيلى المعاصر أ. بولياك [٥] المكرسة لهذه القضايا والمتمسكة بالتحليل البرجوازى الشائع عن تصور الإقطاع كضم للملكيات الكبيرة تحت سلطة سياسية فى وجود تبعية هرمية موالية ، توجه اهتمامها بالدرجة الأولى لقضايا الانتماء السلالى ، وتنظيم الفئات الحاكمة ، معتبرة قضاء محمد على على الهرمية الإقطاعية فى بداية القرن التاسع عشر كنهاية للإقطاع المصرى ، غير رابطة بين معالجة تطور الملكية الاقطاعية ، وبين تطور العلاقات الإيجارية ، بين مالكى الأرض والمنتجين المباشرين ، وبولياك لم ير بأى درجة كانت ، التغيرات فى وضع الفلاحين المصريين على امتداد العهد المملوكى حتى القرن التاسع عشر [٦] . والاهتمام المحدود بدور العامل الاقتصادى فى التاريخ نجد أصداء له عند بولياك في مقاله عن « الهبّات الشعبية في مصر فى عهد المماليك وأسبابها الاقتصادية » ولكن تفسيره للإقطاع لم يعط له أية أى إمكانية عن كشف البواعث الجذرية لهذه الهبّات وبولياك شبيه ببيكر فى كونه يطبق تجاه مصر فى العصورالوسطى ، مقولات ذات طبيعة رأسمالية (برجوازية - بروليتاريا - رأس المال) - والعصر المملوكى فى مصر ليس له أسباب كافية من وجهة نظره ، ولذلك فهو يظن أن استعمار قبيلة القرن الذهبى لمصر قد حدث تحت التأثير الكبير المتزايد للمغول ، ولكنه أحيانا يعطى أهمية محدودة للتطور الاجتماعى فى مصر ، وفي نفس الوقت فإن أعمال « بولياك » مشبعة بوقائع حقيقية وافرة تتضمنها استنتاجاته الخاصة المهمة :

وبدون أدنى شك فإن له الفضل فى إعدادالكثير من المصطلحات الاجتماعية والإدارية عن العصر المملوكى .

وأبحاث المستشرق الفرنسي التقدمي « كلود كهن » فى دراسة التاريخ الداخلي للأيوبيين فى مصر تعتبر ذخيرة جوهرية ؛ فهى مخصصة لتحليل العديد من المصادر التى تتعرض لأنشطة الإدارة المالية [٧] وفى كتاباته العامة ؛ مقالات ذات أهمية بالغة لأبعد الحدود عن تطور الإقطاع فى العالم الإسلامى من القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر الميلادى [٨] . خاصة تلك المواد القيمة ، عن النظام الاجتماعى الاقتصادى، التى تقدمها تعقيباته فى كتاباته المختلفة ، وفى عرضه لما قدمه إبن تغريبردى [٩] فى كتابه « الحوادث » . والأعمال المعروفة لنا لبعض المؤرخين المصريين عن الفترة المشار إليها ، تتصفح على الأغلب ، التاريخ السياسى فقط ، فكتابات على بيومى [١٠] تروى الحوادث المرتبطة باستقرار صلاح الدين فى مصر ، ثم مجموعة معلومات عن سياسته الداخلية فى مصر حتى ١١٨٢ م . وأعمال حسن على إبراهيم ، محمد سرور [١١] تهتم فى جوهرها بتواريخ السلالة المملوكية التركية الحاكمة ، وعلى الأخص صراعاتهم الخارجية مع أعدائهم فى أواخر عهدهم ؛ وعلاوة على هذا ، فإن حسن على ابراهيم يقدم معلومات وافرة متعلقة بالتنظيمات الإدارية فى مصر المملوكية ، ولكن كتاب محمد سرور يستعرض بعض المعلومات عن الحرف والزراعة .

ونجد عند المؤرخ السورى المعاصر : أحمد دراج فى مؤلفه « مصر تحت حكم بارسبياى » حقائق هامة عن التاريخ الخاص لمصر فى منتصف القرن الخامس عشر ، وكذلك العديد من الملاحظات القيمة ، غير أن وضع الفلاحين وأشكال الملكية الزراعية الإقطاعية لم يعطها المؤلف حقها من الاهتمام الوافر [١٢] .

وعند علماء التاريخ فى روسيا – فيما قبل الثورة – نجد مقالين مكرسين لمصر فى العهد المملوكى المبكر للرحالة الشهير ، ف . ا. أوسبنسكى ، والمستشرق ف ، ف ، تزنجاوزن يضيئان بعض القضايا فى سياسة مصر الخارجية [١٣] . وتزنجاوزن أصدر أيضا نصوصا وترجمات لعدد من المصادر العربية عن الفترة المملوكية [١٤] .

أما مسألة منشأ الإقطاع فى مصر من القرن الثالث وحتى الخامس الميلادى ؛ فقد تم الكلام عنها لأول مرة على يد الباحثين السوفيت . م . ليفتشنكو ، ن . بيجوليفسكى ، أ . ب . رانوفيتش ، الذين استطاعوا أن يكتشفوا تشكل الملكية الزراعية الواسعة ، وتكون أشكال مبكرة للارتباط الشخصى بالزراعة (مستوطنات) (١٥) . وتطور التنظيمات الإقطاعية فى مصر من القرن السادس وحتى القرن الثانى عشر الميلادى لم يخضع للدراسة التفصيلية فى كتابات المؤرخين السوفيت ولكننا نجد أصداء له تتردد فقط فى بعض أعمالهم ، كما فى مقدمات ا . كراتشكوفسكى ، ا . بيلايف فى كتاب « مذكرات أسامة بن منقذ » (١٦) .

ونجد أيضا هذه الأصداء عن العلاقات الزراعية على امتداد القرنين الثالث والرابع عشر فى مقاله س . ب بفرزنير ، الباحث فى تنظيمات الإقطاع (١٧) . وهى مقالة هامة وغنية بمضمونها إلا أنها تعتمد على عدد محدود من المصادر ، مما جعلها تتضمن العديد من الأخطاء الجوهرية . ولا يستثنى من ذلك أيضا طريقة إعداد هذا المؤلف لقضاياه . ولبفرزنير أيضا عدد من المقالات عن فن حرفة النسيج فى مصر المملوكية (١٨) .

ويقوم هذا العمل أساسا على المفهوم المادى للتاريخ فى دراسته ، للتشكلات الاقتصادية الاجتماعية كمراحل طبيعية فى تطور الإنسانية ، والتى تتصف بأسلوب إنتاج محدد للخيرات المادية . وأساس العلاقات الإنتاجية للتشكلات الإقطاعية – طبقا للنظرية المادية التاريخية – يقوم على الملكية الخاصة لطبقة الإقطاع ، وعلى رأسها وسائل الإنتاج التى تكون فى هذا العصر هى الأرض ، والإنتاج الفائض المتكون بواسطة المنتجين المباشرين ، يتم الاستحواذ عليه عن طريقة الإكراه اللا اقتصادى ، فى شكل الريع الإقطاعى .

وما دامت الزراعة فى مصر – فى الفترة المشار إليها – كانت هى العمل الأساسى للسكان ، فإن هذا يستتبع وجود نموذج رئيسى للعلاقات الاجتماعية مرتبط بدوره بالزراعة ، وبهذا القدر فإن القضية الرئيسية لهذا الكتاب ستكون – بمقدار توافر المادة العلمية – بحث العلاقات الزراعية ، بما يعنى توافق أشكال استغلال المنتجين المباشرين مع تطورات الملكية الشخصية الزراعية الإقطاعية .

وفيما يتعلق بالطبيعة الخاصة الركيزة الاقتصادية لطبقة الإقطاع - الغير المحددة - فى مصر الأيوبية والمملوكية ؛ شأنها فى ذلك شأن بلدان الشرق الأوسط فى كل العصور الوسطى ، فإن تحليل البنية الاجتماعية للمدينة بشكل ملموس يكون من الضرورى أيضا ؛ وذلك لبيان جوانب الملكية الخاصة الزراعية ، ولهذا سوف نخصص له فصلا غير كبير فى هذا الكتاب ؛ غير أننا لا نزعم أنه سيضئ كافة القضايا العديدة الناشئة عن دراسة المدينة المصرية فى الفترة الممتدة من القرن الثانى عشر وحتى الخامس عشر .

ومن الضرورى هنا ، أن نلمس التاريخ السياسى والدينى بدرجة ما ؛ وذلك لإيضاح القضايا العديدة المشار إليها سابقا .

وبمقدار ما كان تاريخ مصر الأيوبية والمملوكية مرتبطاً بشكل غير منقطع بتاريخ سوريا ، فإننا سنجد بعض انعكاسات هذا الارتباط فى كتابنا ، إذ إن الهدف هنا ليس هو دراسة بعض قضايا التاريخ الداخلى للدولة المصرية بل هو دراسة مصر فقط .

والعصر الذى امتد من القرن الثانى عشر وحتى بداية السادس عشر ، قدم العديد من المصادر القيمة المدونة والتى تنتسب إلى الفنون المتنوعة فى الأدب العربى ؛ ابتداء من دلائل الإدارة الجغرافية ، والأسفار التاريخية وانتهاء بالموسوعات . وأحد هذه المصادر هو كتاب : « تاريخ الفيوم وبلاده » لمؤلفه عثمان بن إبراهيم النابلسى الصفدى السورى الأصل ، الذى خدم فى الإدارة المصرية ابتداء من ١٢٤٣ م ثم عمل حاكما للفيوم فى ١٢٤٥ ، وقام بتأليف هذا الكتاب بناء على طلب من السلطان ، معتمدا على الوثائق التى تتضمنها الكتابات التفصيلية عن هذا الإقليم ، ثم بعض المعلومات التاريخية ، وإحصاء كافة الدوائر والضرائب المعاصرة له [١٩] . والنابلسى فى كتابه هذا يقوم أيضا بتسجيل بعض الانتقادات لنظام الهيئات المركزية فى حكم الأيوبيين لمصر ، ثم الكتاب الذى يليه أهمية وهو « كتاب قوانين الدواوين » لابن مماته المتوفى ٩-١٢٠ ، وكان قبطيا اعتنق الإسلام وشغل مركز مساعد رئيس الديوان الحربى فى عهد صلاح الدين وخلفائه . وقد أظهر الأكاديمى كراتشكوفسكى مزايا هذا الكتاب بقوله : « فإلى جانب عدد من التعليمات الإدارية ، فإن ما يقرب من نصف الكتاب

مخصص للسياسة الزراعية فى مصر ، وتفصيل بيان النوعيات المختلفة للأرض ومساحاتها وتسجيل مقادير الضرائب المجباة عنها ، ومعلومات أخرى ترتبط بهذا الموضوع .... إن أهمية هذه الموضوعات لبالغة الوضوح » (٢٠) .

وكتاب « سيرة صلاح الدين » يحتل أهمية من الدرجة الأولى ، ومؤلفه هو : بهاء الدين أبو الحسن يوسف بن شداد « ١١٤٥ – ١٢٣٤م) الذى قدم من الموصل وقضى قسما كبيراً من حياته يعمل فى إدارة القضاء الحربى فى عهد صلاح الدين .

أما كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » للمؤرخ والعالم اللغوى الدمشقى : عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة (١٢٠٢ – ١٢٦٧م) ، الذى عاش كل حياته فى وطنه دمشق ، حيث اشتغل معلما فى مدارسها ، فيحتل مكانة هامة أيضا لأنه يحتوى على تاريخ الزنكيين والأيوبيين ، ويتضمن العديد من المعلومات الهامة عن اقتصاد مصر ، خاصة أنوا ع الملكيات الإقطاعية .

وأبو شامة يستفيد فى عمله هذا من كتابين لأحد مساعدى صلاح الدين وهو عماد الدين الأصفهانى (١١٢٥–١٢٠٠م) « فتح القدس » ، « وبرق الشام » والأول موجود بكامله حتى الآن ، أما الثانى فقد فقدت منه أجزاء كثيرة ، وعلاوة على ذلك ؛ فإن أبو شامة يستفيد أيضا من كتاب ابن شداد المنوه عنه سابقا . وكذلك يعتمد على مؤلف تاريخ الخلافة لابن أبيتاى (١١٦٠ – ١٢٢٥م) وهو الشيعى الوحيد بين المؤرخين ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل ابن شداد يخفى نصوصه الأصلية فى كتابه . وهناك أهمية محدودة للجزء الأخير من كتاب « الكامل فى التاريخ » للمؤلف الشهير : عز الدين أبو الحسن على بن الأثير ، الذى ولد فى ١١٦٠م فى جزيرة ابن عمر على نهر دجلة ، وتلقى تعليمه فى الموصل وبغداد وبعد ذلك أكمل كتابه أثناء رحيله إلى الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين ، وفى ١١٨٨ ساهم فى معارك صلاح الدين مع الصليبيين

والقسم الأكبر من حياة ابن الأثير قضاه فى الموصل مكرسا نفسه لخدمة العلم حيث مات هناك فى ١٢٣٤م وكتابه يؤرخ حتى ١٢٣١م ، ويستعرض فيه التاريخ المعاصر له ، وهو أيضا يستفيد من ملاحظاته الذاتية معطيا انتباها خاصا لوطنه الموصل .

والأهمية الأساسية لكتب : ابن شداد ، وأبو شامة ، وابن الأثير ؛ ترجع إلى أنها تهتم بتسجيل حملات صلاح الدين ، علاوة على أن مؤلفات أبو شامة وابن شداد تنطوى على طبيعة دفاعية بينما ابن الأثير يعكس الأحوال النفسية للمضطهدين تجاه الإقطاعيين المسيطرين في المقاطعات الشمالية ، ويحمل العداء لشخصية صلاح الدين . والمعلومات الخاصة باقتصاد مصر في هذه الكتب متواضعة ولكنها عظيمة القيمة .

والمصادر الأصلية لا تمتلك أية مقارنات في أصولها العربية ، بل إن هذه المقارنات لغائبة تماما ، باستثناء المذكرات المعاصرة للحملة الصليبية الأولى والتي كتبها الأمير السورى : أسامه بن منقذ (١٠٩٥ – ١١٨٨م) وسماها كتاب « الاعتبار » وعن أهمية هذا الكتاب كتب البروفيسور : ف . بوزين : « إنها تعطى صورة خاطفة عن حقيقة ظروف الحياة وروح ذلك العصر » (٢١) .

والعالم الطبيب : عبد اللطيف البغدادى في كتابه « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة وفي الحوادث المعينة بدار مصر » يقدم معلومات قيمة عن الحياة المدنية في وصفه لمصر ، وقد ولد البغدادى في ١١٦٢م في بغداد حيث درس العلوم الطبيعية والأدبية ، وواصل دراسته فيما بعد في سوريا ومصر ، وكان قريبا من علماء ذلك العصر المعروفين ومن بينهم ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين ، وكتابه هذا قد تم تدوينه بين (١٢٠٣ – ١٢٠٦م) وقدمه هدية للسلطان العادل ، وهو أخ لصلاح الدين (وذلك كى لا يختفى من العلوم الجليلة شئ من الحوادث في البلاد ، مهما كانت واهية أو متخفية ، ولا أية حالة من أحوال رعاياه مهما كانوا * بعيدين عنه) (٢٢) .

وكتاب « رحلة الكنانة » للجغرافي الأندلسي محمد بن أحمد بن جبير (١١٤٥–١٢١٧م) وهو من أصل عربي معروف بثرائه ، يعتبر مصدرا قيما ، وقد كتبه أثناء قيامه برحلة الحج إلى مكة وذلك خلال رحلته من مصر إلى سوريا فيما بين (١١٨٣–١١٨٥م) (٢٣) .

* للأمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين (السلطان العادل) ... لئلا ينطوى عن العلوم الشريفة شئ من أخبار بلاده وإن تراخت أو يُخفى بعض أحوال رعاياه وإن تنائت » .
البغدادى : الإفاده والاعتبار .... ص ٤ طبعة وادى النيل ١٢٧٦ هـ .

وهناك أهمية محدودة لكتاب « تاريخ الكنيسة والأديرة القبطية » لمؤلفة الأرمنى المصرى « أبو صالح » الذى عاش فى نهاية القرن الثانى عشر ، وقصة حياته غير معروفة ، وكتابه يقوم بإحصاء المؤسسات الدينية المسيحية ، وهو إلى جانب المعلومات التاريخية يقدم بعض المعطيات عن النظام الاقتصادى الاجتماعى .

أما عن مصادر الفترة المبكرة من حكم المماليك ، فإن الأهمية العظمى يتضمنها الجزء الباقى من سيرة حياة بيبرس « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر » الذى قام بكتابتها محي الدين بن عبد الظاهر (١٢٢٣ – ١٢٩٢م) وكان يعمل مساعدا خاصا للسلطان الظاهر ، وهو يغطى الخمس سنوات الأولى من حكم بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٦٥م) بشكل نموذجي كامل لروح مداح يعمل كمؤرخ فى البلاط السلطانى ، والكتاب مع هذا يعطى بعض التصورات الدقيقة إلى حد كبير عن الحياة السياسية والاجتماعية فى فترة الخمس سنوات المشار إليها .

ومن مؤلفى عهد المماليك الأوائل الذين يحتلون أهمية فائقة الحدود : إسماعيل بن على أبو الفدا وهو من أحد الفروع الثانوية للحكام الأيوبيين المصريين فى حماه ، وقد ولد أبو الفدا فى دمشق ١٢٧٣م واشترك فى سنوات عمره الأخيرة فى الصراع ضد الصليبيين ، وبعد خضوع حماه للماليك فى (١٢٩٩م) بقى كموظف عند حاكمها المملوكى ، لكن فى ١٣١٠م ، تم تعيينه حاكما لها . وظل يشغل هذا المنصب حتى آخر حياته فى ١٣٣١ م ، ومن كتابيه الباقيين لنا ، وخاصة الأجزاء الأخيرة الهامة من كتابه « المختصر فى تاريخ البشر » الذى يستعرض فيه الحوادث منذ وجود العالم حتى (١٣٢٩م) ، وبسبب الرحلات الخاصة للمؤلف إلى مصر ، وبسبب قربه من القصر السلطانى ؛ فإن كتابه يحتوى على معلومات قيمة عن البنية الاجتماعية المعاصرة له ، كما أنه يقدم تاريخ العصر الأيوبى ، وهو يستعرض أساسا مؤلفات السابقين له ومن بينهم الكتاب السابق التنويه عنه لابن الأثير ، والأجزاء الكاملة لهذا الكتاب غير منشورة ولم يتح لنا منها سوى المقاطع المترجمة من « تزنجاوزن » تحت اسم تاريخ الأيوبيين لابن واصل ١٢٠٧ – ١٢٩٨م » .

والمعلومات الهامة عن الحياة الداخلية لمصر فى الثلث الأخير من القرن الرابع عشر تتضمنها الأجزاء الصادرة من كتاب فى التاريخ العام ، وضعه الموظف المملوكى المعروف : ابن دويدار ، وهو قد ساهم بفاعلية فى صراع الكتل المملوكية من أجل السلطة ، هذا الصراع الذى انتهى بالانتصار التام للسلطان الناصر محمد ، وابن دويدار يصف الحوادث الجارية فى حكمه للمرة الثانية ، وقسم هام من فترة حكمه الثالثة (١٢٩٩ - ١٣٣٣م) . والجزء التاسع المطبوع من هذا الكتاب يحمل اسم « الدر الفخيم فى سيرة الملك الناصر » .

وبعض المعلومات الهامة عن اقتصاد مصر فى عهد المماليك الأوائل - تتضمنها موسوعة شهاب الدين أحمد النويرى (١٢٧٩ - ١٣٣٢م) المسماة « نهاية الإرب فى فنون العرب » والنويرى هذا ولد فى صعيد مصر فى أسرة من الكتبة وورث مهنة أبيه ، وفى كتابه هذا يطرح مجمل قضايا المعرفة الإنسانية الضرورية لكتاب مدرسى (٢٤) . وما يلزم عملنا من هذا الكتاب ، هو الجزء الهام الخاص بالتعليمات المتعلقة بوثائق منح الأرض ، وبجمع الضرائب ، وهو موجود فى المجلد الثامن من طبعة القاهرة .

أما الموسوعة الأخرى الكبيرة فى العصر المملوكى ، والتى تحمل اسم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » لشهاب الدين أحمد بن على القلقشندى ، وهى تمتلك أهمية غير قليلة (وخاصة بعض المعلومات عن التقسيمات الإدارية ، وعن نظام الضرائب والجيش) وهذا المؤلف العربى الشهير قد ولد أيضا فى مصر سنة ١٣٥٥ م فى إقطاع قلقشند القريبة من قليوب ، ودرس فى الإسكندرية حيث تعلم الفقه ثم انتقل فيما بعد إلى دائرة حكومية ، وهناك بدأ عمله فى كتابه الموسوعى هذا ، وهو لم ينته منه حتى نهاية حياته سنة ١٤١٨م . وأهمية كتاب القلقشندى لا ترجع إلى كونه يتضمن فقط معلومات أصيلة من أخباره عن النظام الاجتماعى المعاصر له ، وإنما فى احتوائه على الكثير من معطيات المصادر الأخرى ، وخاصة ما جاء فيه عن القسم الهام من الموسوعة الكبيرة الثالثة فى العهد المملوكى ، وهى غير مطبوعة ، وتسمى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » والتى أعدها شهاب الدين أحمد العمرى (١٣٠١-١٣٤٩م) .

وضروري أيضا لبحثنا معلومات وردت عند المؤرخ العربي الشهير : أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) في كتابه « العبر » وابن خلدون ينحدر من أسرة غنية من عرب الشمال ، استوطنت تونس ، وكان طوال حياته يعمل في الوظائف الإدارية العليا في قصور حكام الشمال الأفريقي المختلفين ، ولكنه ابتداء من (١٣٨٢م) حتى وفاته شغل في القاهرة وظيفة رئيس قضاة المذهب المالكي وقام بالتدريس في مدارسها .

والفصول المكرسة لمصر الأيوبية والمطروحة أساسا في أعمال عماد الدين الأصفهاني ، وابن الأثير تحتل أهمية عظمى ؛ لأنها تقوم بترتيب أقسامها طبقا لتاريخها المعاصر ، وعلى الأخص تلك المعلومات التي يمكن أن تلقي الضوء على العلاقات المتبادلة بين سلاطين المماليك والقاطنين من القبائل الرحل . ومن الأعمال المتأخرة التي تستحق التنوية ، مخطوط للموظف القاهري : ناصر الدين محمد بن الفرات (١٣٣٤-١٤٠٥م) ويسمى « تاريخ » والمنشور منه قسم يغطي الفترة من (١٢٧٣-١٣٩٧) وهو يعتمد أساسا على الملاحظات الشخصية للمؤلف ، والكثير من هذه المخطوطات لم ينشر ، « باستثناء ما قدمه » تزنجاوزن من مقاطع ، والقسم التاريخي من موسوعة النويري يتضمن أيضا معلومات هامة عن الحياة الاقتصادية في مصر .

وهناك معلومات هامة أيضا عن الملكية الإقطاعية للأرض يتضمنها المؤلف الجغرافي لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق الذي شغل منصب حاكم دمياط لفترة قصيرة واشتغل بعد ذلك هو أيضا بالتدريس حتى وفاته في ١٤٠٧م تقريبا . وعمله هذا مستكمل حتى بداية (١٣٩١م) وهو يحمل اسم « كتاب الانتصار لوسيطة عقد الأمصار » وهو مخصص لوصف القاهرة والإسكندرية وبعض الأقاليم القريبة منها ، وينبغي ملاحظة ما تم التنوية عنه سابقا من جمع « تزنجاوزن » لبعض المقاطع المتبقية من هذ، العمل التاريخي لابن دقماق . وأحد هذه المقاطع يتجول حتى (١٣٧٧م) والآخر حتى (١٤٠٢م) . ولكن الأهمية الاستثنائية في كل مخلفات العصر الأيوبي والمملوكي ، ترجع إلى اثنين من مؤلفات المؤرخ المصري الشهير : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي .

الذى ولد بالقاهرة ودرس بها علم الفقه (وكان بن دقماق أحد أساتذته) وفيما بعد ، قام بتدريس التراث وشغل وظيفة القاضى ، ثم محتسبا لبعض الوقت ، وفى ١٤٠٨م انتقل المقريزى لوظيفة فى دمشق ، لكنه عاد إلى القاهرة خلال عشر سنوات ، ووهب حياته للعمل العلمى .

والعمل الأول من المؤلفين اللذين نوهنا عنهما المقريزى هو : الدليل الجغرافى التاريخى الشهير « كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » وقد عمل المقريزى فى هذا الكتاب طوال العشرين عاما الأخيرة من حياته (٢٥) ، وهذا الكتاب يتضمن بشكل خاص مقاطع من إنتاج كثير من مؤلفى العهدين الأيوبى والملوكى المبكر ، السابقين له والمعاصرين ، تلك التى تلقى الضوء على الكثير من جوانب حياة الشعب المصرى ، علاوة على أن المقريزى يقوم كقاعدة عامة - بتحديد أسماء هؤلاء المؤلفين (٢٦) ، ويقدم الكثير من المعلومات ذات الأهمية القصوى عن مصر المعاصرة له .

أما عمله الثانى ، وهو سفر تاريخى يسمى كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » وهو يحيط بتاريخ مصر من (١١٨١ حتى ١٤٤٠م) ويتضمن هو أيضا معلومات هامة عن النظام الاجتماعى والاقتصادى (٢٧) ، والمقريزى هنا يستخدم من المصادر القيمة القليل بالنسبة لعمله السابق ، ومن بينها الأجزاء المفقودة من سيرة بيبرس المنوه عنها سابقا لابن عبد الظاهر ، وأيضا أعمال المؤرخين المعاصرين للناصر محمد (٢٨) ، وبدرجة ما بعض الأبواب غير المنشورة من « تاريخ » ابن دويدار المخصص للأيوبيين .

ومن الضرورى التنويه بواحد من الأعمال العديدة للمقريزى وهو بحثه المسمى (كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة .) « أو تاريخ المجاعات فى مصر » وهذا الكتاب مخصص لوصف سنوات الجوع فى مصر ابتداء من العهود القديمة حتى بدايات القرن الخامس عشر .

أما الأوضاع الداخلية لمصر فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ولمدة مائة عام فنجد أصداءها منعكسة فى كتابى : أبى المحاسن يوسف بن تغربردى (١٤٠٩-١٤٧٠م) وهو نجل مملوك بارز ، وكان يعمل فى القصر السلطانى ، وهذان

الكتابان عبارة عن رسائل كاملة ومستمرة متبادلة بين صـديق وصديق ، يحمل الأول منهما اسـم كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » أما الثانى فيسمى «حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور » والكتاب الأول : يحيط بالفترة منذ الغزو العربى حتى ١٤٦٤م ، أما الكتاب الثانى فيغطى الفترة من ١٤٤١ إلى ١٤٦٩م ، والأهمية الخاصة لهذين العملين تكمن فى أنهما يتضمنان أخبارا عن الصراع الداخلى للإقطاع ، والحركات الشعبية ، وعلاوة على ذلك : فإن كتاب النجوم الزاهرة يمتلك أهمية محدودة فى دراسة العهد الأيوبى والعهد المملوكى المبكر ، وإلى جانب هذا فإن قيمة الفصول الملائمة لعملنا تتحدد بمدى قيمة استخدام ابن تغريبردى للمصادر ، وهو فى كثير من الحالات يستخدم كتاب معلمه المقريزى «السلوك» ، وفى أسلوب سهل المنال يتناول جزءا غير كبير من كتاب سبط بن الجوزى (١١٨٦ - ١٢٥٧م) المنوه عنه من ابن دقماق .

كذلك يتضمن كتاب المؤرخ : عبد الرحمن السخاوى (١٤٢٧ - ١٤٩٧م) بعض المعلومات عن النظام الاجتماعى الاقتصادى . وهذا المؤلف قضى كل حياته تقريبا فى القاهرة ، مشتغلا بالتعليم ، وكتابه « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » يحيط بالفترة من (١٤٤١-١٤٥٣م) . وهناك بعض المعطيات الملحوظة التى تهم عملنا نجدها فى مؤلف الموظف المملوكى ، ذى الشخصية المعروفة : خليل بن شاهين الظاهرى ، والذى شغل فى حياته العديد من المناصب الكبرى ، كان من بينها وظيفة حاكم الإسكندرية وكراك ، وصفد ، وكتابه « زبدة كشف الممالك فى بيان الطرق والمسالك » عبارة عن دليل مختصر يلبى حاجة الموظفين إليه ، (وفى حقيقة الأمر ، فإن معلومات هذا الكتاب ليست وفيرة ، علاوة على أنها لا تتمتع بالدقة [٢٩] .

وفى تأمل القضايا المرتبطة بالملكية الإقطاعية ، فإن الأهمية الأولى لوصف مساحات الأراضى الزراعية ، نجدها فى الكتاب المسمى «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » والمدونة بقلم موظف الإدارة الحكومية : شرف الدين يحيى بن المقار بن الجيعان . هذا السجل الوصفى لابن الجيعان ، تم إنجازه فى عهد السلطان : قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦م) وهو يعتمد أساسا على الوثائق المتعلقة بفترة حكم السلطان الأشرف

ناصر الدين شعبان (١٣٦٣-١٣٧٧م) . والتسجيل التاريخى الدقيق لهذه الوثائق هو الذى أوصل الباحث الألمانى « ب موريتس » إلى أن يدحض بصورة مقنعة - بتصحيحاته المستمدة من سجلات السلطان شعبان - ما قدمه سيلفستر دى ساسى من مصادقات كانت مقتبسة من سجلات الناصر محمد ، المدونة فى بداية القرن الرابع عشر [٢٠] .

ونصوص مراسيم السلاطين وقراراتهم هم ونوابهم فى العهد المملوكى هامة جدا ، فى دراسة أوضاع السكان المسيحيين ، وهى منشورة فى م . فان . برخيم . ، أما عن تاريخ مصر فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، فإن الكتاب الوحيد المعروف لنا فى المصادر العربية ، هو كتاب محمد بن أحمد بن إياس (١٤٤٨-١٥٢٤م) وهو سليل أحد الأسر المملوكية الشهيرة وكتابه معروف باسم : «تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور فى وقائع الأمور » . وهو يتضمن عرض تاريخ مصر منذ « وجود العالم » حتى (١٥٢٢م) وفيه يستعرض الحوادث حتى منتصف القرن الخامس عشر بأسلوب سلس معتمدا على أعمال سابقيه ، بما فيهم عماد الدين الأصفهانى والمقريزى ، ويعد هذا يقوم بتقديم وصف تفصيلى واسع حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية الغزو التركى ، وفى السنوات الأخيرة ، قدم بشكل أساس « كثيرا من الملاحظات القيمة عن الحياة اليومية بصفته شاهد عيان .

هوامش المقدمة

1 - Silvestre de Sacy, Sur la nature et les révolutions du droit de propriété territoriale en Egypte, depuis la conquête de ce pays par les musulmans jusquà l'expédition des Français .

(Bibliotheque des arabisants français) , premiere,t. II, le Caire, 1923 .

(عن الطبعة البارسية الأولى ١٨١٥) .

2 - C. Becker, islamstudien, Bd I, Leipzig ,1924 .

3 - Ibid.,s. 247 .

4 - Ibid.,s 236 - 238 .

5 - (Les révoltes populaires en Egypte à l'époque des mamelouks et leurs causes économiques) RÉI, VIII, 1934; (Le caractére colonial de l' État mamelouk dans ses rapports avec la Horde d'or) RÉI, IX, 1935; (La Feodalité islamique) , RÉI X ,1936; (Some notes on the Feudal system of the Memluks),- JRAS, 1937 , (Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250 - 1900), London, 1939; (The Ayyubid Feudalism), JRAS , 1939, pt III; (The influenec of Chngiz- Khan's Yasa upon the general organisation of the Mamluk state), BSOAS, vol . X, 1942, pt 4 .

6 - A. Poliak. La féodalité islamique - REI, X, 1936. , P. 12 .

7 - Cl . Cahen. Le regime des impôts dans le Fayyum Ayyubide (Arabica), 1956, t. III, fasc. I. Cl. Cahen. Un traité Financier inédit d'epoque Fatimide - Ayyubide. - JESHO , Vol.V, 1962, pt2, Cl. Cahen Contribution à l'étude des impôts dans l' Égypte médiévale, - JESHO , vol. V, 1962, pt 3 .

أما عن الملاحظات الخاصة : ك – كهن ، فينبغى الانتباه – للنقص الواضح فى منطلقات ، ففى واحد من مقالاته الأخيرة ، المخصصة لتحديد مفهوم للإقطاع ، يمضى معترفا بالملامح الجوهرية لوجود الملكية للأرض ، مقترنا بتبعية الفلاحين الشخصية للإقطاعى ، وتبعية الإقطاعى الأقل رتبة لمن هو أعلى منه رتبة .

وفى نفس الوقت ، يكتب كهن قاصدا مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك « أن نظام الحكومات الإسلامية يمكن أن يسمى فقط وبصعوبة – فى الظروف الاستثنائية – بالنظام الإقطاعى » .

(Cl. Cahen. Au seuil de la troisième année, Réflexion sur l'usage du mot (Féodalité). - JESHO. Vol. III, 1960, pt I, P. 19)

8 - Cl. Cahen. L'évolution de l'iqta du IXe au XIIIe Siécle : Contributionà une

histoire comparée des sociétés médiévales - (Annales Économies . Sociétés . Civilisations) , 8e année, Paris, 1953, No 1 .

9 - W. Popper, Egypt and Syria under the Circassian sultans , 1382 - 1468 a.d. Systematic notes to Ibn Taghri Birdi's Chronicles of Egypt, - (University of California publications in semitic philology) Vol. 15, Berkeley - Los Angeles, 1955 .

١٠ – بيومى على . قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

١١ – حسن على إبراهيم – دراسات فى تاريخ المماليك البحرية – القاهرة ، ١٩٤٨ ، سرور محمد – دولة بنى قلاوون فى مصر – القاهرة ، ١٩٤٧ .

12 - A. Darrag , L' Egypte sous le règne de Barsbay (825 - 841) / (1422 - 1438) , Damas, 1961 .

См. нашу заметку об этой книге в журнале «Народы Азии и Африки», 1964, № 2, стр. 205—206.

١٣ – المؤرخون البيزنطيون المغول والمماليك المصريين : (بالروسية) - Ф. И. Успенский, *Византийские историки о монголах и египетских мамлюках*, — «Византийский временник», т. XXIV, Л., 1926;

نبذه من علاقات مصر بالقربيين والبلغاريين فى القرن الرابع عشر (بالروسية) فى : «Записки Восточного отделения Русского археологического общества», т. IV, СПб., 1889, вып. 1—2.

١٤ – مجموعة المواد المتعلقة بتاريخ قبيلة القرن الذهبى B. Ф. Тизенгаузен, بالروسية ١٨٨٤

وينبغي الإشارة إلى أنه فى ١٨٦٥ وفى المجلد الثالث للمختارات لاستاسيوليفتش كان قد تم طبع بعض المقاطع من المصادر المخصصة لهذه الفترة ، غير أنه كما يبدو فإن الجامع لهذه المجلدات لم يجد نسخة أصلية باللغة العربية فوضعها باللغة الروسية .

انظر استاسيوليفتش : « تاريخ العصور الوسطى من خلال كتابها وأبحاث علمائها المحدثين » مجلد ٣ ١٨٨٥ بالروسية .

١٥ – تاريخ بيزنطة M. B. Левченко, *История Византии*, M., 1940;

قضايا نشأة وتطور الإقطاع فى الشرق الأدنى

وذلك فى مجلة : «Вопросы истории», 1962, № 6

١٦ – تاريخ العصور الوسطى فى الشرق (الخلفاء والشرق الأدنى) Б. Н. Заходер,١٩٤٤
وأيضا . تاريخ بلدان الشرق الأوسط فى العصور الوسطى لنفس المؤلف ١٩٥٧ .
وأيضا : التاريخ العالمى مجلد ٣– ١٩٥٧ .
وانظرا أيضا لأسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار .
١٧ – الإقطاع فى مصر من نهاية القرن الثالث وحتى نهاية القرن الرابع عشر С. Б. Певнер,
١٨ – انظر أعمال С. Б. Певнера:
بعض القضايا عن دراسة النسيج فى مصر فى العصور الوسطى فى :
وانظر ايضا « التأثيرات الصينية فى أشكال الحرف الفنية فى العصور الوسطى فى مصر » فى :
وانظر أيضا : نحو إنتاجية العمل فى إنتاج النسيج فى مصر من نهاية القرن الثانى عشر وحتى الخامس عشر فى .
محاضرة فى المؤتمر العالمى الخامس والعشرين للاستشراق ١٩٦٠)
١٩ – وهناك عرض تفصيلى لمحتويات هذا الكتاب .... انظر И. Ю. Крачков-ский, *Арабская географическая литература*, — Избранные сочинения, т. IV, М. — Л., 1957, стр. 347—348.
٢٠ – نفس المصدر ص ٣٠٩ .

21- «Записки Восточного отделения Русского археологического общества», т. II, 1887, стр. 175.

22-И.Ю.Крачковский, *Арабская географическая литература*, стр. 343.

٢٣ – نفس المصدر ص ٣٠٤ – ٣٠٧ .
٢٤ – نفس المصدر ص ٤٠٣ .
٢٥ – تعتمد على معطيات الطبعة القاهرية الثانية المتاحة لنا فى أجزاء من إصدار (Г. Вьета) فى ثلاثة أجزاء فى مجلدين .

26 - A. R. Guest. A list of writers . books and other authorities, mentioned by el . Maqrizi in his khitat - JRAS . 1902 .

٢٧ – تحت يدنا كل الأجزاء الثلاثة الأولى فى مجلد واحد وجزءين فى مجلدين – إصدار القاهرة محمد زيادة حيث يصل التاريخ حتى سنة ١٣٤١ .
٢٨ – ابن عبد الظاهر ص ١٨ .

29- И. Ю. Крачковский, *Арабская географическая литература*, стр. 462.

٣٠ – انظر ابن الجيعان – المقدمة ص ٢ ، ٣ ، عبد اللطيف ص ٥٨٥ .

الفصل الأول

الحدود والتنظيم الإدارى

الفصل الأول

الحدود والتنظيم الإدارى

داهم منتصف القرن الثانى عشر الخلفاء الفاطميين الضعاف فى مصر (خليفة القاهرة) بالأزمة الاقتصادية العميقة ، الطاحنة ، وبالمصاعب الناجمة عن السياسات الخارجية التي أحاقت بمصر وحدها في ذلك الوقت .

فالسواحل السورية والفلسطينية كان قد تم الاستيلاء عليها منذ القرن الحادى عشر ، بواسطة الصليبين الذين أقاموا بها منذ الحملة الصليبية الأولى ، وتأسست فيها ولايات : الرها وطرابلس ، وإمارة أنطاكية ، ومملكة القدس ، أما بقية الأقاليم السورية فقد ظلت تحت حكم الإقطاعيين العرب والسلاجقة المستقلين . وكان أكثرهم قوة فى أواخر ذلك العهد هم الزنكيون ، فمنذ منتصف القرن الحادى عشر وعلى امتداد هذا القرن ، أتيح للأمير عماد الدين زنكى ، بعد أن وحد تحت سلطته العراق وشمال سوريا ، أن يوجه ضربة شديدة للصليبين ، واستولى جيشه على جزء كبير من ولاية الرها ، وحرر بشكل ما وادي الفرات من الفرنجة .

وكان هذا هو الباعث الأساسي للحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩م) التى كان عملها الرئيسي هو حصار دمشق ، الذى انتهى بالفشل الذريع .

وواصل سياسة عماد الدين ابنه نور الدين محمود بن زنكى (١١٤٦-١١٧٤م). واستطاع نور الدين أن يخضع دمشق وقلاعا سورية أخرى ، وسعيا وراء المزيد من القوة التى تتيح له إمكانية الهجوم على الصليبين من الجنوب ، بدأ حربا عنيدة ونضالا سياسيا من أجل إخضاع مصر، تحت حجة حماية حق الوزير الفاطمى المطرود شاور، وظل نور الدين متابعا هدفه ، مرسلا إلى مصر ثلاث مرات فرقا عسكرية منتقاة ، كان على رأسها قائده : أسد الدين شيركوه وهو عم صلاح الدين ، الذى استطاع أن يصد بقواته تهديد الصليبين الراغبين في الاستيلاء على مصر ، وكانت سياسته الحاذقة ذات تأثير كبير فى القصر القاهرى .

وبعد موت شاور فى (١١٦٨م) قام العاضد لدين الله وهو آخر الخلفاء الفاطميين ، بتعيين أسد الدين وزيرا له ، وفى السنة التالية ، أى بعد الموت المفاجئ لشيركوه بسبب

الإسراف فى الطعام ، انتقلت الوزارة إلى صلاح الدين الذى كان موجودا فى حاشية شيركوه منذ الحملة الأخيرة . والفترة المبكرة من حياة صلاح الدين حتى وجوده فى مصر غير معروف عنها الكثير ، فجده شادى ينحدر من الكرد ، من قبيلة تسمى روادى ، كانت تقطن إقليم دوين فى أرمينيا[1] . وكان قد توجه مع ابنيه شيركوه وأيوب إلى بغداد ، فى قصر السلطان السلجوقى مسعود ، حيث تم تعيينه حاكما لقلعة تكريت على نهر دجلة ، وبعد موت شادى انتقلت وظيفته إلى أيوب .ولكن بعد عدة سنوات ، أى فى (١١٣٨م) عندما قتل شيركوه أحد المحاربين السلجوقيين المعروفين فى اشتباك بينهما ، اضطر الأخوان أن يهجرا تكريت . وفى أثناء رحيلهما ليلا تمت ولادة الابن صلاح الدين يوسف .

وتوجه أيوب وشيركوه إلى قصر عماد الدين زنكى ، وفيه تيسر لأيوب أن ينقذ حياة عماد الدين من الخطر فى تلك الليلة ، ولذا فإنه قبل بحفاوة وترحاب أن يقيم عنده منقذه هذا هو وأخوه ، وسرعان ما تم تعيين أيوب نائبا على بعلبك ، وبذلك سهل له الانتقال إلى دمشق تحت سلطة نور الدين ، وعاش صلاح الدين فى قصر الزنكيين غير مظهر ميوله الخاصة نحو الأعمال الحربية ، وامتيازه بالفروسية ، وعندما تم تعيينه فى وظيفة بحاشية شيركوه ، رفض هذه الوظيفة ، ولكنه قبل وظيفة الوزير فى مصر ، وسرعان ما تجلت مواهبه الفذة فى القيادة وشئون الحكم ، مما جعل الخليفة الفاطمى يرفض أن يكون مجرد منفذ مذعن لإرادته ، وسعى للقضاء عليه عن طريق الدسائس . ولكن صلاح الدين استطاع أن يهزم أعداءه ويعين نفسه حاكما على مصر ، بعد أن خلع الخليفة المتوفى فى (١١٧١م) . ومنذ ذلك الوقت بدأت السلالة الأيوبية تحكم مصر رسميا . وبعد ذلك سرعان ما هاجم الموت نور الدين الذى رأى منافسه المتوجس منه خيفة : صلاح الدين وهو يقوم بتأسيس دولته ، التى تزداد رسوخا كل يوم .

وواصل صلاح الدين سياسة نور الدين ، وتعهد بالحرب المقدسة ضد الصليبيين ، وأخضع كل إمكانياته لهذا الهدف . وبدأ صلاح الدين بتقوية القاعدة المادية للجيش المصرى ، عن طريق التوزيع الواسع للملكية الزراعية ، وقمع المعارضة الفاطمية . وبدأت بذلك مرحلة تعزيز قوى المسلمين للصراع القادم .

وفى السنوات الأولى من حكم صلاح الدين المستقل ، تحققت غزواته الأولى فى ١١٧٢ ١١٧٣م بقيادة بهاء الدين قراقوش التقوى الذى أخضع برقة وطرابلس على الشاطئ الأفريقى ، ثم قام الجيش المصرى أيضا فى ١١٧٤م بقيادة توران شاه (أخو صلاح الدين) بغزو اليمن ، وكان الهدف الرئيسى لكلا هاتين العمليتين ، هو إعداد ملجأ لصلاح الدين فى حالة هزيمته فى صراعه مع نور الدين ، غير أن نور الدين قد مات فى نفس هذا العام .

صارت الممتلكات السورية لنور الدين موضع صراع بين أتباعه المختلفين ، وتحت دعوى حماية حق الصغير « صالح » وريث نور الدين ، توجه صلاح الدين بفرقة صغيرة إلى سوريا ، ولم تواجهه أية مقاومة عنيفة . وفى تلك السنة (١١٧٤م) تم له فتح دمشق وحماة وكافة الأقاليم السورية ما عدا حلب ، وعين أخاه توران شاه نائبا أول له فى سوريا ، أما حكام الجزيرة [٢] الزنكيون والأرتوكيون والبختينيون فقد وقعوا مع صلاح الدين فى (١١٨٠م) م اتفاق سلام لمدة عامين ، ولكن بعد فترة قليلة من الزمن خضع الواحد منهم تلو الآخر . وفى ١١٨٢م تمكن الجيش المصرى من الاستيلاء على حلب التى كان يحكمها عماد الدين زنكى الثانى بن عم صالح بن نور الدين ، واعترف حاكم الموصل : عز الدين مسعود الأول – وهو من أسرة تركية – بتبعيته لصلاح الدين فى خلال أربع سنوات بعد أن رأى تفوق قواته . وبهذه الصورة تم خضوع الجزيرة فى (١١٨٦م) – وصار صلاح الدين هو الحاكم الجبار فى العالم الإسلامى [٣] فبإخضاع الجزيرة تم له تقوية الحدود الشمالية الشرقية ، وصارت تحت تصرفه الآن كل موارد مصر المادية ، وكل جيوش الأقاليم السورية . وتواصلت حركة القوات المصرية على امتداد شواطئ أفريقيا الشمالية وتكللت بالنجاح بفتح القيروان فى (١١٨٧م) ، وتقلص خطر الهجوم من الغرب ، مما أعطى له إمكانية البدء فى الهجوم الحاسم على الصليبيين ، وكان صراعه معهم حتى ذلك التاريخ عرضيا . ففى (١١٧٠م) استوى على أيلة وهى ميناء على خليج العقبة ، مما سهل له التحكم فى البحر الأحمر ، ثم نجحت حملته على غزة الواقعة على حدود مملكة القدس ، وفى (١١٨١م) تم له تحطيم القوات الصليبية الساعية للهجوم على الحجاز خلال البحر الأحمر ، بواسطة الأسطول المصرى .

وكان الباعث وراء هذا الصراع هو خيانة ريجنالد شاتيلونسك حاكم كراك ؛ وهى قلعة تقع فى اتجاه الشرق من البحر الميت وتتحكم فى العابرين من سوريا – خلال الطريق الصحراوى – إلى مصر أو الحجاز حيث نكث حاكمها بوعده لصلاح الدين وحطم قافلة التجار المسلمين المتجهة إلى أخ لصلاح الدين .

وطبقا لأوامر صلاح الدين ، تجمعت قوات المسلمين فى دمشق فى مايو ١١٨٧م وبدأ حملة مقدسة فى ٣ – ٤ يولية من هذه السنة فى حطين ، انهزم فيها الصليبيون شر هزيمة، ووقع جويدى لوزيان ملك القدس فى الأسر هو وقواده الآخرين ، وبعد ثلاثة شهور من معركة حطين ، كان علم صلاح الدين الأصفر يرفرف فى سماء القدس ، والحملة الشهيرة الأخرى فى ١١٨٨م كانت تتمثل فى الاستيلاء على جزء كبير من ولاية طرابلس وإدارة أنطاكية فى ١١٨٨ – ١١٨٩م واسترجع فيها صلاح الدين عددا آخر من القلاع من بينها كراك التى تقع فى اتجاه الجنوب من الشوبك . وأدت نجاحات صلاح الدين هذه إلى مجئ الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد الأول الانجليزى وفيليب الثانى أوجست الفرنسى ؛ وبعد سنتين تقريبا من حصار عكا ، تم لهما الاستيلاء عليها ولكن هدف حملتهما لم يتحقق .

وبانتصار جيوش المسلمين ، تم توقيع معاهدة سلام فى الرمل فى عام ١١٩٢م ، وصارت كل فلسطين وفقا لشروطها تحت يد صلاح الدين ؛ علاوة على مستطيل ضيق على الشاطئ يمتد من صور حتى يافا ، وبقيت تحت سلطة الصليبين بعض القلاع الحربية فى سوريا من بينها طرابلس وأنطاكية وصور وقيسارية .

وفى ١١٩٣م مات صلاح الدين من أثر الحمى فى دمشق .

وطبقا لوصيته ، توزعت مقاليد أمور دولته بين أبنائه وأخيه العادل ؛ فالأفضل ابنه الأكبر تسلم دمشق ، والعزيز تسلم مصر ، والظاهر تسلم حلب ، وكانت أملاك الجزيرة من نصيب العادل .

وبدأ الصراع بين الإخوة على السلطة ؛ فقام العزيز بهجوم ضد الأفضل وتم له فى نهاية الأمر طرده من دمشق ، وأعطاه ما بقى من سوريا تحت إشراف العادل ، وبعد موت العزيز فى ١١٩٨م وطد العادل سلطته فى القاهرة معيدا وحدة الدولة بشكل

ما ، واستمر فى حكمه حتى (١٢١٨م) ، وكانت علاقته مع الحكام الصليبيين مسالمة فى مجملها ، غير أن الصليبيين لم ينسوا هدفهم فى الاستيلاء على مصر ، مركز كل قوى المسلمين ؛ ولذا فإن حملتهم الصليبية الرابعة كانت مدبرة لهذا الهدف ، وكما هو معروف فإن هذا الهدف بقى مجرد توجه لا غير .

وورث أبناء العادل حكمه ؛ فالكامل (١٢١٨ - ١٢٣٨م) كان حاكما فى دمشق ، والمعظم عيسى كان حاكما للجزيرة ، أما الأشرف موسى فكانت له حلب فقط ، وصار الباقى تحت حكم أحفاد صلاح الدين .

كان هدف الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧-١٢١٩م) هو تعزيز سلطتهم على القدس ، وإعادة بنائها ؛ ما دام الاستيلاء على مصر أصبح غير ممكن ؛ فحملتهم الوحيدة الواسعة على مصر لم يأخذوا فيها إلا دمياط فى (١٢١٩م) حيث أن القوى المتحدة للأيوبيين عطلت تقدمهم لأبعد الحدود من دمياط التى صارت مخربة ، تماما .

وفى (١٢٢٨م) قامت الحملة الصليبية السادسة بزعامة الإمبراطور الألمانى ملك معارك صقلية : فردريك الثانى جوجنشتاوفن ، وبالرغم من كونه قام بعدة عمليات حربية شهيرة على أقاليم الدولة الأيوبية فى ذلك الوقت ، إلا أنه لم يحقق النجاح بوجه عام . ووقع الكامل مع فردريك معاهدة فى (١٢٢٩م) ، تم بمقتضاها عودة الصليبيين إلى القدس ، والاستيلاء على مستطيل ضيق من الأرض يربطها بالبحر ، وتعهد الإمبراطور فردريك بمساعدة الكامل ضد أعدائه من المسلمين والمسيحيين ، وإلى جانب هذا فإن هذه المعاهدة قد ضمنت عدم تزويد القلاع السورية الواقعة تحت حكم الصليبيين بأية مساعدة من الخارج .

وفى (١٢٣٨م) ؛ ورث الكامل ابنه الأصغر : العادل الثانى ، الذى حكم فى كل من مصر وسوريا ؛ غير أنه سرعان ما تم عزله بواسطة أخيه الأكبر : صالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠- ١٢٤٩م) وفى عهده تم له استعادة القدس نهائيا من الصليبيين (١٢٤٤م) بمساعدة قبائل الخوارزم .

وحالما صار صالح أيوب فى عداد الموتى ، نزلت فرق الصليبيين فى دمياط ، بقيادة الملك الفرنسى : لويس التاسع (١٢٤٩م) ، وكانت دمياط قد سقطت منذ ثلاثين عاما

مضت . ولكن في فبراير ١٢٥٠ تم إبادة كل قوات الجيش الفرنسي في معركة بالمنصورة ، بعد أن فشلت كل محاولاته في إحراز أي تقدم ووقع الملك الفرنسي في عداد الأسرى . وهذه المعارك قد حدثت في عهد ابن صالح ، وهو السلطان الأيوبي الأخير الملقب · بالمعظم توران شاه . وبهذه الصورة يتضح أن كافة محاولات الصليبيين لسيطرتهم على مصر ، وإرجاع ممتلكاتهم التي فقدوها في سوريا على يد صلاح الدين صارت عديمة الجدوى .

والمعظم توران شاه كان قد قرب إليه المماليك (وهي حرفيا نوع ما من العبيد – المؤلفة) ومات أبوه مقتولا بأيديهم في مايو ١٢٥٠ ، وبعد ثلاثة شهور من حكم زوجة أبيه المعروفة : بشجرة الدر ، صار القائم على عرش مصر ، هو السلطان المملوكي الأول : المعز أيبك (١٢٥٠ – ١٢٥٧م) وصارت غالبية الجيش المصري ، منذ عهد صالح أيوب ، تتكون من المماليك وهم – على الأغلب – ينحدرون من أرض القبائل الرحل حول سهوب البحر الأسود ، وكان يتم أسرهم على يد المغول ثم بيعهم كعبيد لتجار الإيطاليين ، الذين كانوا يقومون بنقلهم عبر البحر الأسود ليبيعوهم للسلاطين المصريين ، وقد اقترب هؤلاء المماليك الترك (البحرية) (٤) من الأرستقراطية الإقطاعية للفئة الحاكمة ، مبعدين ومنافسين الأكراد .

وتابع المماليك تراث الأيوبيين في سياستهم الداخلية والخارجية (٥) .

والظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (١٢٦٠–١٢٧٧م) اعتبر نفسه صلاح الدين الثاني . والمعروف عنه أنه من أكثر سلاطين المماليك الأوائل شهرة ، وكان بيبرس هذا أحد العبيد الجسورين المباعين للسلطان صالح على الأغلب ، وصار مقاتلا معه في قواته بعد ذلك ، وأثناء الصراع مع الصليبيين في حملة لويس التاسع ، صار قائدا للجيش المصري ، وبعد ذلك ساهم بدور فعال في التآمر ضد المعظم توران شاه ، وبرز بيبرس في معاركه ضد المغول الساعين إلى الاستيلاء على سوريا ومصر بعد سقوط بغداد في ١٢٥٨م ، وتقدمت القوات المغولية في أعماق سوريا ، ولكن تم هزيمتها شر هزيمة على يد الجيش المملوكي بقيادة السلطان : قطز (في معركة عين جالوت . سبتمر ١٢٦٠م ، ولم توقف كل محاولات المغول الأخيرة لاستئناف الهجوم ومعروف

أيضا أن بيبرس قد اشترك فيما بعد مع أمراء آخرين فى قتل قطز ، وبعد ذلك تم انتخابه سلطانا ، وبعد اعتلائه السلطة ، انطلق بكل قواه لإعداد الهجوم الحاسم على بقايا أملاك الصليبين ، وذلك بإعادة بناء تحصيناته ومخازن أسلحته ، وإنشاء مراكز اتصال منظمة ، وبناء السفن ، ثم بدأ هجومه الكبير فى ١٢٦٥م وتم له استسلام قلاع الفرنج واحدة تلو الأخرى : قيسارية فى ١٢٦٥م ، وأرسوف فى ١٢٦٦م ، وصفد فى ١٢٦٨م ، ويافا وأنطاكية وحصن الأكراد فى ١٢٧١م .

وفى ١٢٦٧م كان بيبرس قد أنجز حملة ناجحة ضد الإمبراطورية المتحدة للمغول فى أرمينيا الصغرى وحطم عاصمتها سيس ، وأعلن قيصر أرمينيا تبعيته لمصر ، وتعهد بدفع إتاوة سنوية . وتمت بنجاح أيضا حملة الجيش المصرى ضد سلاجقة آسيا الصغرى برغم المساعدات التى كانت تأتيهم من قبل المغول .

وبهدف الاستعداد للصراع ضد الهولاكيين ، استطاع بيبرس أن يستخدم اتفاقا بينه وبين قبيلة القرن الذهبى ، مطورا إياه فى النهاية إلى اتحاد ، ظل قائما حتى نهاية تدهور هذه القبيلة .

وتم تأكيد علاقات التبعية على النوبة التى كانت خاضعة لمصر منذ الغزو العربى ؛ نتيجة لحملة الجيش المملوكى عليها فى ١٢٧٥ م . وهناك أيضا حملتان مشابهتان قام بهما السلطان : المنصور سيف الدين قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م) ، وكان الصليبيون فى أواخر عهده قد تم لهم الاستيلاء على طرابلس فى ١٢٨٩م ، ولكن فى ١٢٩٢ م تحقق له طردهم من عكا وصور وصيدا وبيروت ، على يد السلطان : الأشرف صلاح الدين خليل .

وبصدد نجاحات السلاح المملوكى ، ينبغى التنوية أيضا ببعض الحملات الحربية الجديدة فى أرمينيا الصغرى التى اتحدت من جديد مع المغول خلافا لو عهدها ، وكانت هذه الحملات فى السنة الثالثة من حكم الناصر محمد بن قلاوون (١٣١٠-١٣٤١م) ونتيجة لهذه الحملات عادت أرمينيا الصغرى مرة أخرى إلى التبعية للمماليك ، بل وظلت خاضعة لهم حتى ١٣٧٥م .

وبفضل هذه الانتصارات الباهرة على الأعداء المغول ، صارت مكانة مصر الدولية خلال ذلك العهد كله عالية جداً .

غير أن التطور المضطرد للعلاقات الإقطاعية ، والمتمثل فى تكثيف استغلال الشعب الكادح ، ووجود ظروف خارجية غير موائمة (تغير طرق التجارة الدولية) أدى إلى إضعاف السيطرة المصرية .

وفى نهاية القرن الرابع عشر ، تغيرت سلالة المماليك الترك الحاكمة ، بما يسمى بسلالة المماليك الشراكسة ، وهم قد بدأوا تدريجيا فى الإحلال محل الإقطاعيين المنحدرين من القوقاز (٦) ، وكان أول سلطان من هذه السلالة الجديدة هو . الظاهر سيف الدين برقوق (١٣٨٢ – ١٣٩٩م).(٧) .

وفى عهد خليفته الناصر فرج أى فى ١٤٠٢م سقطت سوريا الشمالية أمام غزوة تيمور الكاسحة ، وأدى ضعف الجيش المصرى إلى عدم القدرة على القيام بالحملات الحربية الكبيرة ، ماعدا تلك العملية الفائقة الأهمية ، طوال حكم سلالة المماليك الشراكسة كله ، فى محاولتهم الاستيلاء على جزيرة قبرص التى كانت ملجأ للقراصنة الأوروبيين . والتى تحقق لهم فيها النجاح فى ١٤٢٦م فى عهد الأشرف سيف الدين بارسيباى (١٤٢٢–١٤٣٨م) وكان معروفا بسياسته القاسية فى مجال التجارة الخارجية والداخلية ، ثم كانت الحروب البحرية مع البرتغاليين فى عهد السلطان قنصوه الغورى (١٥٠١–١٥١٦م) التى كانت تهدف إلى محاولة الإبقاء على الوضع المسيطر لمصر فى التجارة عبر البحر الأحمر ، ولكن لم يتحقق لها أى نجاح ، ففى ١٥٠٩م تكبد الأسطول المصرى الهزيمة فى موقعة « ديو » وعلاوة على ذلك فإن الجيش المصرى ، ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر ، قام بصراعات دائمة على الحدود السورية الشمالية مع السلالة التركمانية المحلية التى أقامت الموانئ وواصلت بنجاح سياسة الاستيلاء على الأقاليم فى ذلك الوقت (٨) ، وقام السلطان : قايتباى (١٤٦٨–١٤٩٦م) بتوقيع معادة سلام معهم فى ١٤٩١م بهدف صد الصدام الحتمى مع الترك ، ومنذ ذلك الوقت وحتى ١٥١٦م كان الجيش التركى بقيادة سليم الأول يهاجم سوريا ، وكانت المعركة الفاصلة هى معركة « مرج دابق » فى ١٥١٦م وانتهت بهزيمة القوات المموكية

. وقتل السلطان قنصوه الغورى ، وبعد الاستيلاء على سوريا ، تقدمت القوات التركية إلى الحدود المصرية ، ولم يستطع نضال القاهرة العنيد بقيادة طومان باى – آخر السلاطين الشراكسة – أن ينقذ الوضع ، وصارت مصر ابتداء من ربيع ١٥١٧م إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية .

وبالرغم من حروب الصراعات الداخلية ، فإن الدولة المصرية في عهد الأيوبيين والمماليك ظلت وحدة كاملة ، تحدها من الشمال الإمارات الأرمينية ، وأملاك السلاجقة العراقيين والروم ، وبعد الغزو المغولي على يد الهولاكيين ثم التيموريين ، فإن حدود الدولة المملوكية في شمال العراق دخلت في مصاف تشكيلات دول الآكيونيين والصفويين على حدود آسيا الصغرى ، وكان من بينها أيضا قليقله ، التى سقطت تماما تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية على امتداد النصف الثانى من القرن الخامس عشر وحتى بدايات القرن السادس عشر .

وأما حدود الدولة المصرية فى اتجاه الجنوب فكانت تمتد حتى الصحراء العربية وحتى الجنادل النيلية عند أسوان ، أما حدودها الغربية فكانت تمتد عبر الصحراء الليبية والواحات : الفرافرة والبحرية والخارجة ، وكان كل من الحجاز واليمن والنوبة وبرقة وقبرص (٩) (منذ ١٤٢٦م) تحت السيطرة المصرية – كما نوهنا سابقا .

بعد سقوط سلالة الأيوبيين فإن السلاطين كان يتم اختيارهم من الطبقة الحربية المملوكية ، مع ملاحظة أن المبدأ السلالى كان معمولا به بشكل جوهرى طوال عهد السلالة البحرية ، إذ إن جميع السلاطين تقريبا ، كانوا من أولاد قلاوون (١٠) ، غير أن وراثة الحكم فى عهد السلاطين الشراكسة لم تكن موجودة .

ظلت الدولة المصرية فى العهد الأيوبى فى شكلها الفيدرالى الخاص ، ولكن مصر فى ذلك العهد – كانت إقليما مركزيا طبقا للملاحظة المنصفة لجو تشالك ؛ فلا السلالات المحلية ، ولا الإقليمية استطاعت أن تمتلك أهمية استقلالية قائمة بذاتها (١١) . أما سوريا والجزيرة فإن كل إقليم كبير منهما كان له حاكمه الخاص من أعضاء السلالة الحاكمة أو من الأمراء المحليين المعينين من قبل السلطة العليا للسلطان المصرى .

وكان من شروط انضمامهم إلى الفيدرالية الأيوبية ، سك النقود باسم السلطان المصرى ، وإمداد القوات ، وعلاوة على دفع مبلغ محدود إلى الخزانة السلطانية عند الضرورة « أنفق السلطان * ثروات مصر لإخضاع سوريا وأنفق ثروات سوريا لإخضاع أراضي الجزيرة ، وأنفق كل الثروات لغزو السواحل » هكذا كتب الفاضل (١٢) وزير صلاح الدين عنه .

وفى العهد المملوكى ، كانت المركزية الملحوظة فى سوريا قد وصلت إلى الحد الذى جعلها وحدة إدارية أساسية ، بل وإقليما كمصر ، يتكون من ست وحدات (مماليك) لكل واحدة منها عاصمته وهى : دمشق ، وحلب ، وحماة ، وطرابلس ، وصفد ، وكرك ولكل منها حاكم يعينه السلطان ، كان تحت تصرفه مجموعة من الموظفين المشابهين لأقرانهم فى القاهرة (١٣) .

أما عدد أقاليم مصر فقد ظل دون تغيير ، ففى نهاية حكم صلاح الدين كان عدد هذه الأقاليم أقل من ٢٠ إقليما ، وفى بداية القرن الرابع عشر أى فى عهد الناصر محمد كان ١٥ إقليما ، يوجد منها فى الدلتا : القليوبية والشرقية وأشموم – طناح (الدقهلية) والغربية والمنوفية والبحيرة ، أما الصعيد فكان يشمل : قوص وأخميم وأسيوط ومنفلوط وأشمونين وبنى سويف والفيوم وأطفيح والجيزة ، ولكن عدد هذه الأقاليم فى القرن الخامس عشر كان يتراوح ما بين ١٤ ، ١٧ ، وكان كل إقليم يتكون من عدة دوائر (نواحى) أى وحدات إدارية أدنى تتضمن كل منها قرية أو عددا من القرى .

* قد أنفق المولى مال مصر فى فتح الشام وانفق مال الشام فى فتح الجزيرة ، وأنفق مال الجميع فى فتح الساحل، وينفق إن شاء الله تعالى مال القسطنطينية فى فتح رومية . ابو شامة حـ٢ ص ١٧٧ .

هوامش الفصل الأول

١ – لمعرفة شجرة النسب الكاملة لصلاح الدين ، انظر كتاب : V . Minorsky, Studies in Caucasian history III. prehistory of Saladin, London 1953 pp . 107 - 139 .

٢ – تحت هذا الاسم ، (وهو يعني حرفيا جزيرة أو شبه جزيرة) كان المؤلفون العرب في العصور الوسطى يقصدون الجزء الشمالي ما بين نهري دجلة والفرات ، وأبو الفدا ، طبقا لهذا ، يجعل حدودها الشمالية عبر مالاتفا وأميد وحدودها الجنوبية عبر تكريت والأنبار

(انظر (EI , I , S . 1075) .

٣ – لمزيد من الدراسة الكاملة لهذه القضية ، انظر V. Minorsky, Studies in Caucasian history III . Annex B The eastern expansion of the Ayyubids , London, 1953, pp 146 - 156 .

٤ – غالبا ما يكون الاسم المستخدم للسلالة التركية للمماليك هو السلالة البحرية ، وهي مشتقة من الكلمة العربية (بحر) التي تعني بحراً أو نهرا كبيرا ، ويؤكد بعض الباحثين أن هذا يوضح أن هؤلاء المماليك كانوا ينقلون من وراء البحر ، والآخرون يعتقدون أن هذا الاسم مرتبط بقلعة مبنية على جزيرة الروضة في النيل حيث كان أغلب المماليك يتمركزون هناك . (لتحديد الرأي في هذه القضية انظر « أمين علي الخولي » « العلاقات بين النيل والفولجا في القرن الثالث عشر والرابع عشر » (موسكو ١٩٦٢ ص ٣٥) ، بالروسية .

٥ – احتفظ الأيوبيون بالسلطة على عدد من المدن السورية الكبيرة ، وبعد قيام سلطة المماليك في مصر ظل الناصر يوسف حاكما لحلب ودمشق حتى الغزو المغولي (١٢٦٠) ، والأشرف موسى بقي في حمص حاكما لها حتى وفاته (١٢٦٢) ، أما حماة – كما أوضحنا – فلم يستول عليها المماليك إلا في (١٢٩٩) .

٦ – تسمى هذه السلالة أحيانا بالمماليك البرجية (من الكلمة العربية « برج ») ، وهذا مرتبط بإحضار الفوج الأول أثناء حكم السلطان قلاوون الذي أنزلهم في أبراج قلعة القاهرة . انظر ابن إياس المجلد الأول ص ١٢٠ .

٧ – حدث انقطاع في حكم السلطان برقوق ، عندما انتقلت السلطة من جديد للسلطان الأخير من المماليك التركية : الصالح صلاح الدين حاجي (١٣٨٩ – ١٣٩٠) .

٨ – ما يستحق الذكر من هذه الأقاليم هو كارمان ورمضان في شمال غرب سوريا (في بداية القرن الثالث عشر) ودولجادير في شمال سوريا في منتصف القرن الرابع عشر .

٩ – تحددت سيطرة مصر على الحجاز ، بتعيين السلاطين المصريين لحكامه (أمرائه) ، وكانوا يسمون أمراء المدن المقدسة ، من « الأشراف المنتسبين إلى محمد . سلالة بني قتادة في مكة ، وسلالة بني شمس في المدينة ، أما فقد حكمه الأيوبيون حتى ١٢٢٨ ،ثم بعد ذلك انتقلت السلطة إلى

سلالة الرسوليين (حتى ١٤٥٤) التى استبدلت بسلطة الطاهريين ، وسقطت سلطة الطاهريين فى ١٥١٥ على يد القوات المصرية الموجهة من السلطان قنصوه الغورى لطرد الأسطول البرتغالى من البحر الأحمر ، وصارت اليمن مرة ثانية تحت سلطة مصر حتى الغزو التركى . أما مملكة أرمينيا القليقيلية فكانت منذ ١٣٧٥ حتى بداية القرن السادس عشر تحت الحكم الجزئى للمماليك ، حيث كان نواب السلاطين يديرون أمور المدن الرئيسية .

١٠ - باستثناء ثلاثة سلاطين كانوا من مماليك السلاطين الخاصة ، وهم : كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) ، لاجين (١٢٩٦-١٢٩٩) ، بيبرس الثانى جاشجير (١٣٠٩ - ١٣١٠) .

11- H.L. Gottschalk, Al Malik al Kamil von Egypten und seine Zeit; eine Studie zur Geschichte Vorderasiens und Egyptens in der ersten Halfte des 7/13 .
Jahrhunderts, Wiesbaden, 1958 S. 21 - 22 .

١٢ - أبو شامة - ٢ - ص ١٧٧ .

١٣ - والوصف الأكثر تفصيلا نجده عند النابلسى : الإدارات الأيوبية فى القاهرة فى كتابه (انظر :
Cl. Cahen, Quelques aspects de l' administration égyptienne médiévale vus par un de ses fonctionnaires - (Bulletin de La Faculté des lettres de Strasbourg), Strasbourg, 1948, N. 4 ,pp 100 - 103 .

والإحصاء التفصيلى لوظائف الجهاز الحكومى المركزى وواجبات كل موظف يقدمها ابن مماتى ص ٧ - ١١ أما عن تنظيم إدارة الأقاليم السورية فانظر N . A. Ziadeh, Urban Life in Syria under early mamluks Beirut, 1953, pp 11 - 39 .

وتنوه بالوصف الدقيق الوافى للأقسام الإدارية فى سوريا المملوكية الذى يتضمنه مؤلف وترويتس سيرجيفكسى راهب دير (Зосимы,) الذى كتبه أثناء رحلته إلى القدس من ١٤١٩ إلى ١٤٢٢ .

«Православный палестинский сборник», т. VHI, СПб. ,1889, вып. 3 стр. 22),

وفى نفس الوقت نلفت الانتباه إلى : И. Ю. Крачковский:
(Избранные сочинения, т. V, М.—Л., 1958, стр 16—17).

١٤ - انظر أسماء الأقاليم فى جدول ١ فى هذا الكتاب .

الفصل الثانى

الملكية الاقطاعية المدينية فى العصر الأيوبى

الفصل الثانى

الملكية الاقطاعية المدينية فى العصر الايوبى

كان الشكل السائد للملكية الإقطاعية للأرض فى مصر فى منتصف القرن الثانى عشر يتميز – بدرجة ما عن الشرق فى العصور الوسطى – بالملكية الحكومية . فالحكومة لم تقم بدورها العادى كمالك أعلى للأرض فقط بل إنها قامت أيضا بدور المستغل المباشر للمنتجين المباشرين .

وكما يتضح من كتابات المقريزى ، فإن الوسيلة الأساسية للاستفادة من أرض الدولة ، كانت منذ الغزو العربى ، هى التأجير نظير الالتزام « [1] واحد* من أخبار أراضى مصر بعد الغزو العربى ... إن القائم على خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط فى الوقت الذى تتم فيه عقود تسلم الأرض (القبالة) .. وكان الناس يجتمعون من القرى والمدن وينهض أحد الموظفين ويمين الأماكن ويعلن شروط صفقات الأرض ، وبين يديه كتاب الخراج ، وفيه يكتب المبلغ النهائى للدوائر ، وكذلك أسماء من يتقبل هذه الدوائر ، وكانت هذه الدوائر يتم تسليمها لمدة أربعة أعوام مراعين فى ذلك إمكانية الجفاف والفيضانات الكاسحة وغير ذلك من الكوارث .

وعندما ينتهى هذا الأمر يلحق كل واحد من المتعاقدين بأرضه كى يتسلمها فى إقليمه المحدد، وأن يخلص فى زراعتها وفى إقامة السدود اللازمة سواء بمفرده أو مع

* وكان من خبرأراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الأرض معاشا وكسبا ... أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ، فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج ، يكتبون فيه ما تنتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك .

فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من تقبل أرضا وضمنها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط ويحسب له من مبلغ إقامته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرائب مقدرة فى ديوان الخراج (المقريزى خطط ١ ص ١٥٠) .

أى من أقربائه أو أى شخص يستأجره ، وعليه أن يؤدى الخراج مقسطا عن كل فترة محددة ، وهناك قسط من المبلغ الإجمالى يخصم بمعرفة ديوان الخراج نظير القيام بإصلاح السدود ، وتطهير القنوات وشق قنوات جديدة » .

وبعد ذلك يقول المقريزى « وكلما * مر ثلاثون عاما تم إعادة حساب السنة وإعادة توزيع خراج كل الأرض ، علاوة على تحديد المبلغ المطلوب الذى يزيد أو ينقص وفقاً للظروف (٢) » .

وهنا يوضح سيلفستر دى ساسى (٣) أن ثلاثين هذه يجب أن تكون ثلاثة وثلاثين سنة وفحوى كلامه أن جمع الخراج كان يتم وفقا للتقويم القمرى الإسلامى ، وليس وفقا للسنة الشمسية القبطية ، وعلى هذا ، فإن كل ثلاثة وثلاثين عاما قمريا تساوى اثنتين وثلاثين عاما شمسيا ، وكل دورة من هذه الدورات تتطلب إغفال عام قمرى كي لا يتم جمع مبالغ زائدة من الضرائب (٤) .

وفى العهد الفاطمى ، فإن صفقات الالتزام (٥) ، كانت تعقد فى القصر** ويكتب المقريزى عن الفترات المبكرة من حكم الفاطميين عن مثل هذا الموضوع (٦) ، مرة ثانية فيقول : « من *** المعروف عندئذ أن صفقات الأرض ذات الأسعار المتهاودة كانت تعطى للراغبين من الأمراء والمحاربين والأعيان الساكنين فى الإقليم من الأعراب والقبط وغيرهم » .

وكانت ملكية الأرض عندئذ لا تكتسب - كما يبدو- طابعا طبقيا ، فإعاشة القوات المصرية تتطلب وجود وسائل إنتاج ممركزة تماما « وعندئذ **** كان الخراج يلحق

* فإذا مضى ثلاثون سنة ، حولوا السنة وراكو البلاد كلها وعدلوها تعديلا جديدا فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمـــان البلاد ، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها » المقريزى خطط ١ص ١٥٠ .

** عند المقريزى : كانت فى دار الإمارة بجامع ابن طولون ص ١٥١ - خطط - حـ١ .

*** كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم . (المقريزى حـ ١ خطط ص ١٥٧) .

**** فإذا صار مال الخراج بالديوان ، أنفق فى طوائف العسكر من الخزائن (المقريزى خطط ١ ص ١٥٢)

بالديوان ومن الخزانة يتم توزيع رواتب الفرق المحاربة » [٧] وتتأكد معطيات المقريزى بأخبار الرحالة الفارسي : ناصر خسرو الذى ارتاد مصر فى ١٠٦٤م ، وهو بعد أن يقوم بتعداد أقسام القوات فى مؤلفه يقول : وكان هؤلاء المحاربون يتسلمون منحا من السلطان ، وكل واحد منهم يتسلم حسب رتبته جراية ومكافأة شهرية ..... كل الدخول ينقلها من الإقليم عامل الإقليم إلى الخزانة من عام لعام ، ومن الخزانة يسلمون فى الوقت المحدد الإعاشة لهؤلاء المحاربين ، وليس هكذا الموظفون ولا الرعية ، الذين ليسوا بحاجة إلى البرهان على مدى معاناتهم من مطالب الجنود [٨] .

وكان تسليم الضريبة عن الالتزام فى العالم الاسلامي وفي عهد تدهور الخلافة ظاهرة ذائعة الانتشار [٩] .

وتحدد ما يسمى بالتزام الأرض فى مصر الأيوبية بمصطلح الإقطاع [١٠] ، ففى بداية حكم الأيوبيين تحول « إقطاع الالتزام » إلى الإقطاع الذى يعنى بشكل أساسى المنح الاقطاعية الحربية ، وصيرورة هذه العملية نجد صدى لها عند المقريزى حيث يحتفظ لنا بعدة مقاطع هامة من كتاب ابن المأمون البطائحى مؤرخ النصف الأول من القرن الثانى عشر ، والمسمى « تاريخ » أو مختصر التاريخ ، فنجد لديه أخبارا عن ١١٠٧-١١٠٨م تتعلق بإعادة تقسيم الإقطاعات المصرية حيث يقول ابن البطائحى عن عشية إعادة هذا التوزيع ما يلى [١١] « كانت * حالة الناس المحاربين والقابضين على الإقطاعات سيئة ، وكانوا يشكون من أن دخولهم من إقطاعاتهم تتناقص ، وأن أحوالهم تزداد سوءاً بسبب دخولهم القليلة ، وأن الأمراء يضاعفون دخولهم من إقطاعاتهم ومن البنود الأخرى ، والضرائب تتجمع فى الديوان من كل الأقاليم باستخدام العنف ، ويتوجه موظفو الديوان الرئيسى مرات عديدة إلى الأقاليم لهذا السبب » ثم بعد ذلك ينتقل إلى أن الأفضل وهو الوزير القدير قد أمر أن تنتقل حدود

* وكان اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين وتضررهم من كون إقطاعاتهم قد خس ارتفاعها (خراجها) وساءت أحوالهم لقلة المتحصل منها وأن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عن غيرها وإن فى كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجئ بالعسف ويتردد الرسل من الديوان الشريف (المقريزى خطط ١ ص ١٥٢) .

هذه الإقطاعات وذلك بهدف إصلاح الأوضاع ، وكان مكتوبا فى السجلات المطابقة أن الإقطاع يبقى عند المالكين الجدد لمدة ثلاثين عاما وبكلمات المقريزى « فإنه★ كانت نتيجة لإعادة هذا التوزيع أن أظهر كل مالكي الإقطاعات بما فيهم المحاربون الفقراء رضاءهم وتسلمت الإدارات الحكومية ٥٠ ألف دينار »[١٢] .

وبهذه الصورة يتضح أن الملتزمين ابتداء من بداية القرن الثانى عشر صاروا يتعاملون كالمحاربين ، وسرعان ما تزايد الالتزام من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة .

وانتشار عملية توزيع الإقطاعات بمعنى منح الأرض القائمين بوظائف المحاربين قد جرى فى عهد حكم صلاح الدين ، ويرى سيلفستر دى ساسى ، أن سبب إدخال منح الإقطاعات كان نابعا من نظام الترك والكرد « ولكن بيكر يستبعد الترك . أما بولياك فيرى أن ذلك كان بسبب عوامل تفاعل المسلمين مع الصليبيين والمغول [١٣] مركزا بشكل عام على أن تنظيم الإقطاع فى مصر استطاع أن ينمو بشكل مستقل [١٤] ، ويشدد « كهن » على أن النظام الأيوبى لم يكن أبداً استمراراً بسيطا للتراث السلجوقى والزنكى ، معربا عن فرضية الارتباط الممكن بين ظهور نظام الإقطاع وبين التحولات التى تمت فى استخدام المحاصيل وجمع الضرائب ، مما يعنى الانتقال إلى الخراج الطبيعى (المقاسمة) إذ إن المقطع يسعى لكى يضمن لنفسه أعلى معدل من الراحة وتوفر الإمداد بالحبوب ، وهذا كان ضروريا لتطوير سلاح الفرسان [١٥] . غير أن هذه الفرضية كانت نتيجة لتفحص البحوث الخاصة بتاريخ العراق فى عهد البويهيين (٩٣٢ – ١١٠٥م) غير واضحة فى اعتبارها ما تؤكدة المصادر الأيوبية [١٦] .

أما بفرنير فيقتصر على نفى السير الطبيعى لتطورات الإقطاع ، ذلك دون أن يصل إلى أى فهم ملموس بصدد أسباب انتشار الإقطاعات [١٧] .

ودون إنكار لإمكانية التأثير الأجنبى بأشكاله الخارجية المختلفة فى التنظيمات المتشكلة ، فإننا نعتبر أن السبب الرئيسى فى إقرار نظام الإقطاع فى مصر وخاصة فى بداية حكم الأيوبيين يكمن فى الوضع الاقتصادى المرهق للبلاد .

★ فعند ذلك طابت نفوسهم وتزايدوا فيها إلى أن بلغت إلى الحد الذى رغب كل منهم فيه فأقطعوا به وحصل للديوان مابلغه خمسون ألف دينار (خطط ١ ص ١٥٣)

فقد كان النزاع الداخلى المتواصل والعمليات الحربية فى عهود أواخر الخلفاء الفاطميين ، تلك التى استفحل أمرها بالتدخل المباشر الصليبيين وفى مقدمتهم ملك القدس : أماريه ، الذى أجبر مصر على دفع «مجعول» محدد ؛ كانت هى الأسباب الجوهرية التى أدت إلى إفلاس البلاد وتقويض قدرتها الاقتصادية (١٨) . هذا الإفلاس الذى تعمق بالصراع الحاد بين الجيش والفئات الدنيا من البيروقراطية التى تتكون فى أغلبها من الأقباط .

والمصادر العربية تعتبر أن هؤلاء البيروقراطيين ممثلون لقليل من الأهالى المحليين الذين ظلوا على الإيمان بدينهم المسيحى فى شكل متعصب ، وفى هذه المصادر يهدأ العداء لهم تارة ويهيج أخرى وهى صفة خاصة فى كل تاريخ مصر فى العصور الوسطى (١٩) .

وكما يبدو فإن استهتار الأقباط - سواء كانوا ملتزمين أو قائمين على بيت المال فى العصر الفاطمى الأخير الذى امتاز بضعفه الشديد - أدى إلى التدهور المتواصل فى الخزانة المصرية (٢٠) فلم تستطع الحكومة أن ترتب كميات النقود اللازمة ولا السلع الضرورية الكافية لإعاشة الجيش المصرى فى تلك الأيام ، التى كانت تهديدات الاقتحام الجديد فيها الصليبين تتطلب مزيدا من تعزيزه وتقويته .

فقد سبق لشيركوه ، عندما صار وزيرا ، أن وزع الأرض على الوظائف الحربية ، وكان تحت تصرفه ألفان من فرسان نور الدين ، وستة آلاف من الخيالة التركمانيين المأجورين ، وخمسمائة من المماليك الأتراك والكرد (٢١) . « ووزع* هو بعض الأقاليم على هيئة إقطاعات وخاصة على محاربيه ، وكان صلاح الدين يعلم بهذه الأعمال (٢٢) هذا ما يقوله أبو شامه عن ١١٦٨ - ١١٦٩م .

وطبقا لما طلبه منه نور الدين فإن صلاح الدين قد قدم له فى ١١٧٣ - ١١٧٤ سجل المحاربين مشيرا إلى قيمة إقطاعاتهم » (٢٣) .

★ وولى شيركوه الأعمال من يثق إليه واستبد بالولاية فاقطع البلاد العساكر التى قدمت معه وصلاح الدين مباشر للأمور مقرر لها وزمام الأمر والنهى مفوض إليه . (أبو شامة حـ ١ ص ١٥٨)

عندما صار صلاح الدين وزيرا مصريا ثم بعد ذلك سلطانا لا منازع له ، نقل تحت رعايته كل فرق شيركوه تقريبا (٢٤) وظل عدد القوات يتزايد لحساب الفرق لكردية . وكان القضاء التام على نظام الالتزام ، والقيام بالتوزيع الواسع لملكية الأراضي الزراعية ، هما الأسلوب الوحيد لتأمين حياة الجيش .

وفي خلال إعادة التوزيع الجديد الذي ابتدأ في ١١٦٩م وامتد لعدة سنوت ، إنتقلت كل إقطاعات الفاطميين إلى جنود صلاح الدين وإلى أمرائه وأفراد سلالته الحاكمة « وألغى★ صلاح الدين إقطاعات المصريين وانتزع منهم ضياعهم وأعطاها لجنوده » (٢٥) .

وتحت سنة ١١٧١-١١٧٢م يواصل المؤلف حديثه عن نفس الموضوع فيقول « إن ★★ صلاح الدين قد نزع كل إقطاعات العاضد ووضع كل أملاكه السابقة تحت يده » (٢٦) .

وقام الحرس السوداني بمقاومة عمليات صلاح الدين ، وتاريخ هذه المقاومة موضح بالتفصيل في المصادر . فعندما كان صلاح الدين ما يزال وزيرا (وكان ذلك على ما يبدو بمعرفة الخليفة) قامت مؤامرة ضده كان على رأسها الطواشي وناضورجي القصر المسمى نجاح ، وكان للمتآمرين ارتباط بالصليبيين الذين كانو يهدفون إلى القضاء على صلاح الدين والمقربين منه ، وعندما سمع صلاح الدين بهذا قام بقطع رأس نجاح .

★وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعياتهم وتعيين جامكياتهم (رواتب الجند – المترجم) ورواتب نفقاتهم (أبو شامة جـ٢ ص ٥٤٤ . ويقول المقريزي (سلوك) ١ جـ١ ص ٧٣ . وصل القاهرة موفق الدين أبو البقاء من عند السلطان نور الدين مطالبا لصلاح الدين بالحساب عن جميع ما أخذ . وحصل من الارتفاع (ما يتحصل من الدواوين – المترجم) فشق ذلك عليه وقال : إلى هذ لحد وصلنا وأوقفه على ما تحصـل له وعرض عليه الأجناد وعرفه مبالغ إقطاعيـاتهم وجامكياتهم (الرواتب عامة – المترجم) .

★★ ثم ,ن صلاح الدين قطع إقطاع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البلاد ، واستولى عى نقصور وكل ما بها ومن فيها قراقوش . أبو شامة جـ ١ قسم ٢ ، ص ٤٩٨ وفي ص ٤٥٠ يقول : قال العماد : وشرع صلاح الدين في نقص إقطاع المصريين فقطع منهم الدابر من أجل من معه من العساكر .

وهذه الحادثة كانت باعثا لهبة حرس الخليفة السود الزنوج ، وحدثت عدة صدامات دموية فى شوارع القاهرة ، انهزم فيها المتمردون وولوا هاربين إلى الصعيد عن طريق النيل [٢٧] وأرسل صلاح الدين فى إثرهم أخاه توران شاه فى ١١٧٢م . وأجبر صلاح الدين كل المتمردين على الخضوع له ، ولكنه اضطر فى السنة التالية إلى الصراع ضدهم مرة ثانية . وفى ١١٧٤م قامت الفرق السوداء فى أسوان بانتفاضة واسعة ، كان على رأسها الحاكم الفاطمى لأسوان : كنز الدولة . وفى نفس الوقت هب أنصار الفاطميين فى القاهرة بقيادة الشاعر عمر ، ولكن الصليبيين المتحالفين معهم قد تأخروا فى إنزال قواتهم بالإسكندرية .

إلا أن كل عمليات الحرس السودانى والموالين الآخرين لإسقاط السلالة الأيوبية قد تم إخمادها بفرق صلاح الدين . وبهزيمة المتمردين فى أسوان على يد أخيه العادل [٢٨] تفسخت بقايا القوات الفاطمية .

وواصل صلاح الدين فى تلك الأيام تشكيل جيشه الجديد ، جاعلا نواة فرقه الرئيسية من الأمراء الأكراد الذين كان من أشهرهم : سيف الدين غازى بن مشتاب وأبو منصور جهار كاس ، وصار العنصر التركى منذ ذلك الوقت مسيطرا لا على الجيش فقط ، بل على الإدارة الحكومية أيضا [٢٩] وكل هذه الأعمال المرتبطة بتنظيمات الجيش وطرق إمداده ، أضيفت إلى الديوان الحربى ؛ مما أدى إلى ضرورة إنشاء ديوان الإقطاع [٣٠] .

والمقريزى يحتفظ بنبذة قيمة من كتاب القاضى الفاضل وزير صلاح الدين تحت اسم متجددات الحوادث ؛ حيث يوضح إعادة تكوين الجيش المصرى (دون اعتبار لوضع المحليين السوريين والفرق المساعدة من البدو والتركمان ...) فيقول : « فى* شهر رجب ٥٧٧ هـ أكتوبر ١١٨١م واصل صلاح الدين تعيين الأشخاص للإشراف على كافة أعماله المتعلقة بالإقطاعات والنظر فى دخولها ، وإنقاصها وزيادتها ، وإعادة

★ وكان من متجددات شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، استمر انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنة للنظر فى أمور الإقطاعات ومعرفة غيرها ، والنقص منها والزيادة فيها وإثبات المحروم وزيادة المشكور إلى أن استقرت العدة .. (والأرقام طبق الأصل فى النص المترجم) المقريزى خطط ١ ص ١٥٩ .

توزيعها على أتباعه وإعطاء المحروم وزيادة الغنى ، إلى أن استقرت العدة على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارسا ، أمراء : مائه وأحد عشر أميرا ، وطواشيه : ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعون ، وقراغلامية : ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسون » [٣١] غير أن هذه الأعداد لا يمكن أن تكون نهائية .فقد استمر توزيع الإقطاعات بعد عام ١١٨١م ووصل عدد القوات ازدياده ، إلى جانب إقطاعات القوات ، فإن الهبات النقدية كانت تدفع لهم أيضا – كما أوضحنا سابقا – هذه النقود التى تشير إلى أن المحافظة على العلاقات النقدية السلعية المتطورة فى مصر الأيوبية كانت كافية إلى حد كبير . (واعتمدوا لهم – للمحاربين – المؤلفة) من النقود ٣٦٧٠٦٠٠ * دينارا » ويرى المقريزى أن هذا الرقم – بكل الإحتمالات – كان هو جملة الرواتب السنوية [٣٢] .

وهذ الرواتب فى بداية حكم الأيوبيين لم تكن تدفع بانتظام ولا بشكل كامل وهذا ما يوضح إفلاس البلاد [٣٣] .غير أن الإسراع فى إعادة الإصلاح الإقتصادى والزيادة الحادة فى إنتاجية الزراعة ضمنا كفاية حاجات الجيش .

وكما فى كل مكان فى الشرق الأدنى ، فى ذلك العهد ، فإن الإقطاعات الأيوبية كانت ذات : مظهرين ؛ فأمراء السلالة الحاكمة والأمراء الكبار فى جانب ، والمحاربون البسطاء في الجانب الأخر [٣٤] وكان قد سبق لصلاح الدين أثناء عمله وزيرا فى مصر ، أن توجه . إلى خليفة نور الدين فى ١١٦٩ برجاء أن يبعث له أبوه أيوب ، وكل أعضاء أسرته » أرسلهم له نور الدين وأعطاه صلاح الدين إقطاعات فى مصر ، وقد تم انتزاع هذه الإقطاعات من أمراء مصريين وأعطى للمقربين من أبيه إقطاعات أيضا ثم بعد ذلك زادها لهم ** [٣٥] وتسلم نجم الدين أيوب إقطاعات فى الإسكندرية ودمياط و لبحيرة ظلت معه حتى وفاته فى ١١٧٣م بسبب سقوطه من على حصانه [٣٦] .

* عند المقريزى خطط ١ ص ١٥٩ : والمستقر لهم من المال ٣.٦٧٠٥٠٠ (لاحظ تصحيح الرقم المترجم)

** ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فأرسلهم إليه نور الدين فأعطاهم صلاح الدين الإقطاعات بمصر . ابن شداد : سيرة صلاح الدين – مكتبة صبيح بالقاهرة ص ٣٦١ ويقول ابن الأثير جـ ١١ ص ١٣٢ وصلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكرا واجتمع معه من التجار خلق كثير وانضاف له من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة ، وفى ص ١٢٩ ثم أرسل صلاح الدين يطلب أن يرسل إليه اخوته وأهله فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه وزادهم فازداوا له حبا وطاعة .

وأعطى صلاح الدين لأخيه شمس الدولة : توران شاه فى ١١٦٩ – ١١٧٠م . إقطاعات فى قوص وأسوان وعيزاب ، لكن توران شاه على ما يبدوقد رفضها ، ففيما بعد (١١٧٨ – ١١٧٩م) تسلم إقطاع بعلبك [٣٧] غير أن توران شاه رفض هذا الإقطاع أيضا فى السنة التالية ، وطالب بأن يكون له إقطاع فى الاسكندرية بدلا منه ، ووافق صلاح الدين على هذا ، وأعطى إقطاع بعلبك لعز الدين فخر شاه وهو ابن أخيه وظل توران شاه فى الاسكندرية حتى نهاية حياته [٣٨] .

وفى ١١٨٠م وهب صلاح الدين كل إقطاعات الفيوم لأخية الأصغر : بورى ، ولكن سرعان ما تم قتل بورى فى إحدى الاشتباكات مع الصليبيين فى١١٨٣م – ١١٨٤م . وعاد الفيوم مره ثانية لإقطاع ابن عم صلاح الدين : المظفرتقى الدين عمر [٣٩] ، وأعطى صلاح الدين لابنه الكامل إقطاعات الشرقية [٤٠] وأعطى ابنه الآخر : الأفضل الذى كان يقيم فى القاهرة برغم أنه كان متسلما لإقطاع دمشق ، حيث أن المظفر تقى الدين ، والذى كان فى القاهرة عندئذ ، قد اشتكى للسلطان من أن الأفضل لا يمتلك الصفات الضرورية كحاكم للبلاد فى جمع الخراج . وفى نفس الوقت فإن تقى الدين قد خشى إعادة ترتيب الأوضاع فأذعن له ؛ ولكن صلاح الدين استدعاه من مصر معطيا إياه إقطاعات : حماه ومنبج والمعرة وكفرتاب ، وميافارقين ، وجبيل ، وجور ، علاوة على ضواحيها ، وفى السنة التالية توجة تقى الدين إلى إقطاعاته [٤١] .

فى ١١٨٥–١١٨٦م . تسلم الأفضل إقطاعات أيضا عند قلعة عكا [٤٢] التى كان قد تم تحريرها من الصليبيين وبعد موت تقى الدين فى ١١٩١م . قام ابنه منصور بضم ممتلكات أبيه إليه بشكل مستقل ، معتمدا على قرابته للسلطان مما أغضب صلاح الدين ، وبفضل شفاعة العادل فقط ، أعطاه صلاح الدين قسما من أراضى تقى الدين (حماة – معرة – منبج) إلى جانب السلامية ، ونجم [٤٣] . وكانت حلب بمثابة إقطاع يخص فى البداية العادل (أخ لصلاح الدين) ثم سحبه منه صلاح الدين بعد ذلك وأعطاه بدلا منه حران وسوسمايسات والرها وميا فارقين [٤٤] ، واستبقى الحكام الخاضعون لصلاح الدين فى سوريا وشمال العراق أجزاءا من ممتلكاتهم القريبة بمثابة إقطاعات لهم ، أو تسلموا إقطاعات من فى أماكن أخرى ، وكذلك عندما

انهزم الزنكي : فخر الدين زعفران فى (١١٧٤ - ١١٧٥م) قام صلاح الدين بتفتيت ممتلكاته وتوزيعها ، فأعطى حماه إقطاعا لخاله شهاب الدين ، وحمص لناصر الدين بن شيركوه ، أما بارن وهى الإقطاع الوحيد الذى بقى من إقطاعات فخر الدين فقد أقره صلاح الدين لإبن عم فخر الدين [٤٥] . وعندما استولى صلاح الدين على مدينة وقلعة نصيبين منحها إقطاعا للأمير أبو الحجا إسماعيل [٤٦] وأحد هذه الإقطاعات كان قريبا من سيدون أعطاه صلاح الدين لنصيره ميمون القصرى [٤٧] أما حاكم « خلاط » الذى استسلم لصلاح الدين ، فقد تسلم « صالة » ، بمثابة إقطاع .

وعندما توجه صلاح الدين[٤٨] فى ١١٨٩م لإخضاع قلعة شقيف أرنون ، سلمها له الحاكم دون قتال متقبلا اقتراح صلاح الدين باستبدالها بإقطاع [٤٩] وسرعان ما صار لشقيف إقطاع شمس الدين سنقر الكبير وسيف الدين سنقر المشطوب [٥٠] . وبعد استيلاء صلاح الدين على بيروت من الأمير حاجى ، من سلالة البختريين ، اعتمد له رئاسة غرب (منطقة جبيل جنوب شرق بيروت) وسلمه سبع قرى كإقطاع بُورث [٥١] .

فى ١١٩٠م وبعد موت حاكم إربيل : زين الدين يوسف . قام صلاح الدين بإعطائها بمثابة إقطاع لأخيه : مظفر الدين كو كبورى ، وأعطاه أيضا «شهرزوز» بقلاعها ثم بعض الأقاليم الأخرى ؛ على أن يتنازل مظفر الدين عن إقطاعه فى حاران والرها وسومايسات ، وأعطى صلاح الدين كل المدن المتنازل عنها من مظفر الدين بقلاعها إلى تقى الدين علاوة على أملاكه [٥٢] .

والإقطاع من هذا النوع ، كان يتميز بالوراثة بشكل كامل ، وفى حالة الضرورة يكون لصاحبه مدى الحياة .

وكانت الإقطاعات الكبيرة أحيانا تقسم إلى إقطاعات صغيرة ؛ تخصص للمحاربين البسطاء . وعلى ما يبدو فإن هذا هو فحوى ما ينبغى فهمه من أخبار المقريزي عن ملكيات المظفر تقى الدين السابق التنوية عنها ؛ فهو يقول « إن صلاح★ الدين أحال إليه إقطاع (حماة والمعرة ومنبج) وزاده عليها ميافارقين وضمنه له

★ « فأقر صلاح الدين لغلامه بهاء الدين قراقوش التقوى حماه والمعرة ومنبج وأضاف إليه ميافارقين فلحق به أصحابه ما خلا مملوكه زين الدين بوزبا » (المقريزى خطط ٣ ص ٢١٧ .)

ولانصـــاره [٥٣] » . وعن هذه الحقيقة نجد أيضا ، ما هو أكثر تحديدا عند إبن الأثير « وكـان★ مـقـررا له (تقى الدين – المؤلفة) أنه سيـقـوم بتـوزيع هذه الأقـاليم بمثـابة إقطاعات على قواته وأن يرجع عنها ، وذلك لتقوية النضال ضد الفرنجة [٥٤] » .

وهذ الكلام يبرهن على أن هذه الهبات لم تكن تمنح فقط من السلطان نفسه ، بل كانت أيضا تمنح من أمرائه ، ونحن نلاحظ أن إقطاع جنود صلاح الدين كان موزعا حول ضواحى الإسكندرية وكان يدخل ضـمن إقطاع أبيه أيوب بشكل ما [٥٥] وعماد الدين يقول : إن صلاح الدين أعطى لإبن أخيه : حسـام الدين عمر إقطاع : نابلس وضواحيها وقرى وحقول قلعتها ، ثم توجه هناك مع قواته [٥٦] .

والحقيقة الملاحظة عن مثل هذه الأعمال : هى أن السلطان صلاح الدين – بعد هزيمة المسلمين فى الرملة ١١٧٧م. قام بنزع الكثير من إقطاعات الكرد كعقاب لهم على هزيمتهم [٥٧] .

كانت بعض أراضى الشرقية والبحيرة موهوبة بمثابة إقطاعات للبدو من قبيلتى جزام وصليب اللتين كانت فرقهما تدخل أيضا فى عداد الجيش النظامى ، غير أنه قد تم نزع هذه الإقطاعـات منهم عقـابا لهم على عقـد صـفـقـة سـرية من الحـبـوب مع الصليبيين [٥٨] .

وكما يلاحظ «كهن» بحق ، فإن هذا النوع من الإقطاع لم يكن وراثيا ، بل كان فى حالات نادرة إقطاعا مدى الحياة فقط [٥٩] .

وكان الأمر فى سوريا على خلاف ذلك ، متفقا مع ظروفها القديمة الراجعة إلى الزنكيين حيث كان الإقطاع بها لم يكن للوجهاء والأعيان فقط ؛ بل كان أيضا للناس العـاديين فى عـهـد صـلاح الدين ، الذى واصل توزيـع الإقطاعـات بشكل وراثـى ، وأبو

★ سار تقى الدين من الشام إلى البلاد الجزرية (الجزيرة – المترجم) وكان قد أقطعها إليه عمه صلاح الدين ... مضافا إلى ما كـان له بالشـام وقـرر معه أن يقطع البلاد الجند ويعود وهم معه ليتقوى بهم على الفرنج . ابن الأثير جـ١٢ ص ٦٢ .

شـامـة يقـول عن نور الدين زنكى : « وكان* من أحسن الاتفاقيات المنعقدة بينه وبين جنوده ، تلك التى تنص على أنه إذا مات أحد منهم فإن ابنه يأخذ نصيب أبيه فى الإقطاع ، فإذا كان الابن بالغا فعليه أن يدير نصيبه بنفسه ، أما إذا كان صغيرا فيتم تعيين أحد الأوصياء الأمناء عليه ليديره له حتى يبلغ . والمحاربون يقولون . هذا الإقطاع لنا ولأطفالنا يرثوه عن آبائهم إذا مامتنا ؛ وكان هذا هو السبب الرئيسى فى جلدهم ومثابرتهم أثناء المعارك » (٦٠) ويعبر أبو شامه أيضا عن مثل هذا المعنى فى كلامه عن صراع قوات نور الدين مع الفرنجة فيقول : « فإذا : شخص ما قتل ، فإن إقطاعه ينتقل إلى أبنائه من بعده ، فإذا لم يكن له أبناء فينتقل إلى أى شخص آخر من أفراد عائلته ، كما لو أن الجيش فى هذه الحالة لم يفقد إلا شخصا واحداً » (٦١) .

ويطبق «بفزنير» كلمات أبو شامة على مصر وفق هواه ، غير متنبه إلى الخلاف بين نوعى الإقطاع ؛ واصلا إلى استنتاج مؤداه : أن الإقطاع المصرى كله كان يقوم على الميراث ، حتى فى عهد صلاح الدين ، الذى يتضح مما أوردناه سابقا أنه لا يتفق مع هذا الاستنتاج (٦٢) .

والمصادر لا تحتفظ تقريبا بمعطيات عن الحياة الاقتصادية للإقطاعات المصرية فى ذلك العهد ، ما عدا بعض الأخبار ذات القيمة الكبيرة التى تتضمنها مذكرات الفارس الإسلامى : أسامة بن منقذ ، وهى تتعلق بالأوضاع فى سوريا . كان رأس عائلة أسامة يختص بقلعة شيزار وقراها المجاورة الواقعة على نهر ساروط شمال حماة وكانت ممنوحة بمثابة إقطاع لجده الأكبر فى عشرينات القرن الحادى عشر وهو يسمى أبو المتوج ، من سلالة حكام حلب المرداسية .

كانت رفاهية الإقطاعيين تتم على حساب استغلال الفلاحين ، فعائلة المنقذ كانت تمتلك الكثير من الخدم ، وكان والد أسامة نفسه عاشقا للصيد ، ولديه الكثير من الصقور والكلاب والصائدين المحترفين ولديه أيضا سلحدار واصطبل ، وكذلك عدد من

* ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده فإنه كان إذا توفى أحدهم وخلف ولدا أقر الاقطاع عليه فإن كان لولد كبيرا استبد بنفسه وإن كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق فيه فيتولى أمره إلى أن يكبر فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها ، وكان ذلك سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب . أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين : جـ ١ قسم أول ص ٢٠ .

العبيد [٦٣] . « كان* مع أبى أربعون إنسانا من الأرقاء المقربين له ، ممن يمتلكون الخبرة فى الصيد » [٦٤] ويحكى أسامة عن إحدى الرحلات من شيزار [٦٥] فيقول كانت معه قينة خاصة مسند إليها الأعمال المنزلية ، وكان الحرفيون يصحبونه سواء كان فى المدينة أو فى الريف .. « عندما** خرجنا من بوابة المدينة الصيد ، كان معنا – كما يقال فى كتب الإرشادات – كل المعدات اللازمة للصيد ، حتى الشبكات والأقواس والجواريف والخطاطيف للطرائد» [٦٦] وفى موضع آخر ينوه أسامه بن منقذ بالناس*** «الذين يصنعون الطوب لإقامة البيوت فى إحدى القرى لواحد من أعمامه » [٦٧] ويحكى أسامة أن الفلاحين من القرى الواقعة فى ضواحى شيزار ، قد سلموا لأبيه الصقور والبواشق ليصطاد بها وهو يقدم عبارات الفلاحين الموجهة لأبيه : « يا سيدنا**** – قالو له نحن تركنا أجرنا وحقولنا وشغلنا من أجلك ، لأننا كم نود ونشتهى أن تأخذ منا كل الذى نصطاده [٦٨] . وبعدما أعلن مرشد منقذ عن السعر الغالى لطيور الصيد ، «أعداد***** الصيادين تزايدت ، وصار لدينا أعداد هائلة من الطيور لم تنطلق بعد وكأنها الدجاج » [٦٩] . وهنا توجد كلمات مثل « أجر » الفلاحين ، وهى تدل على أنهم بجانب عملهم الأساسى كفلاحين ، كانوا يشتغلون بأعمال ما فى حرفة البناء ، وكانت قوات المناقذة تتكون من الفرسان الخيالة والمشاة المدنيين وتتضمن عددا من العبيد والمسجونين الذين أطلق سراحهم [٧٠] . ويستمر أسامه يحكى عن الصيد الذى اشترك هو فيه مع أبيه ، ويلاحظ أن مع أبيه عشرين رجلا تقريبا من وجهاء الأرمن [٧١] وينوه أيضا بهذا الخصوص عن وجود أكراد ومغاربة [٧٢] .

* وكان مع والدى رحمه الله أربعون رجلا من التابعيين له من الناس ذوى الخبرة فى الصيد . أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢١٤ .

** كنا نخرج من باب المدينة إلى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد حتى الشباك والفؤوس والمجارف والكلاليب ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهن والفهود والكلاب . المصدر أعلاه : ص ٢١١ .

*** فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبنا لعمارة بيوت فى قرية عمى المصدر السابق ص (٢٢٣) .

**** يامولانا .. نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا فى خدمتك ونشتهى أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمنا نعرفه لا تجانب فيه ...... فقرر ثمن الباز الفرخ .... المصدر السابق ص ٢٠٠ .

***** فكثر الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج ، فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر من كثرتها . الاعتبار ص (٢٠١) .

والمناقذة لم يُقطعوا جنودهم أرضا ، بل كانوا يعطونها لهم كهبات (٧٣) . ومذكرات أسامة تعطى بعض التصورات عن العلاقات التجارية الخارجية . فمن المعروف أن مرشد والد أسامة أرسل بعض المقربين إليه إلى بيزنطة لابتياع كلاب الصيد وصقور قدمها له أيضا أمراء قليقله الأرمينية (٧٤) ويكتب أسامة فى نهاية كتابه : أن والده « قد * أرسل له خيلا وأريجا ونسوة مصريات » (٧٥) وهذا يدل على وجود علاقات تجارية للإقطاعات السورية ليس مع مصر فقط بل مع البدو ، والهند البعيدة .

والحقائق القليلة التى تتضمنها مصادرنا ، تسمح لنا بالحكم على السياسة الداخلية لخلفاء صلاح الدين ، فقد أبقوا على ملكياتهم الشخصية وأعادوا توزيع الإقطاعات على أقاربهم ، ولكنهم وهبوا أراض لتوابعهم ؛ فابن الأثير يلاحظ فى ١١٩٣-١١٩٤م أن أخا صلاح الدين : العادل قد أبقى إقطاعه السابق فى مصر (٧٦) «وصار ** العادل يشرف على أعمال الدولة المصرية فى تغيير الإقطاعات (٧٧) هكذا كتب المقريزى عن ١١٩٥-١١٩٦م . أما عن ١٢٠١م . فينوه ابن الأثير بواحد يسمى زين الدين فراجه قد وهبه الأفضل « صرخد » بمثابة إقطاع (٧٨) .

ويعود ما يخبرنا به ابن الأثير إلى ذلك العهد أيضا ، عندما يتكلم عن اعتلاء العادل لعرش مصر « والجنود*** كانوا ينازعون بعضهم الحق فى الإقطاع ، والواحد منهم حال دون الآخر فى امتلاكه(٧٩) والحديث هنا يدور عما ينبغى افتراضه من صراع بين أنصار العادل وأنصار الأفضل بن صلاح الدين ، وابن الأثير يقدم أيضا ماله علاقة بهذا الموضوع فى ١٢٠٦ - ١٢٠٧م . حيث يقول إن مظفر الدين سنقر المملوك السابق للخليفة البغدادى ، قد تسلم من العادل إقطاعا ذا شأن بمصر (٨٠) وفى ١٢١٢-١٢١٣م . نجد ابن الأثير يتكلم عن أمير من أمراء العادل انتزع قلعة الكوكب وهى غير بعيدة عن الأردن وقد كانت جزءا من إقطاع هذا الأمير (٨١) . ويحكى

* وينفذون الكلاب الزغارية ، وينْفذُ لهم هو الصُّصُن والطيب ومن كسوة مصر - الاعتبار أسامة بن منقذ (ويلاحظ أن كلمة كسوة فى الأصل العربى قد قرئت نسوة عند المؤلفة ... المترجم).

** وأخذ العادل فى إصلاح أمور مصر ، والنظر فى ضياعها ورباعها ... سلوك ١ جـ٢ ص١٥٨

*** وحاقق « السلطان » الجند فى إقطاعاتهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر ، فتغيرت لذلك نياتهم - ابن الأثير جـ ١٢ ص ١٥٦ .

المقريزي : أن أميرا يدعى ابن قزلة قد استبقى الفيوم كله بمثابة إقطاع له [٨٢] كان ذلك في عهد السلطان الكامل . وقام الأشرف موسى ابن العادل في ١٢١٨م . بإهداء رأس العين لحاكم ماردين [٨٣] .

وفيما يتعلق بسنة ١٢٢٥م . يحكي ابن الأثير عن ذلك الأمير المسمي بدر الدين لولو » وهو من زنكيي الموصل ، وكان قد منح أحد الخاضعين السابقين له إقطاعا فأخذه وصار مواليا لزنكيي سنجار ، ولكنه بعد ذلك عاد إلى حليفه السابق [٨٤] . ويخبرنا أيضا عن ١٢٢٤م . : أن العادل قد خصص للأمير شهاب الدين غازي إقطاع مدينة خلاط المتاخمة للأقاليم الأرمينية ، وبعد ذلك زاده إقطاع ميافارقين ، وخان وجبيل وجور [٨٥] .

وابن الأثير في ١٢٣٠ – ١٢٣١م . يتحدث عن واحد من الأمراء العاملين لدى السلطان الكامل تسلم إقطاع مدينة سلمية [٨٦] .

ومعروف أن السلطان صالح نجم الدين أيوب ألقى في السجون بكثير من الأمراء المشتبه في ثقتهم ، وذلك عند اعتلائه العرش ، ثم قام بإعادة توزيع إقطاعاتهم على المماليك [٨٧] .

وقلعة بانياس الفلسطينية التي كان المعظم عيسى ، وهو ابن أخ لصلاح الدين سبق التنويه عنه ، يمتلكها بمثابة إقطاع في ١٢١١ – ١٢١٢ م . ، قد تم منحها من بعده لأخيه العزيز عثمان ، وبعد ذلك انتقل حق إقطاع هذه القلعة لابنه [٨٨] .

ومعطيات ابن الأثير وأبو شامه تعطي الدليل على أن الإقطاع الأيوبي كان ملكية خاصة للأرض لإقطاعيين مستقلين ، فأبو شامه يتكلم في (١١٨٥– ١١٨٦م .) عن توزيع صلاح الدين لإقطاعات على جنوده ، فيقول : « إن الأمير سيف الدين علي وأمراء آخرين توجهوا للنزهة في أراضي أحد القضاه الممنوحة له ، فكان* سياق

★ وسيّر الأمير سيف الدين علي ابن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري ومعه الأمراء من قبيلته والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية وجماعة من الأمراء الحميدية إلى العقر وأعمالها لا ستفتاح قلاعها واستغلال ضياعها ونصب الجسر ، وملك الأمر .. . وعرض ذلك على رأى الفقيه العالم فخر الدين ... فصدق المشير بذلك ، وقال هذا ممكن ولا يتعذر ويتيسر ولا يتعسر ... أبو شامه حـ ٢ ص ٦٢ .

حديثهم معه عن استخلاص الدخول من قراهم وإقامة السدود والأشراف على قطع الأرض [٨٩] » . ويشير أبو شامه فى مكان آخر إلى أن مالكى الإقطاعات يكونون عادة فى إقطاعاتهم فى مواسم الحصاد . وهذا ما يلاحظه (جب) أيضا عند الكلام عن المتآمرين الفاطميين فى ١١٧٤م . ، الذين ضموا إلى هيئتهم المحاربين الموجودين فى إقطاعاتهم فى ذلك الوقت تماما ولم يكن وجودهم هناك صدفة [٩٠] .

ويكتب ابن الأثير تحت عام ١١٩٩ عن عودة أحد أبناء صلاح الدين مع قواته من سوريا إلى مصر فيقول : « وجنود الأفضل* قد انفصلوا عنه فى مصر ... وتوجه كل منهم (الجنود – المؤلفة) إلى إقطاعه لكى يرعى بهائمه [٩١] .

وكان من الممكن أن يكون الإقطاع صغيرا جدا فمعروف أنه فى أربعينيات القرن الثالث عشر كان قد تم تقسيم أملاك إقطاع بالفيوم يحتوى على عدة قرى على اثنين أو على مجموعة كاملة من المحاربين ؛ كان على رأسها أحد الأمراء [٩٢] ومن الأمراء الذين تسلموا إقطاعات فى منيا البطس ، ** كان الأمير المعروف : ركن الدين بيبرس الذى شغل فيما بعد وظيفة سلطان مملوكى [٩٣] .

والإقطاع الواحد ؛ كان يحتوى أحيانا على قطع موزعة فى أماكن مختلفة ، فعلى سبيل المثال : كان إقطاع رجل يسمى ابن مهران يتوزع على ستة أقاليم بالفيوم . [٩٤] وتجزىء الإقطاع على الأقاليم المختلفة لم يكن هكذا مجرد صدفة ، ولكنه كان يتم بأيدى الحكومة ، بغرض يهدف إلى تلافى القوة المفرطة للإقطاعيين الكبار . وبشكل كامل ؛ فإن الملكية الحكومية للأرض قد تم القضاء عليها بصورة جوهرية فى عهد صلاح الدين ، وفقدت الحكومة حق الاستغلال المباشر للفلاحين .

* وكان عسكره بمصر ، قد تفرق من الأفضل ... فصار كل منهم إلى إقطاعه ليريحوا دوابهم . ابن الأثير جـ ١٢ ص ١٥٥ .

** منيا البطس ، عبارة عن بلدة كبيرة تشتمل على نخل وبسط وهى بحرى مدينة الفيوم بينها وبين مدينة الفيوم مسافة أربع ساعات جارية فى إقطاع المقطعين وهم .... والأمير ركن الدين بيبرس خاص الترك الكبير . النابلسى ص ١٦٠ – ١٦٤ .

يتلخص جوهر التغيرات الجارية في عهد صلاح الدين في العلاقات الزراعية عند المقريزى : « وكان * خلفاء بنى أمية والعباسيين يوزعون أرضا من أرض مصر على أقربائهم ، والوضع عندئذ لم يكن مشابها ما يحدث الآن ولكن كان إيراد الخراج من أرض مصر يوزع على هيئة عطاءات للجنود وأية نفقات أخرى ، أما ما يتبقى فيضاف إلي الخزانة ، غيرأن ما يوزع من الأراضى كان يبقى تحت أيدى أولئك الذين تم توزيعه عليهم . وفقط عندما حل عهد السلطان صلاح الدين بن أيوب ؛ فإن كل أراضى مصر قد انتقلت إلى السلطان وأمرائه وجنوده [٩٥] . »

ويشير أيضا فى مكان آخر إلى « ** معروف أن حكومة الفاطميين السابقة لهؤلاء لم يكن لديها إقطاع فى مصر شبيه بهذا الذى يحدث الآن فى الدولة التركية [٩٦] .

وكانت ملكية الأرض فى عهد الأيوبيين تقوم فى أغلبها على النظام الفئوى الهرمى الشبيه فى أساسه بالأشكال السائدة فى أوروبا الغربية فى العصور الوسطى . [٩٧] وكانت الفئات الحاكمة تتكون فى أغلبها من الأعيان المحاربين الذين ينحدرون من الأصل الكردى التركى .

والنظام الإقطاعى العربى فى مصر فى ذلك العهد شأنه فى ذلك شأن دول الشرق الأدنى الأخرى فى العصور الوسطى ؛ كان يتميز تقريبا بالغياب الكامل لحيازة الملكية الخاصة للإقطاعى (وذلك فيما عدا بعض الاستثناءات سنتكلم عنها فيما بعد) .

كان الدخل المستخلص من الأقاليم الممنوحة (متوسط القياس السنوى) يسمى «العِبْرَة » وهذا هو ما تدل عليه الوثائق الملائمة . فالإقطاعى الأيوبى لم يكن يتمتع -

* النص بتصرف فهو عند المقريزى يبدأ « وأعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ...... تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان فى الأمراء أو العمال وللأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم ، وكان يقال لذلك فى صدر الإسلام العطاء ... وما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم فغير هذا الرسم ، فرقت الأراضى إقطاعات على الجند ... وأول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الجند نظام الملك أبو على الحسن بن على بن اسحق بن العباس الطوسى وزير البرشلان بن داود بن ميكال .... واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين وأربعمائه إلى يومنا هذا (المقريزى خطط ١ ص ١٧٦) .

** وأعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية (المقريزى .. خطط ١ ص ١٠١)

كقاعدة بالحصانة الضريبية غير أنه كمالك كان يمكنه أن يحد من تدخلات موظفى الحكومة فى أعمال إقطاعه .

والنابلسى فى كتابه يحكى أن العادل اقترح على صلاح الدين عند توزيع الإقطاعات فى مصر ؛ أن يأخذوا العشر من كل ألف دينار من دخل الإقطاعى ولكن صلاح الدين رد عليه بقوله : إن هذا قليل جدا (٩٨) وانتهت هذه المحادثة بما لم نعرفه ، وبدرجة ما فإن الحكومة فى العهد الأيوبى تراجعت عن أخذ العشر من دخل الإقطاع .

أما عن افتقاد الحصانة الضريبية على الأراضى الإقطاعية ؛ فإننا نجد ما يشير إلى هذا فى إحصاء النابلسى المتضمن لأنواع الضرائب سواء كانت نقدية أو عينية (بما فيها الضرائب عن الإقطاعات) وهى تستند إلى النقل عن الديوان الحكومى (٩٩) .

كان استثناء الإقطاعى من التوريد للخزانة يعنى منحه امتياز الحصانة ، وكان هذا ظاهرة استثنائية لأولئك الذين يلحون فى طلب السماح لهم بذلك ؛ « * فطبقا لما يقرره الديوان ، كان من الممكن للمقطع أن يتحرر من أداء العشر والضرائب المستحقة عليه » . (١٠٠) .

وكان الإقطاعى أيضا لا يتمتع بالحماية القضائية (١٠١) ، وكانت صلاحيات الإقطاعى ذى الرتبة الأعلى أوسع بكثير من الإقطاعيين البسطاء ، كما لاحظنا سابقا ، فكانت إقطاعاتهم إما مدى الحياة أو وراثية وكانوا يستطيعون استبدال إقطاعاتهم بكامل رغبتهم ، ونزع إقطاعاتهم فى العهد الأيوبى لم يكن مسموحا به .

والحكومة حرصت على أن توظف المالك الكبير للأرض فى المجال القومى ، مما يؤكد رغبتها فى إعطائه الحق فى المشاركة فى قسم من الإنتاج الفائض للفلاحين وأيضا الحق فى المحاكمة وفى صك النقود .

والملكية الخاصة للإقطاعى على رقاع أرضه كانت محددة بحق الملكية ، وتبعية المنتجين المباشرين .

* فحكم الديوان حينئذ بأن يطلق جامكياتهم من نسبة المتحصل فى جميع الإقطاع – ابن مماتى . قوانين الدواوين ص ٢٧ .

وهذه الملكية غير الكاملة ، إلى جانب هرميـة النظام الطبـقى (هراركيـة) ثم الارتباط بوظيفة حربية ، وكما هو معروف ، فإن هذه الخواص هى الخواص القانونية النموذجية لملكية الأرض الإقطاعية (١٠٢) .

وبشكل عام ، كانت جملة حقوق أصحاب الإقطاعات الأيوبية على الأرض وخاصة ذلك الإقطاعى ذو الرتبة العليا تفوق بكثير - دون أدنى شك - حقوق الملتزم فى العهد الفاطمى ، وليس العكس كما يعتقد «بيكر» (١٠٣) ، وهذا ما تؤكده كل التطورات البعيدة المدى فى النظام الإقطاعى .

أما عن توزيع الأراضى الحكومية كنوع من الإقطاعات ، فينبغى الانتباه إلى أن الأقاليم الواقعة تحت التصرف الشخصى لرئيس الدولة كانت فى معظم الأحوال تصبح فى نهاية حكمه غير موجودة . وفى قصة حياة صلاح الدين « لابن شداد نجد الحساب التالى » * ولم يبق لصلاح الدين بعد ذلك فى الخزانة مـن الذهب أو الفضة شىء ، غير سبعة وأربعين درهما ناصريا ، وديناراً ذهبيا صوريا (نسبة إلى مدينة صور - المترجم) واحدا وذلك من كل الدخول فى مصر وسوريا والأقاليم الشرقية واليمن ، ولم يستبق أى أمتعة مطلقا ولا منازل ولا أراض ولا حدائق ولا حقول ، فقد كان شعارا مفحما فى كرمه الزائد » (١٠٤) .

والبعض من أعضاء السلالة الحاكمة كان لديه أملاك خاصة تظهر فى المصادر تحت مصطلح « خاص » .

* لما مات (صلاح الدين - المترجم) لم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية وديناراً واحداً ذهبيا صوريا ، ولم يخلف ملكا لادارا ولاعقارا ولا بستانا ولا مزرعة .. فإنه كان بإخراج ما يدخل من الأموال فى المكرمات والغرامات مغرما ، وما كان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه باضعافة ، ابن شداد هـ ٢ ص ٢١٧ .

ويقول إبن الأثير حـ١٢ صـ٩٦ : وأما كرمه (صلاح الدين - المترجم) فانه كان كثير البذل لا يقف فى شىء يخرجه ويكفى دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى وأربعين درهما ناصرية .

وهكذا ؛ فإن أبا شامة يكتب عن ابن أخ صلاح الدين : المظفر تقى الدين عمر فيقول « قد أهدى السلطان إقطاعا لتقى الدين فى الإسكندرية ودمياط وأعطاه فى خاص « البحيرة والفيوم وبوش ... وفيما بعد أعطاه بدلا من بوش سمنود* ، وحوف رمسيس (١٠٥) » وعندما تم استدعاء المظفر تقى الدين بعد ذلك من مصر - كما أوضحنا سابقا - أجبروه عن التنازل عن ممتلكاته بما فيها الخواص المصرية (١٠٦) .

ويكتب ابن شداد عن ذلك فى ١١٩١ فيقول : « ** إن صلاح الدين قدم لأخيه العادل الشرقية بمثابة إقطاع بشرط أن يتنازل عن بعض إقطاعاته السورية وعن نصف خواصه المصرية » (١٠٧) . أما عن المحافظة على النزوع إلى التوزيع المركزى للريع الإقطاعى ؛ فإن كتابات أبى شامة والمقريزى تشير إلى أن أراضى ديوان الأسطول الذى أنشىء للمرة الأولى فى (١١٧٦ - ١١٧٧م .) وللمرة الثانية فى (١١٨١م .) أى أن كليهما كانا فى عهد صلاح الدين ؛ فإلى جانب إعادة تنظيم القوات البرية ، تم تجديد الأسطول المصرى الذى كان قد تدهور نهائياً ، وتحددت كيفية الإنفاق عليه علاوة على تخفيض أراض فى طنبدى وأشنين فى صعيد مصر ، وأشياء أخرى تم وضعها جميعا تحت الإدارة المباشرة للموظفين الحكوميين (١٠٨) . ومن المحتمل أيضا أن التنويهات التى ترد عند النابلسى عن ديوان أراضى الأوسيه تتعلق تماما بممتلكات هذه الإدارة (١٠٩) .

وتدل بعض المعطيات غير المباشرة على أنه إلى جانب الإقطاع فى العصر الأيوبى فى مصر، كانت هناك أراضى قليلة ، بقيت من العهد السابق تسمى أراضى « الملك » ، والمقريزى يحدد أراض الملك بأنها تلك التى يمكن أن تباع أو تهدى أو تنتقل بالوراثة ، وهذا النوع من الأراضى ظهر عن طريق بيع الأراضى الحكومية (١١٠) . غير أنه - من المحتمل - أن يكون هذا المصطلح « الملك » قد ظهر فى مصر منذ الغزو العربى شأنها

* وأقطع السلطانُ تقىَّ الدين الإسكندرية ودمياط وجعل لخاصه البحيرة والفيوم وبوش ثم عوضه عن بوش سمنود وحوف رمسيس . أبو شامه جـ ٢ ص ٥٣ .

** ثم قرر السلطان منح أخيه العادل أن يأخذ هو تلك البلاد وينزل عن إقطاعاته بمصر ونصف خاصه ففعل واستزاد . أبو شامة جـ ٢ ص ١٩٧ .

فى ذلك شأن البلدان العربية الأخرى . وأول ما يعنيه هذا النوع من الأرض هو تشابهه مع مثيله فى أوروبا الغربية (فى معناه الأساسى) ؛ مما يعنى وجود لحظات انطلاق فى تحلل الملكية العامة للأرض وتطور مبدأ عدم المساواة فى ملكيتها (١١١) .

وعن هذه الملكية نستطيع أن نقول : إنها تعنى التماثل مع وضعها القانونى والتفاوت فى المضمون الاجتماعى (١١٢) .

والمقريزى يشير إلى وجود هذا النوع من « الملك » فى أخباره عن إعادة تقسيم الإقطاعات المبكرة « إذا كان* لديه ملك ، فانه يبقى له ولا يدخل ضمن إقطاعاته وصاحبه يستطيع بكامل رغبته أن يبيعه أو أن يعرضه للإيجار» (١١٣) .

ويكتب أيضا المقريزى عن استيلاء أصحاب الأملاك على أماكن (أراضى) مملوكة مجاورة لدوائر من الأراضى الحكومية وذلك فى بداية القرن الثانى عشر (١١٤).

وبدرجة ما ؛ فإن هناك أماكن أخرى فى كتاب المقريزى تتضمن العديد من المعلومات عن ذلك النوع من « الملك » منها ما يقول : إن الحراس الفاطميين قبل هزيمتهم على يد صلاح الدين كانوا يقتنون فى القرى المصرية أراض خاصة بكل واحد منهم موضوعة تحت تصرفه بالكامل (١١٥) .

« والملك » هنا كما يبدو ، ولأول وهلة من الأمثلة المقدمة ؛ يقوم تحديدا ، ليس كملكية فلاحية ولكنه كان شكلا من الملكية الخاصة الإقطاعية للأرض ، أكثر تطوراً بالمقارنة مع الإقطاع .

وينبغى الافتراض بأن الكلام الذى يدور عن « الملك » عند ابن المتوج ؛ مؤلف العهد المملوكى المبكر ، وفيه يثبت « أن المظفر تقى الدين عمر كان قد اشترى جزيرة الروضة فى النيل ، وبعد أن صارت ملكا له وهبها للوقف** (١١٦) .

* من كان له ملك فهو باق عليه لايدخل فى الإقطاع ، وهو محكّم : إن شاء باعه وإن شاء أجره - المقريزى خطط ١ ص ١٥٢ .

** « قال ابن المتوج : ثم اشترى الملك المظفر تقى الدين عمر بن أيوب جزيرة مصر ، المعروفه اليوم بالروضة ، .. وإنما سميت بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها ... ووقف (على المدرسة النقدية) الجزيرة بكاملها » -خطط جـ ٣ ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

وللأسف ، فإن المعطيات القادرة على تمييز حقيقة هذا النوع من الملكية (الملك) في هذه الفترة غير موجودة في المصادر التي تحت يدنا .

لقد كان النوع السائد من الملكية المدينية للأرض الزراعية في العهد الأيوبي يتكون في أغلبه من الإقطاع . أما أراضي الأنواع الأخرى فكانت قليلة الأهمية .

ويتطابق مع هذا كون « الفارس الخيال » المنحدر من الأصول الأجنبية – مالك الإقطاع – صار منذ ذلك الوقت هو الشخصية النموذجية للمجتمع الإقطاعي المصري .

هوامش الفصل الثانى

١ – عن مصطلح « القبالة » انظر A. Я. Якубовский الإيجار المستخدم فى العراق فى القرن الثامن : «Советское востоковедение», IV, М.—Л., 1947, стр. 174—175.

٢ – المقريزى خطط ١ ص ١٣١ – ١٣٢ .

٣ – Silvestre de Sacy, Sur la nature .. ,p 196 .

٤ – وصف حساب هذه الدورة عند المقريزى مكرس له فصل خاص خطط (ص ٢١ – ٥٩) وانظر أيضا

Silvestre de Sacy, Sur La nature.... , pp 200 - 201 .

٥ – المقريزى خطط ١ ص ١٣٢ .

٦ – نفس المصدر ص ١٣٨ .

٧ – نفس المصدر ص ١٣٨ .

٨ – ناصر خسرو : سفر نامه؛ Е. Э. Бертельса, М.—Л., 1933, стр. 114.

٩ – انظر على سبيل المثال : А. Е. Бертельс,. *Насир-и Хосров и исмаилизм,* М., 1959, стр. 29; Б. Я. Шустер, *Шестой том истории Ибн Мискавейха как источник по социальным отношениям в позднем халифате,* — «Краткие сообщения ИНА АН СССР», вып. 47, М., 1961, стр. 86.

١٠ – المقصود بهذا المعنى فى رأينا ، هو الاصطلاح المستخدم عند المقريزى فى عدة أماكن من الخطط :

(٢ – ص ٢٤٤ ، ٣٠٩ ، ٣٤٠ ، ٣ – ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٤ – ص ٧٣) ، وعن معنى هذا المصطلح – الإقطاع – فى الفترات الأولى من حكم الخلفاء

انظر Cl . Cahen, L'evolution de L'iqta, pp 26 - 30

١١ – المقريزى خطط ١ – ص ١٣٣ .

١٢ – المقريزى خطط ١ – ص ١٣٣ .

13 - Silvestre de Sacy Sur la nature, p. 201; C. H. Becker, Islamstudien, Bd I, S. 247; A. N. Poliak, Some notes on the feudal system of the mamluks, - JRAS , 1937; p 96 .

14 - A. Poliak, The Ayybid Feudalism, p. 431

15 - Cl. Cahen, L'evolution de L'iqtá, p.52 .

16 - Cl. Cahen, Quelques problèmes economiques et fiscaux de L'iraq Buyide d'après un traité de mathématiques, - (Annales de L'Institut d'Études Orientales), X,Alger, 1952, pp. 347 - 348 .

17 - С. Б. Певзнер, *Иктп...*, стр. 186.

١٨ – نجد صدى لحوادث هذه السنوات في عديد من المصادر ، وخاصة الفصل الأول من كتاب ابن شداد ومذكرات أسامة ابن منقذ وأيضا أبو صالح .

١٩ – وهكذا .. فإن الخليفة الفاطمي : المعز (٩٥٣ – ٩٧٥) كان غير واثق في القبط ، فأحال الإشراف التام في جمع كل الضرائب الحكومية ، من الوزير يعقوب بن يوسف إلى شخص يدعى عسلوج بن حسن ، ويبدو أنه كان أحد مساعديه « وقبضوا بأيديهم على كل أحوال الموظفين والملتزمين » المقريزي : اتعاظ الحنفا .. بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

وعن المتاعب القاسية التي تعرضوا لها في عهد الخليفة : الحاكم (٩٩٦ – ١٠٢٠) ، انظر :

Severianus, Les coptes dans L' Egypte musulmane, - (Etudes méditerranéennes), Paris, 1959, No. 6, p. 72) .

٢٠ – والكنوز الهامة في القصر الفاطمي ، كان قد تم اختلاسها قبل سقوط هذه السلالة لوقت طويل ، انظر .

(P. Kahle , Die Schatze der Fatimiden - ZDMG, Bd 89, 1935 , S. 329 - 331) .

21 - H . A . Gibb, Studies on the civilization of Islam . The armies of Salaadim London,1962,p.74 (وأيضا Gibb, The armies of Saladin, pp . 74 , 82) .

٢٢ – أبو شامة جـ ١ ص ١٥٩ .

٢٣ – نفس المصدر ص٢١٩ والمقريزي (سلوك) ١ – جـ ١ ص ٥٢

٢٤ – الأمراء التركمان وبعض أمراء نور الدين الأتراك ، تم استبعادهم بفرقهم من مصر ، على ما يبدو بسبب عدائهم لصلاح الدين ، إلا أن صلاح الدين استخدم الفرسان التركمانيين المأجورين في أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، خاصة في الهجوم على قوات القرن التركمانية التابعة لرتشارد الأول الانجليزي أثناء تقهقرها من القدس . (انظر : .

Gibb, The armies of Saladin, pp . 74 , 82) .

٢٥ – أبو شامة ١ – ص ١٧٨

٢٦ – نفس المصدر ص١٩٦

٢٧ – الصعيد : صعيد مصر ومعناه بالعربية مصر العليا التي تشمل أقاليمها الجنوبية من القاهرة حتى جنادل أسوان . .

٢٨ – وعن هذه الحوادث انظر على سبيل المثال : ابن شداد ص ٣٧ ، ٢٦٩ ، وابن الأثير الجزء ١٢ ص ٢٧٣ ، وأبو الفدا جـ ٣ ص ٥٩ ، وابن خلكان ٣ – ص ٢٧ ، ٥ – ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، وابن خلدون ٥ – ص ٢٨٩ ، وابن تغريبردي (النجوم) ٦ – ص ٧٨ ، والمقريزي (خطط) ٢ – ص ٢٩ ،

И. Ю. Крачковский, *Омара ибн Абу-л-Хасан ал-Йемени*, — Избранные сочинения, т. II, М.—Л., 1956, стр. 462—464.

29 - V. Minorsky , Studies in Caucasian history, pp. 139

٣٠ – سعداوى ص ٢٩ .

٣١ – المقريزى (خطط) ١ – ص ١٣٩ : الطواشي حرفيا تعنى الخصي ، – المؤلفة) وكفارس ، هو من تتراوح منحه سبعمائة وألف دينار ، وله « مربط » به ، من عشرة رءوس إلى ما دونها ما بين فرس وحمار وبغل وجمل ، وله غلام يحمل سلاحه (المقريزى خطط ١ ص ١٥٩ – المترجم) . ولكن بولياك فى كتابه (الإقطاع ..... ص ٣ : يماثل ما بين الطواشى وأمراء المماليك بدون أساس كاف للإقناع ، وكهن فى (L'evolution de L'iqta) ص ٤٦ ويعتقد أنهم نوع من الخيالة الأقوياء ، وكما نلاحظ بحق عند « جب » الذى يعتبر أن الطواش ليس كما تعنيه الكلمة حرفيا (الخصى) ولكنه فارس ذو رتبة مالية فى القوات المنتظمة .

(The armies of Saladin, pp 76 - 87)

أما القاراجول (قرا غلام) عند المقريزى وجمعها قراغلامية – المترجم) وهى تعنى حرفيا (العبد الأسود) فغير واضح معناها تماما . ففى رأى سيلفستر دى ساسى (sur la nature, p. 215) أن هذا المصطلح يعني فى اللغة التركية القديمة (الشاب الأسود) .

وسعداوى ص ٩ فى كتابه يجد هذا المصطلح بأنه نوع من الشرطة يراقب الطرق فى زمن تحرك القوات. و« كهن » ص ٤٦ فى كتابه المنوه عنه أعلاه يعتبرهم فرساناً ذوى رتب متدنية . « ولين بول » معتمدا على الترجمة الحرفية يحدد « القاراجول » بأنها تعنى : العبيد السود السودانيين .

(Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, New York - London 1898 p 154)

وهنا نجد أن « جب » لا يتطابق مع نفسه فيما قاله أعلاه عن الطواشى فى كتابه المشار إليه أعلاه ص ٧٦ – ٨٧ .

٣٢ – المقريزى (خطط) ١ – ص ١٣٩ ، (سلوك) ١ – جـ ٢ ص ٧٥ .

33 - Gibb, The armies of Saladin, P. 104 .

34 - Cl . Cahen, L'evolution de L'iqta .

٣٥ – ابن الأثير ١١ – ص ٢٢٧ ، وابن شداد ص ٢٦١ .

٣٦ – المقريزى (خطط) ٦ – ص ٢٧٠ ، أبو شامة ١ – ص ١٨٤ .

٣٧ – ابن الأثير ١١ – ص ٣١٠ وأبو شامة ١ – ص ١٨٤ .

٣٨ – ابن شداد ص ٢٧٥ .

٣٩ – ابن الأثير ١١ – ص ٢٦٨ ، وأبو صالح ص ٢٠٤ .

٤٠ – المقريزى خطط ٦ – ص ٢١٢ .

٤١ – ابن الأثير ١١ – ٣٤٥ ، وابن شداد ص ٢٨٨ وانظر أيضا – المقريزى (سلوك) ١ – حـ ٢ ص ٩٢ ، ١٩٣

٤٢ – المقريزى سلوك ١ – حـ ١ ص ٩٤ وتحت هذه السنة ، نجد عند المقريزى أيضا أخبارا هامة عن إعطاء صلاح الدين كل الذى كان فى « داره » (جنوب شرق حلب) من قرى وإقطاعات للفقيه المعروف ضياء الدين عيسى حكار لمساهمته فى المعارك ضد الصليبين (سلوك ١ – حـ ١ ص ٩٤ وانظر أيضا عماد الدين ص ٣١) .

٤٣ – ابن شداد ص ٣٠١ .

٤٤ – ابن الأثير ١٢ – ص ٥٤ ، وابن شداد ص ٢٨٨ ، والمقريزى (سلوك) ١ – حـ ١ ص ١٩٣

٤٥ – ابن الأثير ١١ ص ٢٧٦ ، ٢٨٠ .

٤٦ – ابن شداد ص ٢٨١ .

47 - H .Derenbourg, Les Croisades d'aprés dictionnaire géographigue de yak-out - (Centenaire de l'Ecole des Langues orientales vivantes, 1795 - 1895) , Paris, 1895,

p. 83 .

٤٨ – ابن الأثير ١١ ص ٣٤٠ .

٤٩ – ابن الأثير ١٢ ص ١٦ وانظر أيضا أبو شامة ٢ – ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

٥٠ – المقريزى سلوك ١ حـ ٢ ص ١٢١ .

51 - K. S .Salibi, The Buhturids of the Garb, Mediaeval Lords of Beirut and of southern Lebanon - (Arabica), 1961, VIII, fasc. 1, P 83 .

٥٢ – ابن الأثير ١٢ ص ٣٦ المقريزى (سلوك) ١ – حـ ١ ص ١٠٨ معظم الحقائق المقدمة عن توزيع الإقطاعات فى عهد صلاح الدين ، يوجد البعض منها مكتوب بشكل آخر عند ابن خلدون – انظر : مسجلد ٥ – ص ٢٨٢ – ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ – ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٦ .

٥٣ – المقريزى (خطط) ٦ – ص ١٩٥ .

٥٤ – ابن الأثير ١٢ ص ٣٨ .

٥٥ – ابن الأثير ١١ ص ٢٧٧ .

٥٦ – أبو شامة ٢ – ص ٣٨ .

٥٧ – المقريزى سلوك ١ حـ ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

٥٨ – نفس المصدر ص ٧١ ، ٧٥ .

59 - Cl . Cahen, L'evolution de L'iqta

٦٠ – أبو شامة ١ – ص ٨ – ٩ والمقريزى (خطط) ٣ – ص ٣٥١ .

٦١ – أبو شامة ١ – ص ١٢٨ وانظر أيضا أبو شامة . ٢ – ص ١٨٧ ، غير أنه من المعروف أن هناك استثناء من هذه العادة ، فعندما عاد رجال نور الدين بعد الحملة المصرية الفاشلة فى ١١٥٦ م تم انتزاع كل الإقطاعات منهم . (ابن الأثير ١١ ص ٢١٤ ، وسعداوى ص ٤) .

62. С. Б. Певзнер, *Икта...*, стр. 181.

٦٣ – أسامة بن منقذ ، كتاب المواعظ ص ١١٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ .

٦٤ – نفس المصدر ، ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

٦٥ – نفس المصدر ، ص ٣٠٣ .

٦٦ – نفس المصدر ، ص ٣٠٦ .

٦٧ – نفس المصدر ، ص ٣١٧ .

٦٨ – نفس المصدر ، ص ٢٩٤ .

٦٩ – نفس المصدر ، ص ٢٩٥ .

٧٠ – نفس المصدر ، ص ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٢٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٣

٧١ – نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

٧٢ – نفس المصدر ، ص ١٣١ ، ١٦٦ ، ١٩٩ .

٧٣ – نفس المصدر ، ص ١٩٩ .

٧٤ – نفس المصدر ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٧ .

٧٥ – نفس المصدر ، ص ٢٩٨ .

٧٦ – ابن الأثير ١٢ – ص٧١ .

٧٧ – المقريزى (سلوك) ١ حـ – ١ ص ١٢٩ .

٧٨ – ابن الأثير ١٢ ص ١٠٧ .

٧٩ – نفس المصدر ص ١٠٣ .

٨٠ – نفس المصدر ص ١٧١ .

٨١ – نفس المصدر ص ١٩٦ – ١٩٧ .

٨٢ – المقريزى خطط ٢ – ص ٣٧٥ .

٨٣ – ابن الأثير ١٢، ص ٢٢٥ .

٨٤ – نفس المصدر ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ .

٨٥ – نفس المصدر ص ٢٧٣ .

٨٦ – نفس المصدر ص ٣٢٠ وأبو الفدا ٣ – ص ١٧١ .

٨٧ – المقريزى (سلوك) ١- جـ٢ ص٢٠٠ .

88 - M .van Berchem, Le château de Banias et ses inscriptions- JA, XII 1888, p. 441.

– أبو شامة ٢ ص ٦٢ .

٩٠ – نفس المصدر ، ص ١٣٣ ، وانظر : Gibb, The armies of Saladin , P. 75 .

٩١ – ابن الأثير ١٢ ص ١٠٢ وأيضا أبو الفدا ٣ – ص ١٢٨ .

٩٢ – النابلسى ص ٢١ ، ٢٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٦١ وصفحات ٤٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ٧١ ، ١٣٩ .

٩٣ – نفس المصدر ص ١٦٤ .

٩٤ – نفس المصدر ص ٥١ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ١٦٦ .

٩٥ – المقريزى (خطط) ١ – ص ١٥٦ .

٩٦ – نفس المصدر ص ١٣٨ .

97 - A. Poliak, The Ayyubid Feudalism P. 431

98 - Cl. Cahen, Quelques aspects de L'administration égyptienne mediévale vue par un de ses fonctionnaires, P . 98 .

٩٩ – ويختلف عن هذا ثلاث أنواع من الضرائب المتأخرة – « الباقى » وهو المتأخرات البسيطة على « «الموقوف »تلك التى يمكن ألا تدفع بسبب خرابها » « والضرائب العرضية » ، « والحاصل » : مما يعنى أن دافع الضرائب هنا لا يسلم بشكل دورى من القرية إلى المستودعات الحكومية ، غير أن المقطع الإقطاعى أو الفلاح لا يدخل هنا ضمن هذه الأنواع (النابلسى ص ٣٠ ، ٦٠ ، ٧٢).

١٠٠ – ابن مماتى ص ٣٧ وفى أخبار ابن مماتى أيضا ص ٩٦ .

١٠١ – هكذا يكتب أبو شامة : أن القاضى ابن الفراش النائب السابق للسلطان فى إقليم « شهر زور » أشرف على المقطعين وحقق العدالة للتابعين له (٢ ص ٢٠٩) .

102- См. К. Маркс и Ф. Энгельс, *Немецкая идеология*, — Сочинения, изд. 2, т. 3, стр. 22—23.

103 -- C, Becker, Islamstudien, ,S. 213

١٠٤ – أبو شامة ٢ – ص ٢١٧ (فى استشهاد من ابن شداد) وضع هذا النص أبو شامة بين قوسين ، وهذا الاستشهاد موجود فى طبعة القاهرة لابن شداد (ص ٢١٠) . وبجانب ذلك فإن الطبعة الأخيرة لابن خلكان : (تحتوى أيضا هذا الاستشهاد عن ابن شداد فى الجزء ١٢ ص ٨٤) وبدلا من كلمات « ودينارا ذهبيا واحدا » كتب « وجارم صورى واحد » التى من الممكن ترجمتها « تارب فورى واحد » ، ولدى عماد الدين (ص ٤٥٦) يعرض هذه المعلومة باختصار ، ولم يبق فى

خزانته شيء ، سوى دينار واحد وستة وثلاثون درهماً » . ويعد ابن إياس وريث أيضاً (١ ص ٧٣) دون أي استشهاد « ولم يستبق هو في الخزانة أيا من الذهب أو الفضة ، ولم يستبق ضياعا ولا بساتين ولا عقارات ولا قرى » أما ما يقوله أبو شامة عن : « الدراهم الناصرية » فمن الأرجح أن تكون دراهم (من الورق) وقيمتها ٢٠٪ من الدينار الفضي وقد دخلت مصرَ في عهد صلاح الدين، أما « الدينار الصوري » فهو عمله ذهبية تم صكها في ذلك العهد في صور (انظر .

A . S. Ehrenkreutz , The standard of fineless of gold coins circulating in Egypt at the time of the Crusades, - J A O S , Vol . 74 , 1954, pt 3 , pp 163 - 164 .

١٠٥ – أبو شامة ٢ – ص ٥٢ وقد نقل هذه المعلومة عن رواية عماد الدين الأصفهاني : « قال العماد : وأعطى السلطان لتقي الدين لواء الفيوم وكل أقاليمه بكل بلادها ومداخيلها ، وزاده القبابات وبوش . واحتفظ له في سوريا بمدينة حماة بقلعتها وبكل ضواحيها » .

١٠٦ – أبو شامة ٢ – ١٩٧ ، وعماد الدين ص ٤٢٨ : بالنسبة لمصطلح « الخاص » في مصادرنا المعروفة فهو يستعمل فقط بالنسبة لأملاك الأيوبيين أنفسهم ، ولا يستعمل بالنسبة للفرسان العاديين وذلك ما أكده بولياك مستندا على ما قدمه لنا أبو شامة (The Ayyubid Feudalism, p - 431)

١٠٧ – ابن شداد ص ٣٠١ وأيضا أبو الفدا ٣ – ص ٨٥ .

١٠٨ – ينبغي الإشارة إلى أن قائد الأسطول قد تم منحه إقطاعا خاصا ، كان تحت إدارة ديوان الأسطول الذي كان ، في البداية ، قد خُصِّص له كل الفيوم ، ولكن في ١١٨٣ – ١١٨٤ – كما أوضحنا سابقا – كان قد تم ضم الفيوم إلى إقطاع المظفر تقي الدين عمر . انظر المقريزي (خطط) ٣ – ص ٣١٤ – ٣١٥ ، والمقريزي (سلوك) ١هـ ١ ص ٧٢ ، ١٠٧–١٠٨ ، وأبو شامة ١ ص ٢٦٩ ، وابن مماتي ص ١٨٠ .

A . S . Ehrenkreutz, The place of Saladin in The naval history of the Mediterranean sea in the middle ages - JAOS , 1955, Vol , 74, pt 1 - 2 , p . 108 .

١٠٩ – النابلسي ص ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢ ، وانظر : Cl . Cahen, Le regime des impôts, p . 10 .

١١٠ – المقريزي (خطط) – ١ ص ١٥٦ .

111- См. Л. И. Дембо, *Земельные правоотношения в классово-антагонистическом обществе*, Л., 1954, стр. 113.

١١٢ – انظر على سبيل المثال –

См., например: И. П. Петрушевский, *Очерки по истории феодальных отношений в Азербайджане и Армении в XVI — начале XIX вв.*, Л., 1949, стр. 235—237.

١١٣ – المقريزي (خطط) ١ – ص ١٢٣ .

١١٤ – نفس المصدر ص ١٢٧ .

١١٥ – المقريزي خطط ٣ ص ٢٩ .

الفصل الثالث

الملكية الإقطاعية المدينية في عهد المماليك الأوائل

الفصل الثالث

الملكية الإقطاعية المدينية فى عهد المماليك الأوائل

كان تبدل السلالة السلطانية مصحوبا بتغير فى التركيب العنصرى للأرستقراطية الحاكمة . فالكرد – كما أوضحنا سابقا – قاموا بتعيين الأتراك الذين هم على الأغلب من قبائل . كبتشاك ويلفتس ؛ التى كانت تقطن أساسا فى السهوب الواقعة شمال البحر الأسود وبحر قزوين ويسمون «بالبشت والكبتشاك » ويدخلون في تكوين قبيلة القرن الذهبى[1] فى ذلك الوقت .

وحقيقة ، فإن النظام المغولى أثر فى العسكرية المصرية والهرمية الإقطاعية تأثيرا كبيرا ، فتكوين القوات الدائمة وعددها الذى تضاعف بالمقارنة مع عهد صلاح الدين ، ثم صار تنظيمها ، بعد ذلك ، أكثر دقة ، إذ صار هناك أمراء المائه وأمراء الأربعين ،وأمراء العشرة وأمراء الخمسة ، وصار الإنفاق على المماليك يتحدد بثلثى دخل إقطاع الأمير ، وكان عدد المماليك وكفالتهم فى ذلك الوقت كما كان فى العهد السابق ، يرتبط على الأغلب بمدى تعسف الأمراء [2] . فأمير المائة ؛ يعتمد على امتلاكه لمائة مملوك ملكية خاصة ، ولكنه فى الحرب يقود ألف محارب من أجناد الحلقة ؛ وهذا هو السبب فى كون المؤرخين المماليك يسمونهم : «الأمرون للمائة والمقدمون للألف » . أمابقية الأمراء فكانت ألقابهم تعتمد على عدد المماليك الذين يملكونهم وتطابق ألقابهم مع عدد من يملكونهم ؛ برغم أن أعداد كل أمير كانت فى الحقيقة أكبر بكثير من لقبه[3] .

وإلى جانب هولاء الأمراء ومماليكهم ثم مماليك السلاطين ، فإن قسما هاما من الجيش المصرى كان يتكون من أجناد الحلقة * المنوه عنهم سابقا ، وهذا المصطلح «الحلقة» سيقابلنا كثيرا فى مصادر الفترة الأيوبية ولكنه صار يستخدم بانتظام يدل

* هم أهم فريق حاز الإقطاعات فى الجيش المملوكى ، ويتكون من مماليك الأمراء الذين انفصلوا عن إقطاعاتهم بالوفاة أو النفى أو كبر السن ، وجرت العادة أن يضم السلطان هؤلاء المماليك إلى الحلقة ؛ لذا كانوا من حيث الرتبة أقل من المماليك السلطانية : انظر د / إبراهيم على طرخان : النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ص ٤٧٩ – المترجم

على الفرق الحربية فى العهد المملوكى ، وأهميته حتى ذلك الوقت كانت غير واضحة تماما . وكاترمير ، وبلوشى يعتقدان أن «الحلقة هم الفيالق المحيطة بالسلطان وهم يكونون حرسه ، لكن بولياك يؤكد أن اسمهم هذا مرتبط بتكتيك الإحاطة بالعدو الذى كانت تطبقه كل الشعوب التركية ، فالمماليك أيضا (٤) .

وعلى كل ، فإن أجناد الحلقة لم يكونوا تابعين بشكل كامل للسلاطين ، مع أنهم كانوا يضمون بين صفوفهم بعض أعداد من أبناء أمراء المماليك(٥) .

وفيما يتعلق بهذا الموضوع ، فإن المصادر تحدد «الحلقة» بأنهم على وجه الدقة فرق مأجورة من التركمان والبدو ، مع أن الحلقة فيما يبدو كانوا شخصيا من الأجراء الأحرار(٦) ، وأكبر الظن أن االفرسان المكونين لنواة الحلقة كانوا من أبناء وأحفاد الإقطاعيين المحليين فى مصر وسوريا ، وقد فقدوا حقوقهم فى ضياعهم الأصلية ، وصاروا لايمتلكون وسائل أخرى لضمان حياتهم سوى الإقطاع السلطانى ، ومثال هذا الفارس الإسلامى ، نجده فى العهد السالف متمثلا فى أسامة بين منقذ المنوه عنه سابقا؛ والذى أجبر فى شبابه على هجرة وطنه شيزار ، وفى خلال حياته المديدة اشتغل عند الكثير من الحكام المسلمين ، وفى آخر سنوات عمره اشتغل لدى صلاح الدين(٧) .

وهناك أسباب عامة تتسبب فى افتقاد أجزاء ما من حقوق الطبقة المسيطرة على الأرض ظلت غير واضحة لنا . ففيما يبدو أن شريحة ملاك الضِّياع (بافتراض النموذج القبلى) ظلوا موجودين بعد الغزو العربى (٨) . وابتداء من القرن الثامن وحتى العاشر تحول هذا النموذج بالتدريج إلى نظام «الملتزمين» ولكن بعد ذلك ، وارتباطا بتطور نظام الالتزام – كما أوضحنا سابقا – تم إزاحة العنصر «الأجنبى» من بين المحاربين .

وإقطاع الحلقة يتحدد بأنه إقطاع المماليك الأمراء ، فنجد عند المقريزى تحت ١٢٨٠م . « أن واحدا من أمراء المماليك قد ساعد على تهدئة اثنين من مثيرى الاضطراب فى القاهرة ، تسلم إقطاع حلقة مكافأة على فعله ، ويؤكد المقريزى * أن هذا كان أول حادث من نوعه(٩) »

* . . . وخلع على المملوك وأنعم عليه بألف درهم وإقطاع فى الحلقة وهو أول من أخذ من مماليك الأمراء إقطاعات فى الحلقة . المقريزى سلوك ١ جـ٢ ص ٦٧٣

تم توزيع كل الأراضى المصرية المطوقة بالخراج فى عهد المماليك الأوائل باعتبارها ٢٤ قيراطاً[١٠] وكانت الطقة والأمراء بمماليكهم يحوزون كأملاك بمثابة إقطاعات مايوازى [١١] ١٠ قراريط ، كان ذلك حتى نهاية القرن الثالث عشر تقريبا . وكان منشور توزيع إقطاع الحلقة على الأمراء يصدر عادة باسم السلطان ، وكما كان الوضع من قبل ، فإن الإقطاع كان يضم أحيانا مدنا كاملة ، فعلى سبيل المثال ؛ أعطى السلطان : المنصور نور الدين على مدينة نابلس بمثابة إقطاع للأمير عز الدين بيبرس إلى جانب أقاليم أخرى فى ١٢٥٨ – ١٢٥٩م . وقدم المظفر قطز للأمير بيبرس البندقدارى ، بأمر سلطانى ، مدينة قليوب بضواحيها [١٢] . وكانت الواحات الواقعة فى الصحراء الليبية ممنوحة أيضا بمثابة إقطاعات [١٣] .

وهناك حقيقة هامة ، تحتل مكانا بارزا فى ١٢٦٥م . ، ذلك عندما كان بيبرس هو السلطان الحاكم ؛ فقد قام بمنح إقطاع لبعض الصليبيين المتحولين إلى جانب المسلمين [١٤] ، وفى عهده أيضا تم منح إقطاعات لكثير من الفرسان المغول من فرق خان «القرن الذهبى برك» (١٢٦٥ – ١٢٦٦م) وكان قد تم نقلهم للعمل فى صفوف المماليك بأمر من الجيش الأخير الهولاكى : خان جازان (١٢٧١ – ١٣٠٤م) .[١٥] والحقائق عن استقبال المغول للعمل عند السلاطين المصريين وتسلمهم لإقطاعات سنقابلها فى السنوات التالية [١٦].

والإقطاع سواء كان فى مصر أو سوريا – فى ذلك العهد – يمكن أن يتحول أولا يتحول إلى الشكل الوراثى ، فذلك كان مشروطا دائما بالوظيفة الحربية [١٧].

ويخبرنا ابن عبد الظاهر : أن إقطاع الأمير شهاب الدين القمرى انتقل لابنه بعد موته ، ولكن إقطاع الأمير شرف الدين الذى وقع عندئذ (فى بداية ١٢٦١م) فى الأسر على يد الصليبيين ، استبقاه السلطان لإخوته[١٨].

والمقريزى فى ١٢٦٥م . يستشهد بنص مرسوم بيبرس الخاص بتوزيع الإقطاعات على الأمراء فى الريف والقرى (أحيانا نصف هذه القرى) التى تقع حول المناطق التى تم نزعها من الصليبيين فى قيسارية وأرسوف ؛ علاوة على أنه يؤكد على الطبيعة الوراثية لهذه الأوضاع [١٩].

وإعادة توزيع الإقطاعات بالشكل الوراثى ترجع للعادات الموجودة الخاصة بأمراء المماليك الكبار (أولاد الناس) الذين لايمكنهم أن يرثوا وظائف آبائهم وبالتالى إقطاعاتهم (٢٠) . فكما نوهنا سابقا ، كانوا يدخلون أحيانا فى تكوين الحلقة وأحيانا كانوا يستثنون من الشريحة الحربية ، فقد كانت صفوف أمراء المماليك تكتمل – على الأغلب – عن طريق شراء السلاطين لمماليك جدد(٢١).

والمصادر تتضمن الكثير من الإشارات إلى هذه الحقائق ؛ فعندما يتم عزل أميرما أو تحدث له الوفاة ، فإن إقطاعه كان يُعاد توزيعه على الآخرين ، وكان المحاربون يتعرضون لفقد إقطاعاتهم إذا ما ارتكبوا الأفعال الحقيرة(٢٢) .

وفى العهد المملوكى المبكر ، تعرض اصطلاح «الإقطاع» لبعض الوقت ، لكونه غير شرعى مدللين على ذلك بأن تلك الضرائب والدخول التى تجرى على إعاشة المحاربين لم ترد فى الشريعة ، والمقريزى يكتب عن هذا منوها بحرمة الإقطاعات التى كانت قائمة على الضرائب المدفوعة من قبل التجار ، أثناء حديثه عن (١٢٦٤م) (٢٣) .

وكما أوضحنا سابقا ، فإن بيع الإقطاعات كان ممنوعا ، فعندما علم السلطان الناصر محمد عن بيع مجموعة كبيرة من المماليك المصريين لإقطاعاتهم ، احتدم غيظا وأمر بإجراء تحقيق معهم ووقع العقاب الصارم عليهم ، وذلك بنفى المئات منهم إلى كرك البعيدة(٢٤) . وكما قدمنا ، فإن البدو والترك العاملين فى وظائف الحكومة المملوكية كانوا يتسلمون إقطاعات ، بل إنه من المعروف أيضا أن بيبرس قد أكد حق البحتوريين اللبنانيين فى إقطاعاتهم التى سلمها الأيوبيون لهم ، وكلفهم بمساعدة المماليك فى نضالهم ضد الفرنجة ، ولكن السلطان قلاوون قام بالقضاء على ممتلكات البحتوريين وآخرين من زعماء الجبال فى لبنان ، وتحولت ممتلكاتهم إلى احتياطى لأراضى فرق الحلقة المقيمين فى طرابلس بعد استردادها من الصليبيين .

ولكن خلفاء قلاوون أسسوا فرقا للحلقة من بين البحتوريين أنفسهم ، وأعادوا إليهم إقطاعاتهم القديمة ، وهذه كانت ظاهرة استثنائية.(٢٥) .

ونجد أيضا عند المقريزى حكايا تفصيلية عن « سليمان بن مهنّى أمير قبيلة

الفضل البدوية السورية فى (١٣١٥ – ١٣١٦م .) وكان * قد شق عصا الطاعة ، فعوقب بانتزاع إقطاعه ، فقام بسلب قريتين وتوجه إلى العراق . غير أن سوء التفاهم سرعان ما تم تلافية ، وعاد بن مهنى هذا وعاد إليه إقطاعه ولقبه كأمير ، ومنح فوق ماكان لديه قرية فى غوطة دمشق « لأنه كان لديه أطفال »(٢٦) .

وكان هناك على سواحل كسروان في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر ، إقطاع لعشيرة تركمانية من بنى عساف ، كانت ملزمة بمراقبة المارونيين التابعين (٢٧) .

وينبغى الانتباه أيضا إلى أن السماح لأقسام محددة من الجيش المصرى فى التواجد فى القلاع السورية ، كان يتم فقط وفقا لشروط ضمان الممتلكات الإقطاعية لكل المماليك ، غير أن سلاطين المماليك تقريبا لم يتوجهوا إلى سوريا(٢٨) .

وتنظيم كفالة المماليك السلطانية ، يدل على البعث الجزئى لمبدأ التوزيع المركزى للريع الإقطاعى فى عهد السلاطين الأوائل من السلالة البحرية ، فمن بين ٢٤ قيراطا مصريا ، كان السلطان يختص بأربعة قراريط فى نهاية القرن الثالث عشر (٢٩) . ينفق منها على إعاشة مماليكه الخاصة إلى جانب حاشيته أيضا ، وبمقتضى مايقدمه المقريزى من سجلات الجيش المملوكى التى تتعلق ببداية القرن الرابع عشر ، فإن الأمراء كانوا يأملون أن يمتلكوا إقطاعات لايملكها إلا قواد المماليك السلطانية (٣٠)

وكان جنود المماليك السلطانية شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الكبار ، يتسمون شهريا من الخزانة رواتب نقدية ويعطون منحا عينيه ، وذلك كما يكتب ناصر

* . . . وقدم البريد بخروج سليمان بن مهنىّ عن الطاعة ونهبه القريتين وتوجهه نحو العراق من أجل خروج إقطاعه عنه فكتب إلى مهنى فى ذلك فأجاب بأنه خارج عن طاعته.. وقدم ابن لمرحل بموسى بن مهنى . وأعيدت الإمرة لمهنا وزيد إقطاعه مائتى ألف درهم وأعيد إقطاع فضل إليه على عاداته قبل الامرة من أجل أولاده. المقريزى سلوك ٢جـ ١ ص١٢٨، ١٢٩، ١٤٥، وفى ٢جـ ٢ص ٢٧٤ ورد الآتى أيضا :فلم يشعر الأمير تنكز (نائب الشام) إلاومهنى قد قدم عليه .. ثم سيّره إلى السلطان .. فسر السلطان بذلك وخلع عليه وعلى من معه مائة خلعة ورد إليه إمرته وزاد فى إقطاعه .

خسرو[٣١] . كانوا فى كل يوم يتسلمون الخبز واللحم وزيت الزيتون والشعير لعلف خيولهم ، ويتسلمون الملابس والحلوى مرة كل عام فى شهر رمضان [٣٢] . ويتضح هذا مما كان يحتاجه السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى من الحبوب له ولمماليكه الخاصة ، فقد بلغ ١٤٠ ألف إردب[٣٣] .

وما أحدثه مماليك السلاطين الأوائل من إعادة تقسيم أراضى «الروك» يدل على سعيهم المتواصل نحو استعادة احتياطى أراضى الحكومة لهم شخصيا ، وهذا على عكس ما كان عليه الحال حتى بداية العصر الأيوبى ، حيث كان «الروك» يدل على إعادة تقسيم الأراضى الحكومية بين الملتزمين ، أما فى العهد المملوكى ، فإن «الروك» قد صار يعنى إعادة توزيع الأرض بين السلطان وأصحاب الإقطاعات .

وإعادة التوزيع هذه كانت تتم فى العهود السابقة لتحديد المساحات التفصيلية للأرض التى تنضم فى كل عام الى مساحة الأرض المزروعة ، وذلك بهدف تقدير الخراج المستحق عليها ؛ وكانت هذه القياسات أيضا تتم فى مصر فى العصور الوسطى ، عندما كان فيضان النيل ينحسر عن الحقول ، وقد حدثت إعادة التقسيم .

هذه فى مصر فى عهد سيطرة المماليك الأتراك كله مرتين ، واحدة فى بداية ١٢٩٨م، وتسمى (الروك الحسامى) والأخرى فى نهاية ١٣١٥م وبداية ١٣١٦م ، وتسمى (الروك الناصرى) وكانت المرة الأولى تختلف عن المرة الثانية من حيث الموعد السنوى[٣٤] . غير أن هذه القياسات فى أحسن الظروف استطاعت أن تخدم بواعث إعادة التقسيم فى ذلك الوقت ، والأسباب الحقيقية لهذه القياسات فى العهد المملوكى قد اختفت فى الوضع المعقد للسياسة الداخلية لهم .

فى سبعينات القرن الثالث عشر ، نشبت صراعات إقطاعية داخلية بين الجيش المصرى ؛ فبعض الأمراء قد هبوا ضد كرم السلطان : السعيد ناصر الدين نحو مماليكه « وزحفت العقارب الخبيثة* » وتوجه الأمراء الغاضبون فى حملة إلى أرمينيا الصغرى ، وقرر السلطان إرسال مماليكه لإرجاعهم من سيس إلى السجون ونزع إقطاعاتهم ، لكن الأمراء الذين علموا بهذا رفضوا العودة مرة أخرى إلى مصر»[٣٥] .

★ ... وتنافر النائب والمذكور (الأمير لاجين الزينى – المترجم) فتوغرت بينهم الصدور ودبت بينهما عقارب الشرور . المقريزى سلوك ١ جـ ٢ ص ٦٤٥ .

ولم نعرف كيف انتهى هذا الصراع . لكن المقريزى يقول : إن الأمراء قد صاروا يستولون على إقطاعات الحلقة ويضمونها إلى ممتلكاتهم فى السنوات التالية* :
«والأمراء استولوا لأنفسهم على إقطاعات كثير من المحاربين ولم يمسهم من جراء ذلك شيء ، وهذه الأملاك قد انتقلت تحت إشراف دواوين الأمراء ، بل إنهم ضموا إلى مخابئهم الأوغاد وقطاع الطرق ، وقاموا هناك بالتمردات والفتن وحالوا دون جمع الضرائب ، وابتزوا أموال الحكومة »(٣٦) .

والسلطان المنصور حسام الدين لاجين (١٢٩٦ – ١٢٩٨م .) توجس خيفة – دون أدنى سبب – من أنصار السلاطين المخلوعين السابقين : خليل (١٢٩٠ – ١٢٩٣م .) ، وصغير السن الناصر محمد (١٢٩٣ – ١٢٩٤م .) وكتبغا (١٢٩٤ – ١٢٩٦م .) بالرغم من أن تهديدات الاقتحام الجديد للمغول المتحالفين مع حكام أرمينيا الصغرى صارت حقيقية ، وفى ذلك الوقت ، أى فى بداية ١٢٩٨م. تم الإعلان عن إعادة تقسيم الأرض .

وطبقا لقرار السلطان ظلت ممتلكاته الخاصة كما كانت فى التوزيع السابق ، وصار للأمراء والمحاربين ١١ قيراطا ، والباقى وهو ٩ قراريط من أجود الأراضى ، تم تخصيصها لإعاشة الجيش الجديد الذى سيصير الركيزة الأساسية للاجين(٣٧) .

غير أن هذه القوات الجديدة لم يتم إنشاؤها ، إذ إنه لا توجد أى أخبار عن شراء السلطان لاجين لماليك جدد أوتجنيد مأجورين فى أى من المصادر ، ومن الصعب افتراض شكل وجودها ، إذ إن مكانها فى خطط المقريزى ، نجد توضيحا عن إقطاعات المحاربين (٣٨)، وفى السلوك للمقريزى يتم الكلام عن التعويضات البديلة للوظائف(٣٩) .

ونقصت أملاك الحلقة والأمراء بدرجة محسوسة طبقا لهذا التقسيم ، علاوة على أن السلطان حاول إجابة مطالب الحلقة على حساب الأمراء ، وتتضمن المصادر

* وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعيات الأجناد فلايصل إلى الأجناد منها شئ ويصير ذلك الإقطاع فى دواوين الأمراء ، ويحتمى بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات ، ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميهم ومضرة على أهل البلاد التى تجاورها (المقريزى – خطط ١ ص ١٦١)

تفاصيل هامة عن إنجاز هذا الإصلاح ، فنجد عند المقريزى فى السلوك بعد روايته لحكاية عن غضب الأمراء تتعلق بإقطاعات الحلقة ، «* والسلطان أوقف كل هذا وأعاد كل الإقطاعات لمالكيها وأخرجها من دواوين الأمراء » (٤٠) .

وينبغى الانتباه إلى أن القصة المشابهة لهذه الحكاية فى خطط المقريزى تنتهى بهذه الكلمات «وكانت هذه الاقطاعات** المستولى عليها مسلوبة من الأمراء وهكذا انتهت هذه الحماية »(٤١) ، ويعتمد بولياك على الترجمة الحرفية لهذا المصطلح المأخوذ من المقريزى ، وربما باستخدام كلمات المصطلحات الإدارية فيحدد «الحماية» : بأنها رعاية الشخصيات القوية ، مما يعنى أن أمراء المائة كانوا يرعون أو (يحمون) مصالح المحاربين فى فرقهم، وهذا ما يبدو من رأى بولياك الذى يعتبر أن الأمراء كانوا يشرفون على ممتلكات الخاضعين لهم نظير مكافأة محددة (٤٢) إلا أن نص المقريزى لايدل على وجود أية إدارة تطوعية للإقطاعيين لمن هم أدنى منهم درجة وأن «الرعاية الحقيقية» لايمكن أن يدور عنها الحديث فى ذلك العصر ، بل إن «الحماية فى حقيقتها كانت هى الاغتصاب المباشر من الرؤساء الإقطاعيين لأراضى المحاربين .

ونجد فى السلوك وصفًا تفصيليا لاحتفال بتوزيع السلطان مستندات الملكية على الأمراء بإقطاعات منقوصة . وإلى جانب هذا فإن المقريزى يلاحظ *** «صار واضحا للسلطان أن وجوه الأمراء قد انقبضت بسبب نقصان مقدار « عبرهم » وطموحهم فى

* ... فأبطل السلطان ذلك وردتلك الإقطاعات على أربابها وأخرجها بأسرها من دواوين الأمراء . خطط ١ ص ١٦١

** ..... فبطلت الحمايات خطط ١ ص ١٦٢

*** . وتولى تفرقة المثالات على الأمراء والمقدمين السلطان فبان له فى وجوههم التغير لقلة العبرة وهم بزيادتها فمنعه منكوتمر من فتح هذا الباب وضرره ... وكانت الإقطاعات قد تناقصت عما كانت عليه فى الدولة المنصورية، قلاوون فان أقلها كان يتحصل منه عشرة آلاف درهم وأكثرها ينيف على ثلاثين ألفا فصار أكثرها يبلغ عشرين ألفا ، فعمل فى هذا الروك أكثر الإقطاعات يتحصل منه عشرة آلاف فشق ذلك على الأجناد وتجمعت طائفة منهم ورموا مثالاتهم وقالوا « إنا لم نعتد بمثل هذا الظلم فإما أن تعطونا ما يقوم بكفايتنا وإلا فخذوا أخبازكم ، وإما نخدم الأمراء أو نقيم بطالين فحنق منهم منكو تمر وأمر الحجاب فضربوهم وأخذوا سيوفهم وبالغ فى الفحش . المقريزى سلوك ١ جـ ٣ ص ٨٤٦

ووردت عند ابن تغربردى باختلاف طفيف فى بعض الكلمات ولكن بنفس المعانى تقريبا : نجوم ٨ ص ٩٤ - ٩٥ (المترجم)

زيادتها ويقول المقريزى عن محاربى الحلقة «تقلصت إقطاعاتهم عما كانت عليه فى عهد السلطان منصـــور قـــلاوون ، عندمـــا كـــان أقلهم يتكسب عـــشـــرة آلاف درهم وأكبـرهم كان يتكسب عشـرين ألف وبمقتـضى هذا الروك فـإن قيـمة مـعظم الإقطاعات كانت لاتساوى إلاعشرة آلاف درهم ، مما سبب غضب المحاربين فـألقى بعضـهم بمستنداتهم وقـالو نحن لانوافق على هذا ، فـإما أن تعطونا مـايكفينا وإما سنقوم باغتصاب منحكم ، وهل نحن سنعمل مع هؤلاء الأمراء أم سنظل جميعا بدون عمل (٤٣) .

وتعرض هؤلاء الفرسان للعقاب البدنى بأمر من نائب السلطان «منكوتمر» ، وتم إلقاؤهم فى السجون لبعض الوقت ، واضطر بعضهم للهرب من مصر وتوجهو إلى ملاجئ الهولاكيين ، وعملوا فى بلاط جازان خان (٤٤) . وقام البعض منهم بمؤامرة فى نفس العام كان من نتائجها قتل السلطان ونائبه منكوتمر ، أما الأمراء فقد ضموا لممتلكاتهم أراض من التسعة قراريط المنتقاة التى كانت مخصصة للسلطان (٤٥) .

والهدف الرئيسى من (الروك الحسامى) لم يبلغ غايته المستهدفة . وفى نفس الوقت فإن مبادئ الإصلاح القائم فى جوهره على المركزية ليدل على سعى السلطان لتحجيم القدرة الاقتصادية للأرستقراطية الحربية ، فالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ذلك الشاب القوى العزيمة ، الطامح خلال اعتلائه العرش للمرة الثالثة فى ١٣٠٩م . لتقوية وضعه وذلك عن طريق استعادة ملكية الأراضى الحكومية خلال قيامه بإعادة التقسيم ، حيث كان واضحا للعيان التهديدات التى يقوم بها الغزاة المغول خلال هذه الأعوام ، ويشهد المؤرخون على أن السلطان كان ينوى إضعاف قدرة الأوصياء السابقين عليه وهم من الأمراء كبار ملاك الأراضى : سالار ، وبيبرس ، وجا شنجير ؛ وكانوا من المعادين لمماليكه الخاصة (٤٦) . وربما كان السبب الرئيسى فى إعادة التقسيم هذا يكمن فى رغبة السلطان فى تلافى حدة الصراع الطبقى ، عن طريق خفض معدلات الاستغلال الإقطاعى فى مثل تلك الظروف ، مع أنه لاتوجد معلومات كافية وصريحة تتردد عن هذا فى مصادرنا .

وإعادة التقسيم ذى الطبيعة المركزية على يد الناصر محمد الذى قام به فى نهاية ١٣١٥وبداية ١٣١٦م صار واضحا تمام الوضوح فمن بين ٢٤قيراطا مصريا، صار للسلطان ١٠ قراريط (وكان قبل ذلك ٤ قراريط) واستعاد لنفسه أراض كانت مباعة للخزانة قبل هذا ، مبقيا لأمراء الحلقة وغيرهم ١٤ قيراطا ، والمصادر غير واضحة فى

تقديم نسب التوزيع هذه .

أما عن وصف إجراءات إعادة التقسيم فإن المقريزى يعدد ضياع الأمراء القواد بمساحاتها التفصيلية متضمنة أرقام قيمة النخل فى كل دائرة ، وعدد الفدادين فيها وقدر عبْرتها (خراجها) وما يقدم للمحاربين على شكل نقود أو حبوب أو دجاج أو خراف أو برسيم أو أية أطعمة أخرى سواء كانت من دقيق القمح أو اللبن الرائب أو العدس أو الخبز (٤٨) .

ويتحدث المقريزى عن الظاهرة الطبيعية فى تفتيت الإقطاع الواضحة لنا فيما سبق من العهد الأيوبى واصفا إياها بأنها أعمال خبيثة من الموظفين الأقباط الذين يعدون مستندات ملكية الإقطاعات «وارتكب* هؤلاء القبط المكائد المختلفة قاصدين إضعاف الجيش المصرى ، ففرقوا الإقطاع الواحد إلى عدة أجزاء وأحيانا يكون جزء منه فى الصعيد والثانى فى الشرقية والثالث فى الغربية وكل هذا الإقطاع يخص محاربا واحدا مما يضاعف متاعبه» (٤٩) .

وكان الكثيرون من أجناد الحلقة مستائين من حصولهم على إقطاع أقل مما كان لديهم سابقا ، إلا أن كل مظاهر السخط هذه ، قوبلت بصرامة ، ويحكى المقريزى كيف أنه بعد إعادة التقسيم هذا ، عندما توجه الناصر محمد لصيد الكراكى ، فى ضواحى القاهرة ، حاول واحد من ظرفائه السخرية من فرسان الحلقة ؛ وبسبب هذا ، وبمقتضى أمر السلطان تم ربطه بأحد قواديس الساقية التى ظلت تدور به لمدة ** ساعتين دون

* « ومكر الأقباط فيما أمكنهم المكر فيه ، فبدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر ، ففرقوا الإقطاع الواحد فى عدة جهات ، فصار بعض الجبى فى الصعيد وبعضه فى الشرقية وبعضه فى الغربية ، إتعابا للجندى وتكثيرا للكلفة» – المقريزى خطط ١ ص ١٦٥

** وغُبن فى هذا العرض أكثر الأجناد فإنهم أخذوا إقطاعات دون التى كانت معهم ، وعندما نزل السلطان إلى البركة لصيد الكركى ... فدخل من يقال له عزيز ومن عاداته الهزل قدام السلطان والمزح معه .... وتمادى عزيز لشؤم بخته فى الهزل وقال : وجدت جندى .... من جند الروك الناصرى وهو راكب إكديس وخرجه ومخلاة فرسة ورمحه على كتفه ، وأراد أن يتم الكلام فاشتد غضب السلطان وصاح فى المماليك عروه ثيابه فللحال خلعت ... وربط مع قواديس الساقية وضربت الأبقار حتى أسرعت فى الدوران ، وعزيز تارة ينغمر فى الماء وتارة يظهر وهو يستغيث وقدعاين الموت والسلطان يزداد غضباً ، فلم تجسر الأمراء على الشفاعة فيه حتى مضى نحو ساعين وانقطع حسه ... فتقدم إليه الأمير ... وقال : ياخوند هذا المسكين لم يرد إلا أن يضحك السلطان ويطيب خاطره ولم يرد غير ذلك ومازال به حتى أخرج الرجل وقد أشفى على الموت وقام بنفيه من أرض مصر .. فحمد الله سبحانه وتعالى الأمراء على سكوتهم وتركهم الشفاعة فى تغيير «مقالات» الأجناد . المقريزى سلوك ٢ جـ ١ ص ١٥٦ – ١٥٧

انقطاع فيغطس فى الماء تارة ويرقى أخرى ثم ينتكس والماء يمر عليه إلى أن انقطع حسه وأشرف على الهلاك ، وقليل البخت هذا نجا من الموت بصعوبة (٥٠) . (أيضا هذا الوصف فى الخطط جـ ١ صـ ١٦٧) (المترجم) .

والحديث يدور أيضا عن بعض المماليك السلطانية أثناء توزيع الهبات النقدية ، البديلة عن رُقع الإقطاعات ، والذين ظلوا يتسلمون كما فى الماضى المنح والجرايات من الخزانة(٥١) . غير أنه لاتوجد أسباب تؤكد هذا بشكل قطعى ، مما حدا ببعض الباحثين(٥٢) أن يعتقدوا أن دخول العشرة قراريط المنوه عنها سابقا كانت تنفق بشكل كامل على المماليك السلطانية وعلى البلاط السلطانى وذلك طبقا لسجلات ١٣١٥ م .

وفى ١٣١٥ - ١٣١٦م، تم جمع الكثير من الضرائب غير القانونية (مكوس) من كافة أنحاء االبلاد ومقدار هذه الضرائب كما يبدو كان يعتمد مباشرة على إعادة تقسيم الأرض ، فكانت هذه المكوس ضرورية جدا ؛ نظراً لاستهتار الموظفين فى جمع الضرائب ، والضرائب الملغاة التى كانت تجبى من الفلاحين الناقلين غلالهم عن طريق النيل إلى بولاق ، ومن سماسرة التجار ، ومن رؤساء أسواق المدينة كان «على كل واحد أن يدفع ماعليه وإلا فبتعبير المقريزى يُرْمَى به فى طرفة عين داخل السجن ، وكانت تجبى أيضا من الأشخاص الذين يتاجرون فى الكتاكيت وممن يزرعون قصب السكر أو يقومون بعصره أو تحويله إلى سكر ، ومن المسافرين بالمراكب على النيل ، ومن أصحاب المطاعم الصغيرة ومن أعراس المتزوجين ... إلخ . وكان كل هذا يحدث فى نفس الوقت الذى يتم فيه الكلام عن إلغاء كثير من الضرائب ، مماجعل كثير من المؤرخين يعتبرونها ظاهرة غير عادية وهم يحكون عنها بالتفصيل فى مؤلفاتهم. (٥٣) . وبعض بنود هذه الدخول (من المكوس) حتى إعادة التقسيم - كما ألمحنا سابقا - كان يوزع بمثابة إقطاع على الأمراء وعلى أجناد الحلقة ، وبكلمات المقريزى عن الضرائب المأخوذة عن الحبوب والمنوه عنها «كانت* إتاوة كإقطاع لمحاربى الحلقة (الرَّبعِيَّة)

* وكانت هذه الجهة مقطعة لأربعمائة من أجناد الحلقة سوى الأمراء ومتحصلها فى السنة أربعة آلاف وستمائة ألف درهم ، وإقطاع الجند منها من عشرة آلاف درهم فى السنة إلى ثلاثة آلاف وللأمراء من أربعين ألف إلى عشرة آلاف .. واقتنى منها المباشرون أموالا عظيمة .

(المقريزى سلوك ٢ هـ ١ ص ١٥٠)

ولا يأخذ منها الأمراء .

وكان هذا البند من الدخول يكون حوالى ٤٦٠٠ ألف درهم يأخذ منها إقطاع الأجناد ما بين ثلاثة آلاف وعشرة آلاف درهم فى السنة ، أما الأمراء فيأخذون مابين عشرة آلاف وأربعين ألف درهم فى السنة[٥٤] ، وأما الضرائب الأخرى فكانت تذهب لضمان حياة بعض المقطعين[٥٥] .

والأسلوب الوحيد لضمان حياة كل الفرسان كان من الممكن أن يكون فقط فى تخصيص أراض لهم « وقضى * هو - (الناصر محمد - المؤلفة) على بعض بنود الضرائب الغير قانونية وصارت كل الإقطاعات دوائر[٥٦] . هكذا كتب المقريزى ، والمصادر لاتتحدث بالذات عن أى أنواع الأرض كان يجرى اختيارها لتكون إقطاعات جديدة ، وبلا جدال ، فإن العشرة قراريط السلطانية لم تستطع أن تبقى دون انتهاك ، وعلى كل فإن الأراضى التى تم نزعها من الأمراء : بيبرس ، وسالار ، والمقربين إليهما كان يتم توزيعها كإقطاعات[٥٧] والتقليص الحقيقى للأراضى العامة أدى بالضرورة إلى تقليص الدخول السلطانية الخاصة مما تشير إليه أعمال السلطان «الناصر محمد نفسه بعد إعادة التوزيع الذى كان يتجه نحو ضمان ممتلكات قطاعات مماليكه الخاصة ولايعتمد على أسلوب التوزيع المركزى للريع .

ويكتب المقريزى عن توزيع إقطاعات لبعض محاربى الحلقة (١٣٢٠ - ١٣٢١م.) (على بعض الذين كانوا يعيشون قبل ذلك على الرواتب[٥٨]) . وطبقا لأخباره عن (١٣٤٠- ١٣٤١م.) فإن للناصر محمد قد استدعى محاربى الحلقة من أقاليم مصر وأقام لهم استعراضا ، بعد أن نزع إقطاعاتهم وأعاد توزيعها على المماليك السلطانية** [٥٩] ، ومادامت المصادر مازالت تنوه من جديد - فى وصف حوادث السنوات التالية - عن أجناد الحلقة المصريين كأصحاب إقطاعات ، فإنه لا يوجد أى أساس للافتراض بأن هذا النوع من الإقطاعيين كان قد تم القضاء عليه نهائيا منذ

* وأبطل عدة جهات من المكوس وصارت الإقطاعات كلها بلادا (المقريزى . خطط ٣ ص ٥٦)

** فرق الإقطاعات على المماليك السلطانية وأرضى الجند بكل ما يمكن» - (ابن إيـاس: جـ ١ - قسم أول ص ٥٢٠)

عصر الناصر محمد، وما يقوله إبن إياس ، هو فى غاية الأهمية ، فهو ينص على أن السلطان الناصر حسن، وهو من الأحفاد المقربين إلى الناصر محمد ، قد قدم للمماليك السلطانية أملاكا .إقطاعية أثناء توليه العرش للمرة الأولى فى ١٣٤٧م «وسايرهم بقدر الإمكان(٦٠) .

وينبغى الانتباه إلى أن إعادة توزيع الأرض ، قد جرت أيضا فى سوريا ، فى عهد الناصر محمد ، ولكن الحقائق فى المصادر عن توزيع الأرض في سوريا فى العهد المملوكى الأول ، أفقر من مثيلاتها فى مصر(٦١) .

ومعروف أن الأراضى السلطانية الداخلة في عداد أراضى السيادة ضمت إليها قلعة كرك وأقاليمها في عهد بيبرس فقط ، وذلك بعد إخضاع الاسماعيلى : مسعف ، وفي عهد قلاوون تم ضم بعض أملاك أحفاد الأيوبيين في إقليم دمشق إلى الأراضى السلطانية(٦٢) . وينبغي هنا الافتراض بأن الممتلكات السلطانية في سوريا كانت قليلة الأهمية عن مثيلاتها فى مصر .

وإعادة التقسيمات فى الأقاليم السورية بدأت فى ١٣١٣م. وانتهت فى ١٣٢٥م. (٦٣) . ونتيجة لإعادة هذه التقسيمات انتقل إقليم طرابلس إلى الخزانة السلطانية ، وكان به إقطاعات لستة من الأمراء مجتمعين ، وثلاثة من أمراء العشرة (٦٤) وبعض أراضى الإقطاعات في إقليم دمشق صارت ضمن أراضى السيادة(٦٥) .

وكما يبدو فإن زيادة الأملاك الحكومية فى سوريا لم تكن ذات أهمية خاصة . وإذا وضعنا فى الاعتبار أن إلغاء الضرائب غير القانونية (المكوس) تم إعلانه فى سوريا(٦٦) . أيضا ؛ وكانت له – على الأرجح نفس العواقب التى حدثت فى مصر . فمن الممكن أن نزعم أن نوع الإقطاع في سوريا ظل دون تغيير ؛ بصرف النظر عن إعادة توزيع الأرض وإعادة تملكها .

ولهذا ينبغى الإشارة إلى أن هناك ميلا ما نحو تزايد أراضى «الملك» بالرغم من أنه لم يتضح فى مصادرنا . وهذا النوع من الأرض .. كما أسلفنا ظل قليل الأهمية . والمقريزى يخبرنا أنه تم جمع ضرائب على قطع من الأرض من هذا النوع «الملك» فى مصر والقاهرة(٦٧) . وتبدوا أراضى «الملك» السورية – فى وصف إعادة التقسيم -

كانها خاضعة للجرد شأنها فى ذلك شأن الأنواع الأخرى من الأرض(٦٨) ومن الممكن أن تكون أراضى الملك هذه ، هى ما يعنيه المقريزى فى هذين الخبرين ، حيث يدور الحديث فى أولهما عن ابتزاز الأموال عدة مرات من ملاك الضياع المصريين (١٢٥٢-١٢٥٣م.) وفى ثانيهما عن أرباب «الأكارات» (الضياع) السوريين (١٣٠٠م)(٦٩) .

وإلى جانب هذا ، فإن المصادر تقدم بعض المعطيات المتواضعة جدا عن هذا الشكل من الملكية الإقطاعية كاستئجار ، ومنها يتم التنوية خاصة فى سرد مصادر مداخيل الأمير سالار ، الذى يقدمه مؤرخ الفترة المملوكية الأخيرة : ابن إياس وهو وارد تحت عام ١٣١٠ - ١٣١١م وفى هذا السرد ظهر مصطلح «المستأجرات» الذى يدل على دخول من نوع الأداء الإيجارى .

وفى مقدمة هذا السرد يوجد اصطلاح «أجرة الأملاك» (٧٠) . وبما أن مصطلح أملاك (وهى جمع ملك - المؤلفة) يعنى فى مصادرنا : كل من يدير أملاكا مدينية ثابتة دكان - خان أو محل فى السوق - حمام ... ، لذا فإن هذا المصطلح يدل تماما على المداخيل الآتية من إيجار العقارات المدينية ، وبهذا يصبح التفسير الأكثر اقناعا لاصطلاح « المستأجرات» هو كونها مداخيل من إيجارات الأراضى المصرية المعروفة فى الأرياف البعيدة .

غير أن هناك نوعا ما من الإيجارات يظل غير معروف بشكل واضح هنا ، وربما كان الحديث متعلقا بالمداخيل الواردة عن إيجار أراضى أحد الإقطاعيين التى قام بتأجيرها للفلاحين (٧١) ؛ وربما يكون الحديث عن مستأجر متميز عند أحد الإقطاعيين. ومن المؤسف أن مصادرنا لاتحتوى على تفصيلات كثيرة عن هذا الموضوع ، لكن - وبدون أدنى شك .. فإن إيجار الأراضى فى مصر فى هذه الفترة كان يتم تحت سيطرة الإقطاع ، وكان لايمثل ظاهرة ذائعة الانتشـــار . وظـل الجوهر الاقتصـادى لهـذة « الدفوع الإيجارية » على كل حال يتمثل فى الريع الإقطاعى .

وجملة القول ؛ فإن تطور الممتلكات الإقطاعية فى العهد المملوكى المبكر ؛ كان مرتبطا بصراع أسلوبين مختلفين لاستغلال المنتجين المباشرين . . واتجه التطور نحو توطيد الشكل الإقطاعى المتقدم والأكثر تطورا» فالمصادر حتى منتصف القرن الرابع عشر ، لم تشر إلى أى توسع فى صلاحيات المقطعين : فتطبيق مبدأ تبادل وبيع المقطعين العاديين لإقطاعاتهم لم يتم قط إلا فى بداية هذا الوقت .

« بعد موت* السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١٣٤١م – المؤلفة) – كتب المقريزى – ظهرت عادة بيع إقطاع محاربى الحلقة للآخرين نظير مبلغ محدد ، أو تبادل هذا الإقطاع مع إقطاع آخر ، وظهر من بين هذه القوات معظم الناس العاملين في الحرف ، وصار العامة والناس الأراذل يمتلكون إقطاعات (٧٢) .

من الممكن أن يكون السلطان نفسه ، هو الذى سهل عملية انتقال إقطاعات الحلقة لأيدى أولاد البلد ، « وفى هذا** العام (١٣٦٤م – ١٣٦٥ – المؤلفة) اندفع السلطان : الكامل سيف الدين شعبان ، بتهور نحو نزع كثير من الإقطاعات نظير مبالغ محددة (٧٣) .

ويخبرنا ابن إياس وابن تغريردي « أنه في زمن الطاعون الأسود ١٣٤٨م ، انتقلت إقطاعات الحلقة للناس العاديين والحرفيين بما فيهم الخياطين وصانعي *** الأحذية»(٧٤) .

وفيما بعد صارت الصفقات المشابهة ظاهرة عادية «منذ زمن الأمير سيف الدين قيلاى – النائب السابق للسلطان (٧٥) . في السنة الثالثة والخمسين (١٣٥٢ -١٣٥٣م – المؤلفة) **** صار المحاربون يبيعون ويشترون الإقطاعات دون أى قيد ، والتجار والناس الحرفيون قد امتلكوا إقطاعات» .. هكذا كتب المقريزى (٧٦) .

* فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون حدث بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن إقطاعه لآخر بمال ، أو مقايضة الإقطاعات بغيرها . فكثر الدخيل فى الأجناد بذلك ، واشترت السوقة والأراذل الإقطاعات حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات ، وخربت منهم أراضى إقطاعاتهم (خطط – ٣ ص ٥٩)

** وفى هذه الأيام ٧٤٧ هـ طاش الملك الكامل وصار يخرج من ديوان الجيش الإقطاعات بقدر معلوم من المال ، ويدخله إلى الذخيرة (ابن اياس جـ ١ قسم أول ص ٥٠٨)

*** وأخذ كثير من العامة إقطاعات حلقة .. وكان الإقطاع الواحد يصير من واحد إلى واحد ... فأخذ إقطاعات الأجناد أرباب الصنائع من الخياطين والأساكفة .(ابن اياس جـ ١ قسم أول- ٥٤٨

**** فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قيلاى فى سنة ثلاث وخمسين (١٣٥٢ – ١٣٥٣ م) مشى أحوال الأجناد فى المقايضات والنزولات ، فاشترى الإقطاعات الباعة وأصحاب الصنائع (خطط ٣ – ص ٥٩)

وتزايدت حوادث بيع وشراء الأرض إلى الدرجة التي «* ظهر حوالي ثلاثمائة سمسار ، صاروا يشجعون الحرفيين ويحملونهم على التنازل عن إقطاتهم أو تبادلها ، ويأخذون منهم نظير ذلك مائة درهم من كل ألف »(٧٧) .

وكان هذاهو السبب فى إنشاء إدارة خاصة ؛ لإعطاء الشكل النهائي لمثل هذه الصفقات تسمي (ديوان البدل) وكانت قائمة الأسعار المحددة يتم عليها التصديق من الوزير - ومحاولة قائد المماليك السلطانية شيخون العمرى في تقليص عمليات بيع وتبادل الإقطاعات ، لم يتيسر لها النجاح (٧٨) .

وعلى قدر ما نعرف فإن الممارسة العملية في مصر ، في بيع الخزانة للأراضى منذ الغزو العربي لم تجتذب إليها أبدا أراض تستحق الاعتبار ، وبالتالي ، فإن بروز هذه الممارسة العملية في مصر في العهد المملوكي ؛ كان مشروطا بنمو التجارة الخارجية ، وتحرير الحرف ، في ظل غياب أي مجالات أخرى لاحتواء هذه الثروات المتراكمة بمثل هذه الصورة .

وكانت الإقطاعات الواقعة تحت أيدى الملاك الجدد تتفتت بالوراثة ، فاقدة بذلك طبيعتها الطبقية الخاصة المتعلقة بالوظيفة الحربية ؛ واقتربت بذلك تماما من الملكية الإقطاعية للأرض .

وبسبب هذا ومنذ منتصف القرن الرابع عشر ؛ ظهر عامل من العوامل التي حدّت من تطور الإقطاع المصرى : فتشكل وازدهار نظام الإقطاع تقابل مع مرحلة التدهور التي أدت إلى نمو أكثر أشكال الملكية الشخصية الإقطاعية تطورا .

غير أنه لافى القرن الرابع عشر ولابعده ؛ في عصر اتساع صلاحيات ملاك الأراضى ، استطاع الإقطاعي المصرى أن يتحول إلى شبيهه من إقطاعي أوروبا وذلك بسبب النظام الاقتصادى المكتفي بذاته ، الضعيف الارتباط بالعالم الخارجي وظلت مصر في العصور الوسطى لاتعرف الانقسام النوعي وبقيت بلدا للإقطاع المركز ، وبدون شك ، فإن هذا كان مرتبطا ، في ذلك العصر ، بالمحافظة على العلاقات القائمة علي النقود السلعية وبتواجد المدن القديمة التي لم تكن فقط مراكز للحرفيين وللحياة التجارية بل كانت أماكن تركز الإقطاعيين وهذا ما سنتكلم عنه فيما بعد .

* وانتَدبَ لذلك جماعة عرفت بالمهيسين ، بلغت عدتهم نحو الثلثمائة مهيس ، وصاروا يطوفون على الأجناد ويرغبونهم فى النزول عن إقطاعاتهم أو المقايضة بها ، وجعلوالهم عن كل ألف درهم مائة درهم . (خطط ٢ ص ٥٩)

هوامش الفصل الثالث

(١) وعن التكوين العنصرى – السلالة المملوكية الأولى ، انظر :

В. Тизенгаузен, *Сборник материалов, относящихся к истории Золотой Орды,* т. I. Извлечения из сочинений арабских, СПб., 1884, стр. 114, 120, 122—123, 162, 232, 234, 241, 383, 436, 502—503, 505, 513, 540, 542, 544; Ф. И. Успенский, *Византийские историки о монголах и египетских мамлюках,* — «Византийский временник», т. XXIV, Л., 1926., стр. 18—16;

، وانظر أيضا –

Poliak, le caractère colonial del' État mamelouk dans ses rapports avec la Horde d,Or - RÉI, 1X, 1935, p. 232 .

وانظر أيضا : العلاقات بين الفولجا والنيل لأمين على الخولى بالروسية ص ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ وأيضا على حسن ص ٢٦٧

(٢) فى نهاية حكم صلاح الدين كان عدد الجيش المصرى ١٢ ألف شخص (المقريزى خطط ١ ص ١٥٢ وابن إياس ١ ص ٧٠ . وانظر سعداوى أيضا ص ٨ – ١٠) ، ولكن فى بداية القرن ١٤ وطبقا لسجلات الديوان الجيوشى بلغت القوات المصرية فى ١٣١٥ – ١٣١٦ عند المقريزى ٢٤ ألف (خطط ١ ص ١٥٣ ، ٣ ص ٣٥٢) ؛ وفرق التركمان والبدو لاتدخل فى هذا العدد . وعن التأثير المغولى فى بناء الجيش المملوكى انظر

: A.N.Poliak, The Influence of Chingiz Khân's Yasa upon the general organisation of the mamluk state, - BSOAS , vol.X, 1942, pt 4, p . 140

(٣) أمراء الأربعين : وهى تعنى غالبا فى المصادر " أمراء جماعات " أو طبلخانات ، وفى الحقيقة فإن عدد جماعاتهم كان يقدر بأكثر من ذلك من المماليك سواء فى مصر أو فى البلاد الأخرى فى الشرق فى العصور الوسطى .

4 - Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte . Ecrite en arabe par Taki - Eddin Ahmed - Makrizi" trad ... par F. Quatremere, Paris 1837, vol.I,pt2, pp. 197 - 202, makrizi, Histoire d'Egypte, trad ... par E.Blochet, paris, 1908 p. 505; A. Poliak,The Ayybid feudalism, p 431.

5 - D.Ayalon , studies on the structure of the Mamluk army,- BSOAS. Vol. XV, London, 1953 , pt 3, pp 448 . 456

وانظر على حسن ص ٢٦٧

(٦) انظر على سبيل المثال : المقريزى ٨ ص ٢٠٠ ، وأيضا W . Popper , Egypt and Syria under the Circassian sultans 1382 - 1468 a.d. Systematic notes toIbn taghri Birdi's Chronicles of Egypt, - "University of California publications in semitic philology" vol. 15 , Berkeley - Los Angeles 1955, pp. 88 - 89

(٧) وفى "الحلقة" كان من الممكن حقيقة أن ينضم إليها من يأتون من بلاد أخرى مجاورة لمصر ، وهكذا فإن "أبو الفدا" ينوه بأحد المغاربة ، يدعى أبو دبوس ، قيل عنه إنه حاكم لجابس (فى شرق تونس) ثم بعد ذلك طرد من هناك فأسرع إلى مصر حيث صار محاربا من محاربى " الحلقة " (أجناد الحلقة) ومنح إقطاعا مناسبا (IV, cmp . 106)

(٨) انظر C.Becker, Beiträge Zur Geschichte Agyptens unter dem Islam, H.II Strassburg, 1903, S. 94, 109, 195 .

(٩) المقريزى سلوك : جـ ٣ ص ٦٧٢

(١٠) ويتفق مع هذا ، ما تقوله ملاحظة ناشر "السلوك" عن مبدأ توزيع ٢٤ قيراطا ، الذى كان يستند أساسا على مقدار المبلغ الإجمالى المتحصل فى سنة معينة ، ثم صار بعد ذلك مرتبطا بنوعية الأرض المصرية المناسبة (١ جزء ٣ ص ٨٤١) وبهذه الصورة ، مع الوضع فى الاعتبار الدخل المختلف للأرض فى الحسبان ، يصبح من المستحيل الكلام عن المطابقة الجامدة لوحدة ضرائبية واحدة مثل هذه ، تعتمدعلى المساحة المحددة للأرض ؛ ولهذا فإنه باستثناء الأراضى الزراعية ، يجب الأخذ بعين الاعتبار أن أراضى بعض المراعى وكذلك أراضى الوقف لم تكن تدخل فى حساب ٢٤ قيراطا المنوه عنها والملزمة بدفع الخراج .

(١١) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ ص ٨٤١

(١٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٣٦ ؛ وأبو الفدا ٣ ص ٢٠٩

(١٣) المقريزى (خطط) ١ ص ١١٩ والقلقشندى ٣ ص ٣٩٣ – ٣٩٤

(١٤) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٥٢٨

(١٥) ابن عبد الظاهر ص ١٥٥ وانظر أيضا تزنجاوزن : B. Тизенгаузен, *Сборник материалов, относящихся к истории Золотой Орды*, т. I, стр. 163—165, 167, 429, 432, 460.

(١٦) أبو الفدا ٤ ص ٣٤

(١٧) الاستثناء الوحيد المعروف لنا هو الإقطاع الذى وهبه الناصر محمد لأحد «الصقّارين» (مدرب صقور) : ابن تغريردى ٩ ص ١٧٠

(١٨) ابن عبد الظاهر ص ٢٠٧ – ٢٠٨

(١٩) المقريزى (سلوك) بالانجليزية ١ جـ ٢ ص ٥٢٠

(٢٠) المقريزى يحكى أن عدداً من أطفال الأمراء« الصالحيين » . (وهذا يعنى أنهم كانوا

مماليك سابقين للسلطان الأيوبى : صالح نجم الدين أيوب) اشتغلوا بالفنون والحرف ، وتم ضم البعض منهم إلى القوات والبعض الآخر منحوا مرتبات ، وذلك فى عهد السلطان السعيد ناصر الدين (١٢٧٧ – ١٢٧٩) – السلوك ١ جـ ٢ ص ٦٥٨ والحادث الوحيد المعروف لنا هو ترقية ابن أمير إلى رتبة أمير عشرة وذلك فى ١٢٨٠ – ١٢٨١ فى كتاب السلوك ١ جـ ٢ ص ٦٧٧واستثناء من هذا ماحدث فى أثناء حكم واحد من سلاطين المماليك الأتراك وهو الأشرف شعبان : فقد صار الكثير من « أولاد الناس » أمراء عشرة وأمراء أربعين وتم تعيين بعضهم حكاما للأقاليم السورية : ابن إياس ١ ص ٢٢٥ وانظر أيضا ابن الفرات ٩ جـ ١ ص ٤٥ ، وابن دويدار ص ٢٤٥ وانظر أيضا

D.Ayalon, studies on the structure of the mamluk army,- BSOAS, Vol .XV, 1953, pp. 457 - 458)

(٢١) كان الأمراء هم الذين يملكون حق شراء المماليك – أما التابعين الآخرين فكانوا ممنوعين عن هذا بصرامة ..

(٢٢) انظر على سبيل المثال : المقريزى سلوك ٢ جـ ١ ص ٢٦٩ ، وابن تغريبردى ٩ ص ٤١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢٣) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٥٢٥ وانظر أيضا القلقشندى ١٣ ص ١٣٧ ، وابن دويدار ص ٢٤٥ .

(٢٤) المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ ص ٢٢٨ .

25 - K.S. Salibi, The Buhturids of the Garb Mediaeval lords of Beirut and of southern Lebanon,- "Arabica" Vol VIII, 1961, fasc. 1,p. 87

(٢٦) المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، جـ ٢ ص ٣٧٤ ، وانظر أيضا أبو الفدا ٤ ص ١١٧ ، ١٤٨ – ١٤٩ ، وكثير من الحقائق السابق ذكرها والخاصة بمنح الإقطاعات من سلاطين المماليك الأوائل يتضمنها واحد من أجزاء كتاب «العبر» لابن خلدون وهو الجزء الخامس صفحات ٣٦٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٤١٥ .

(٢٧) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(٢٨) انظر . W. Popper, Egypt and Syria.., P. 104

(٢٩) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ ص ٦٧٣ .

(٣٠) المقريزى (خطط) ٣ ص ٣٥١

(٣١) فى بعض الأحيان ، بدلا من المنح الشهرية كان يتم تقديم سلف على فترات زمنية أطول .

(٣٢) المقريزى (خطط) ٣ صـ ٣٥٥ والقلقشندى ٤ ص ٥١ ، ٥٥ : .. وأمراء الحلقة ذوو المكانة الأقل – يكتفون بالدخول من إقطاعاتهم ، فإذا جاء أحدهم الموت وفرضت عليه العقوبات ، أولأى أسباب أخرى ، فإن إقطاعه يعود إلى الحكومة قبل مرور سنة قمرية ، أما المبالغ التى تسلمها قبل ذلك كمنحة ، ولم يكن لها أى أساس وكذلك مبالغ النفقات الخاصة و الزيادة فى المبالغ المدفوعة له

. فيجب أن تعود إلى الإدارة الخاصة وهى ديوان المرتد طبقا لما أشرنا إليه سابقا من حساب السنة القمرية والشمسية (والفرق بينهما ١١ يوما فى كل عام)

وعادة ما كان يتم خصم هذا المبلغ مرة واحدة فى عهد السلطان : الكامل سيف الدين شعبان ١٣٤٥ ، ولكن كان هذا يتم بشكل آخر فى عهد السلطان الظاهر برقوق : (المقريزى سلوك ٢ جـ ١ ص ١٨ – ٢٠ ؛ والنويرى ٨ ص ٢٠٤ .

C. Becker, islamstudien S . 271 : CIA, 11, pp. 94 - 95 .

(٣٣) ابن عبد الظاهر : ص ١٠٧ ، والمقريزى (سلوك ١ جـ ٢ ص ٦٣٩) يقدمان الرقم الإجمالى على أنه ١٢٠ ألف إردب ، وابن تغريبردى يوضح إمكانية الدخول الكبيرة المنوه عنها (سواء كانت عينية أو نقدية) فى عهد بيبرس الذى نحى القبط عن إدارة هذه الأعمال ، واشتغل معظمهم فى ذلك الوقت – بسبب سوء أوضاعهم – فى أعمال البناء والتجارة (٣٤) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٨٤٥

(٣٥) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٦٤٥ ، ٦٥١

(٣٦) المقريزى (خطط) ١ ص ١٤١ وأيضا (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٨٦٥

(٣٧) المقريزى سلوك ١ جـ ٣ ص ٨٤١ وانظر أيضا Аноним, стр. 45;

وأبو الفدا ٧ ص ٤٩ وابن تغريبردى النجوم ٨ ص ٩٢ وفى رواية أخرى مقدمة من ابن تغريبردى يقول فيها إنه قد تم تخصيص ١٦ قيراطا للأمراء والحلقة (النجوم ٨ ص ٩٣) وابن خلدون ، يتميز بأنه لم يحدد الأرض المخصصة للقوات الجديدة من الأراضى العامة ، وطبقا لما يؤكده فإن الأمراء والحلقة «تسلموا بالجملة عشرة قراريط والباقى وقدره أربعة عشر قيراطا خلوا للسلطان » جـ ٥ ص ٤١٠ . وهذه الروايات لاتتغير فى كثير من الأعمال .

(٣٨) المقريزى (خطط) ١ ص ١٤١

(٣٩) المقريزى سلوك ١ جـ ٣ ص ٨٤٢

(٤٠) نفس المصدر ص ٨٤١

(٤١) المقريزى (خطط) ١ ص ١٤١ ، وعن تنظيم الحماية للخلفاء انظر :

Cl .Cahen,Notes pour l'histoire de la Himaya - " Melanges Louis Massignon" Damas. 1956.

42 - Poliak, Feudalism ..... p. 25 .

(٤٣) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ ص ٨٨٢ – ٨٨٣ وابن تغريبردى النجوم ٨ ص ٩٤ – ٩٥ .

44- Аноним, стр. 47—60;

وابن إياس ص ١ ص ١٣٧

(٤٥) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ صـ ٨٦٢ – ٨٦٤ ، وابن تغريبردى (النجوم) ٨ صـ ٩٥

(٤٦) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ ص ٨٧٥ – ٨٧٦ ؛ جـ ٢ صـ ٢٢ – ٢٣ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ؛

وابن تغريبردى (النجوم) ٦ صـ ٤٢

(٤٧) المقريزى (خطط) ١ ص ١٤٤ – ١٤٥ وانظر أيضا القلقشندى ١٣ ص ١٨١ – ١٨٢ ،
Аноним, стр. 164.

(٤٨) المقريزى (سلوك) ٢ حـ ١ ص ١٤٩

(٤٩) المقريزى (خطط) ١ ص ١٤٥

(٥٠) المقريزى (سلوك) ٢ حـ ١ ص ١٥٦ – ١٥٧ ؛ والمقريزى (خطط) ١ ص ١٤١ ، وانظر أيضا :
ابن تغريبردى (النجوم) ١١ ص ٥٤ – ٥٥

(٥١) المقريزى (سلوك)٢ حـ ١ ص ١٥٦

52 - Silvestre de Sacy, Sur la nature ... p. 228, Caudefroy- Demombynes, La Syrie àl'époque des mamelouks d'aprés les auteurs arabes, Paris, 1923, pp. XXX, XLI; C.Becker, Islamstudien, S. 68.

(٥٣) ابن دويدار ص ٢٨٦ – ٢٨٧ ؛ وابن تغريبردى (النجوم) ٩ ص ٤٢ ، ٤٦ ، ١٧٧ ، والمقريزى (خطط) ١ ص ١٤٦ ، والمقريزى سلوك ٢ حـ ١ ص ١٥٠ – ١٥٣ ، أبو الفدا ٤ صـ ١٣٨ وجلال الدين السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة حـ ٢ القاهرة ١٢٩٩ م ص ٢١٢ – ٢١٣ .

(٥٤) المقريزى (سلوك) ٢ حـ ١ ص ١٥٠

(٥٥) نفس المصدر ص ١٥١

(٥٦) المقريزى (خطط) ١ ص ٣٥٢

(٥٧) المقريزى (سلوك) ٢ حـ ١ ص ١٥٦

(٥٨) نفس المصدر ص ٢٣١

(٥٩) نفس المصدر ص ٥١٧

(٦٠) ابن إياس ١ ص ١٩٠

(٦١) وفيما يتعلق بهذا ، فمن الطريف أن نذكر بعض أخبار المؤرخ السورى : سبط بن الجوزى . وبنص كلماته ، فإن المظفر عيسى ابن أخ صلاح الدين والحاكم السابق لدمشق (١٢١٨ – ١٢٢٧) قال إن فى سوريا ألفين قرية فى ذلك الزمن ؛ منها ١٦٠٠ قرية تخص الوجهاء ، ٤٠٠ قرية تخص السلطان كأراض عامة : (RHC, V, P. 178) وانظر أيضا ابن تغريبردى (النجوم) ٦ ص ٢٣٩ .

(٦٢) ابن عبد الظاهر ص ١٧٩ – ١٨٠ والمقريزى (سلوك) ١ حـ ٤٩٢ ، ٥٨٦ – ٥٨٧ ، ٧٣٥ ، وابن إياس ١ ص ١٦٤ ، وابن تغريبردى (النجوم) ٩ ص ٣٦..

63 - Аноним, стр. 160—161;
والمقريزى سلوك ٢ حـ ١ ص ٢٦٤ وابن إياس ١ ص ١٥٩

(٦٤) المقريزى سلوك ٢ حـ ١ ص ١٧٦ .

(٦٥) نفس المصدر ص ١٢٧ وأيضا A. Poliak, Feudalism ..., p. 24

(٦٦) المقريزى سلوك ٢ جـ ١ ص ١٣٦ .

(٦٧) وتحت اسم مصر الذى يعنى الفسطاط عادة عند مؤلفى الأيوبيين والمماليك ، إذ كانت (العاصمة القديمة) وهى الآن جزء من القاهرة وتقع ما بين النيل وسطح جبل المقطم ، والفسطاط هى العاصمة المصرية التى أسسها عمرو بن العاص فى ٦٤١م أنظر

S.Lane - Poole, a history of Egypt in the middle ages, London, 1936, p-17)

(٦٨) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٤٢٠ ، ٢ جـ ١ ص ١٢٧ .

(٦٩) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٣٨٤ ، جـ ٣ ص ٩٠٦ - ٩٠٧ ، والقلقشندى مستفيداً من هذا الافتراض يقول إن السلاطين المماليك كان من ديدنهم أن يهبوا هذه الأكارت (الضياع) علاوة على مبان كبيرة لأمراء المائة ٤ ص ٥٥

(٧٠) ابن إياس ١ ص ١٥٦ وأيضا ص ١٢٣ وانظر ابن تغريبردى (نجوم) حيث يقدم مثالا مشابها تحت (١٢٩٥ - ١٢٩٦م) - ٨ ص ٧٩

(٧١) انظر ما سبق فى الفصل الثانى .

(٧٢) المقريزى (خطط) ٢ ص ٢٥٥

(٧٣) ابن إياس ١ ص ١٨٤

(٧٤) ابن تغريبردى « النجوم » ١٠ ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(٧٥) نائب السلطان : وهو عادة يكون واحدا من الأمراء ذوى النفوذ ، ويكون بمثابة المستشار الأول للسلطان فى إقرار كافة الأعمال الحكومية ، وكان السلاطين من السلالة التركية عادة يعينونه بأنفسهم وقت اعتلائهم العرش ، ولكن فى سلاطين السلالة الشركسية لم تكن هذه الوظيفة موجودة دائما ، بل كان السلطان منهم يقوم بتعيين نائب له فقط أثناء غيابه عن العاصمة ويسمى (نائب الغيبة) ، انظر M. Caudefroy - Demombyñes;

La syrie .... P.LVI; W Popper, Egypt and Syria ..., p. 90

(٧٦) المقريزى (خطط) ٣ ص ٢٥٦

(٧٧) نفس المصدر ص ٢٥٥

نفس المصدر ص ٣٥٦ وانظر أيضا : ابن تغريبردى (النجوم) ١٠ ص ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٦٧ - ١٦٨ .

الفصل الرابع

أملاك الوقف فى العهدين الأيوبى . والمملوكى المبكر

الفصل الرابع

أملاك الوقف فى العهدين الأيوبى ، والمملوكى المبكر

وشبيه بالمسيحية فى أوروبا الغربية ، فإن الديانة الاسلامية فى الشرق ، فى العصور الوسطى أقامت «أكثر التركيبات شمولية وأكثر مصادقات النظام الإقطاعى القائم عمومية »[1] . وكدين للمجتمع الإقطاعى المشكل فى بداية القرن الثانى عشر ، برز الإسلام السنى ونظامه المدرسى المعقد فى "علم الكلام " (ومؤسس هذا العلم ، هو الفقية العربى : الأشعرى : (٨٧٣ – ٩٣٥م .) الذى اعتمد فى مذهبه على معانى السنة السلفية ، وعلى تقديس عبادات العامة ، وأخذ هذا المذهب شكله النهائى فى فئه فقهية خاصة .

واستقرار حكم الأيوبيين فى مصر صحبه إلغاء الشيعية الفاطمية السائدة ، وإرجاع السنية فى شكلها الجديد الأكثر تطورا بالمقارنة بالشكل الإسلامى الأول .

والمقريزى يشيد بالتعصبية الصارمة لصلاح الدين وميله لعلم الكلام «وأما مايمس* العقيدة فإن السلطان صلاح الدين قد تبنى بشكل كامل أفكار الشيخ : أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى » (٢) .

وتوضح المصادر بالتفصيل تاريخ عودة مصر إلى السلطة الروحية للخلفاء العباسيين ؛ ففى السنوات الأولى من حكم صلاح الدين لمصر ؛ وكان مايزال مجرد نائب لنور الدين ، كتب صلاح الدين إلى البلاط العباسى فى بغداد عن استحقاق مصر للعودة إلى حضن السنية ، وقام الخليفة العباسى ومن بعده المستهدى بتوجيه اللوم إلى نور الدين لتوانيه فى إرجاع السيادة العباسية على مصر ويفرض الإسراع لتحقيق هذا الهدف ، وأفق نور الدين على أن يتوجه نجم الدين أيوب إلى مصر .

* فلما ملك صلاح الدين ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيس بن درباس المارانى على هذا المذهب ... فقد نشأ عليه منذ كانا فى خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، وعقد صلاح الدين وأولاده الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعرى وحملوا فى أيام دولتهم كافة الناس على التزامه .. المقريزى خطط ٢ ص ٣٠٦

وكما بينا سابقا ، فإن السلالة الفاطمية سقطت فى ١١٧١م . ، وبعد مرور ثلاث سنوات فقط أى بعد موت نور الدين ، اعترف الخليفة العباسى : المستهدى بسلطة صلاح الدين فى مصر ، ومنحه لقب سلطان(٣) .

وفى ١١٧٤ – ١١٧٥م . صدق الخليفة العباسي على غزوات صلاح الدين ، مرسلا له مرسوم الاعتماد وملابس التكريم(٤) . وكانت سلطة خلفاء صلاح الدين فى مصر معتمدة من العباسيين(٥). وفى ١٢٣٧– ١٢٣٨. قدم الأيوبيون للخليفة المستنصر مساعدات نقدية فى صراعة ضد المغول (٦) . وبالرغم من ذلك ! استولى المغول على بغداد فى ١٢٥٨م وتم قتل الخليفة البغدادى الأخير : المستنصر .

وهرب أحد أنجال العباسيين الناجين إلى دمشق ، وتم استدعاؤه إلى مصر بأمر من السلطان بيبرس بعد ذلك ، وإعلانه خليفة تحت اسم أحمد المستنصر ، وكان ذلك فى ١٢٦١م (٧) . والخلافة المنقولة إلى مصر بهذه الصورة ، ظلت بها حتى الغزو التركى ، وكانت سببا فى توطيد حكم السلاطين المماليك الأجانب الجالسين ، اعتبارا من هذا التاريخ على العرش ، والمتنعمين بالرضا المباشر للخلفاء ، وهكذا فان الوثيقة الملائمة والمسلمة إلى بيبرس يقال فيها «* أمير المؤمنين يشكركم على مساعداتكم ، إذ بدون رعايتكم لكان وضعنا أكثر صعوبة ، وهو يخلع عليكم السيادة على مصر وسوريا وديار بكر والحجاز واليمن وشواطى الفرات ، وكل الجبال والوديان التى ستقومون بغزوها» (٨) .

وصارت مصر منذ هذا الوقت مركز العالم الاسلامى ، والسفراء يفدون إلى القاهرة من كل الدول الإسلامية ومعهم هدايا هم إلى الخليفة ، الذى هو بالرغم من كل هذا لايمتلك مطلقا أية سلطة حقيقية .

وعودة السنية إلى مصر السلطانية ، يدل على الصراع الحاسم مع المذهب

* وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنايع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ... ص ١١٣ هـ ٧ ابن تغريدى نجوم طبعة دار الكتب المصرية .

الشيعى بكل مظاهره . فالإصلاح الدينى على يد صلاح الدين لم يواجه مقاومة تذكر فى مصر ، أما فى سوريا فقد حدثت له عدة صدامات مع الشيعة فى أقاليم الفرقة الإسماعيلية المعروفين أيضا "بالحشاشين" والذين كانوا قد أنشئوا منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، تنظيمهم السرى ، واتخذوا من قلعة "الموت" قاعدة لهم ، وهى تقع على الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين ، وأيضا بعض القلاع الإيرانية . والحشاشون قاموا بدعاية ناجحة قائمة على نظريتهم فى سوريا التى تعتبر المهد الأول للإسماعيلية ، واستطاعوا بالاستفادة من أهدافهم أن يخلقوا بين الأهالى الكادحين طابعا معارضا (٩) .

وقبل أن يقوم الأيوبيون بمصادقة الإسماعيليين ، كانوا قد اخضعوا قسما من جبال لبنان ذات التحصينات المنيعة . وكان الشيخ رشيد الدين سنان (١١٦٩ – ١١٩٢م .) إمام الاسماعيليين السوريين فى ذلك الوقت ، وهو من الحشاشين الذين استقلوا عن الأئمة الكبار لقلعة الموت ، يقود صراعا ناجحا ضد قوات السلجوقى المعروف أتابك نور الدين زنكى .

واعتلاء صلاح الدين للعرش مهد السبيل لبعض التقارب بين الإسماعيلية وأحفاد نور الدين الذين كانوا فى ذلك الوقت أعداء لصلاح الدين فى صراعه مع سوريا .

وتستضيئ المصادر بأمثلة تفصيلية عن مدى تعامل صلاح الدين مع الإسماعيليين السوريين ، فالواضح من خطاب صلاح الدين إلى الخليفة البغدادى ، أنه يتهم حاكم الموصل بتضامنه مع الاسماعيليين ، وباستخدامه لهم كوسطاء بينه وبين الفرنجة مشيرا إلى دوره الخاص كحام للإسلام من التهديد الثلاثى : الفرنج الكفرة ، والحشاشين المارقين ، والزنكيين الخونة (١٠) .

برجاء من كومو شتاجن حاكم حلب وكان وصيا على صغير السن صالح ؛ وجه رشيد الدين سنان فدائييه إلى صلاح الدين ليحاولوا قتله مرتين : مرة فى ١١٧٤/١١٧٥م ، والأخرى فى ١١٧٦ ، ومن الممكن أن يكون السبب المباشر للمحاولة الأولى كامنا فى الحوادث التالية ؛ ففى هذه السنة هجم عشرة آلاف من فرسان السنيين وأعضاء جماعة النبوية على حصون الإسماعيلين فى "الباب" "والبوزاء" وقتلوا ثلاثة عشر ألفا منهم ، وأخذوا منهم الأسرى والغنائم الكثيرة ، واستغل صلاح الدين

هذ الارتباك الواضح ، ووجه قواته نحو قلاع صارمين ومعرة مصرين وجبل السمّاك وحطم أغلبية الإسماعيليين (١١) .

وبعد محاولة الاغتيال الثانية في يوليو ١١٧٦م . ، هجم صلاح الدين بفرقة على مو قع لإسماعيليين وحاصر قلعة «المصيف» ، وبعد ذلك فك الحصار ورحل ، وسنرى كثيرا من التأويلات المختلفة لهذا الحادث . فبدون أدنى شك ، كان صلاح الدين قد توصل إلى اتفاق محدد مع كبار الإقطاعيين الإسماعيليين ؛ إذ إن الإسماعيليين لم ينهضوا بعد ذلك أبدا لمهاجمة صلاح الدين ، ويبدو أن الإسماعيليين قد خشوا أيضا من تز يد قوة الأيوبيين في مصر . ولكن صلاح الدين أيضا من ناحيته سعى للاستفادة من الإسماعيين في صراعه ضد الصليبيين ، وكان اغتيال الزعيم الصليبي المعروف : المركيز كونراد مانفرد في صور ١١٩٢م . على يد الإسماعيليين – على الأرجح – واحدا من بنود هذا الاتفاق(١٢) .

ويتفق مع هذا ماتم جمعه من معلومات ، في القرن الرابع عشر ، تتضمن مجموعة حوادث من حياة رشيد الدين سنان ، ومنها يتضح أن صلاح الدين منح الإسماعيليين ، من أجل هذا ، بعض القرى المجاورة بقلاعها وسمح لهم بفتح «بيوتهم للدعاية» في القاهرة ودمشق وحلب وفي أماكن أخرى ، مع أن هذا يمثل احتمالا ضعيفا ؛ لأنه يتعارض مع جوهر سياسة صلاح الدين نفسه(١٣) .

واستأنف الإسماعيليون صراعهم ضد الزنكيين بمجرد وصولهم إلى اتفاق مع صلاح الدين(١٤). وواصل خلفاء صلاح الدين سياسته في علاقاتهم مع الإسماعيليين ، وكانو يقدمون لهم المساعدات الحربية في الظروف الضرورية ؛ فمن المعروف أنه في ١٢١٣م. بعد اغتيال ريموند وابن بثموند الرابع حاكم أنطاكية في طرطوس على يد الإسماعيليين (فيما يبدو لم يكن للأيوبيين علم بذلك) – أن بثموند الرابع أرسل حملة عسكرية ضد الإسماعيليين في حلب ، ممادعى الإسماعيليين للجوء إلى طلب المساعدة من حاكم حلب الظاهر بن صلاح الدين ، لكن قوة الظاهر في صد هذا الهجوم كانت غير كافية ؛ لذا فإنه لجأ إلى الأفضل الموجود حينئذ في دمشق ، فأرسل الأفضل جيشه وأرغم الصليبيين على فك الحصار(١٥) . وعلى هذا النحو ، تم للأيوبيين إزاحة

مذهب الشيعة الإسماعيلية ، لكنهم لم يرفضوا أن يستفيدوا من تنظيمهم السرى فى أهدافهم السياسية .

وسياسة المماليك تجاه علاقاتهم بالإسماعيليين كانت أكثر قسوة وحسما ، فالسلطان بيبرس وضع نهاية لوجودهم المستقل فى ١٢٧٢م . ، واستسلمت القلاع الأخيرة للإسماعيليين للجيش المملوكى (١٦) . وكان على كافة هذه الأقاليم الخاضعة أن تدفع لضرائب الملائمة ، وقرر معظم الآمرين على القلاع العمل فى خدمة المماليك ؛ «فالمصيف» كما قلنا سابقا ، دخلت ضمن الممتلكات الخاصة للسلطان ، وكفت عن أن تقوم بأى دور سياسي(١٧) .

والانتصارات على الصليبيين ، مهدت السبيل أمام تعزيز التعصب الدينى ، الذى قمع بدوره التطور الفكرى العلمى بالمقارنة بالحرية النسبية التى كانت ملمحا لعصر الفاطميين(١٨) .

فى ١١٩١م. تيسر للمذهب السنى أن يقوم بإعدام الحلبى المعروف : السهروردى ، وهو الفليسوف الحر(١٩) . أما الفليسوف الأندلسى ابن سابين (١٢١٦–١٢٧٠م.) ، فقد تعرض للمطاردة واضطر لقضاء جزء كبير من حياته فى مكة ، وتم طرد الفقية المشهور فى ذلك الوقت ؛ ابن تيمية (١٢٦٣ – ١٣٢٨) من حران هو وتلاميذه ومريدوه(٢٠) .

والكثير من مثل هذه الأعمال قام به القضاة الرئيسيون ؛ علاوة على التدعيم البعيد المدى للمذهب السنى ، والذى اتضح فى وضع قضاة المذاهب الأربعة ، فى عهد المماليك – موضع التساوى . فالقاضى الرئيسى ، حتى ذلك الوقت ، فى كل من مصر وسوريا ، كان يحمل لقب «القاضى الشافعى» . ولكن بيبرس فى ١٢٦٥م قام ، لأول مرة بتعيين أربعة قضاة رئيسيين للمذاهب الأربعة (الشافعية والحنبلية والمالكية والحنفية) فى القاهرة ؛ وكان كل منهم مستقل عن الآخر . وفى السنة التالية حدث نفس الشئ فى دمشق (٢١) .

وبين أعضاء الطائفة الشيعية السرية الذين يسكنون فى الأقاليم الجبلية فى شمال سوريا ، توسعت السنية بالقوة فى بداية القرن الرابع عشر فى إنشاء المساجد الخاصة بها فى كل قرية (٢٢) .

وتعرضت مراكز العلم والدعاية الشيعية للقضاء عليها : دار العلم ودار الحكمة ، علاوة على أنه تم تخريب المكتبة الفاطمية الشهيرة فى القاهرة (٢٣) ؛ وصارت الهيئات المشابهة تظهر في شكل جديد يسمى «بالمدارس» ، حيث كان المذهب السني هو التعليم الأساسي فيها . ومؤسسو هذه المدارس هما : الوزير المشهور للسلاطين السلاجقة : «إلب أرسلان» وملك شاه نظام الملك ، وهما اللذان قاما بافتتاح المدرسة النظامية فى بغداد (١٠٦٧م .) (٢٤) .

وانتشرت هذه المدارس منذ ذلك الوقت انتشارا واسعا فى الأقاليم التى تسيطر عليها السنية ، ومن بينها الأقاليم الزنكية ، ولكن هذه المدارس لم تظهر فى مصر إلا فى منتصف القرن الثاني عشر .

« وهو قد حاكي في ذلك ، الحاكم الأصيل نور الدين محمود بن زنكي ... هكذا يكتب المقريزي* عن صلاح الدين – الذى أقام فى دمشق وحلب عددا كبيرا من المدارس للمذهبين الشافعي والحنفي » (٢٥) . وفى مكان آخر يقول المقريزي عن نور الدين زنكى إنه كان حنفيا ونشر هذا المذهب فى سوريا ، ويستمر المقريزي « ومن هنا فإن الحنفيين فى مصر قد ازداد عددهم وأتيح لعدد كبير منهم أن يأتي من الشرق إلى هنا » وتفاصيل كثيرة تقال عن شخصية صلاح الدين ، « وشيد لهم السلطان** صلاح الدين مدرسة "السيوفية" فى القاهرة ولم يكف هذا المذهب منذ ذلك الوقت عن الانتشار ، وعدد فقهائه قد والى ازدياده ، وأقام هو فى مدينة مصر مدرسة لفقهاء الشافعية ومدرسة لفقهاء المالكية ، وأبعد هو كل الفقهاء الشيعيين»(٢٦) .

وهناك مدرستان كبيرتان من بين المدارس المنوه عنها ، كانتا قد أقيمتا حتى قبل سقوط الدولة الفاطمية فى ١١٧٠م . ويقف على رأس مؤسسي هاتين المدرستين ،

* « واقتدى بالملك العادل محمود بن زنكي ، فانه بنى فى دمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس للشافعية والحنفية وبنى لكلٍ من المذهبين مدرسة بمدينة مصر (المقريزي .. خطط ٣ ص ٣١٥)

** « فلما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر وأقام بها مذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام مالك ... وأقام مدرسة السيوفية ووقفها على الحنفية ... إلخ» خطط ٣ ص ٣١٨

الأمير صلاح الدين والتجار والأغنياء ونساء عائلات الأعيان . وأسس القاضي الفاضل مدرسة الفاضلية (٢٧) . وظهرت هذه المدارس في الحجاز في نفس هذا العام .

واستمر بناء هذه المدارس في عهد خلفاء صلاح الدين « وفي الأقاليم* السورية وفي الجزيرة أقام أحفاده وأمراؤه المدارس ، وسار على منواله حكام مصر الحاكمين بعده ومن بينهم السلاطين والأمراء الأتراك ، فهم قد حاكوه في هذا حتى أيامنا هذه»(٢٨) .

وابن أخي صلاح الدين : المظفر تقي الدين عمر - الذي سبق التنويه عنه - «أسس ** مدرستين بالفيوم (للشافعية والمالكية) وأسس على منوالهما مدرسة في القاهرة وأخرى في الرها» (٢٩) .

وفي عهد الصالح نجم الدين أيوب تم بناء مدرسة ، يتم فيها تعليم أساسيات المذاهب السنية الأربعة مباشرة في مكان واحد(٣٠). [رتب فيها الصالح] دروسا أربعة للفقهاء المنتمين للمذاهب الأربعة ، ، وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة في مكان واحد . وتفوق بيبرس على جميع السلاطين الأوائل من المماليك الذين أخذتهم الحمية في بناء المدارس (٣١) .

وتمثل المظهر الآخر للرجعية السنية فيما يسمى صوفية : مبدأ وحدة الوجود (تأليه الكون) كتيار إسلامي ذي أصل إيراني ، حيث كان الوضع الاجتماعي هناك - خاصة الغزو السلجوقي - يسهل تطوير مثل هذه الأفكار المهرطقة (٣٢) .

والصوفية في صيغتها الأصلية مكتسبة من الإمام الغزالي (١٠٥٩ - ١١١١م .)

* « ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين في بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاد الشامية والجزيرة أولاده وأمراؤه . ثم حذا حذوه من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم إلى يومنا هذا . (المقريزي .. خطط ٣ ص ٣١٥) .

** « وله بمدينة الفيوم مدرستان إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية وبنى مدسة بمدينة الرها وأخرى بالقاهرة. (خطط ٣ ص ٣١٥) ، خطط ٤ مطبعة النيل ص ٢٠٩ ورتب فيها (الصالح نجم الدين أيوب) دروسا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة في سنة إحدى وأربعين وستمائة وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة في مكان .

وجدت فى مصر أخصب تربة ملائمة لها . وفى العهد الأيوبى صارت تظهر الخانقات والبِيَعُ الصوفية فى البلاد (٣٣) .

والمقريزى يقول إن صلاح الدين * بعد استيلائه على السلطة مباشرة ، وهب مبنى من أكثر المبانى فى القاهرة – كان مخصصا للوجيه الفاطمى السابق سعيد السعداء «للصوفيين الفقراء القادمين من البلاد البعيدة وأسكنهم هناك فى ٥٦٩ هـ (١١٧٣ – ١١٧٤م .) ونصب عليهم شيخا وأعطاهم وقفا .. وتم بناء حمام لهم بجوار مبناهم وكانت هذه الخانقاه أول ماظهر فى الأرض المصرية ، وكان شيخها يسمى شيخ الشيوخ» (٣٤) .

وأرملة نور الدين ، ثم عصمت الدين زوجة صلاح الدين ، ومعهما القاضى الفاضل قامو) بإنشاء خانقاتين صوفيتين فى دمشق (علاوة على المدرسة الحنفية والمدافن) (٣٥) . وهذه الخانقات قامت بدورها فى التبشير فى عهد صلاح الدين (٣٦) .

وواصلت هذه الخانقات أو الأديرة الصوفية ازديادها فى عهد المماليك ، ففى ١٣٠٧ – ١٣٠٨م كان قد تم بناء خانقاه فى القاهرة للركن الأمير بيبرس جاشانجير الذى أصبح سلطانا فيما بعد (٣٧). وتأسست خانقاه كبيرة فى سيريا قوس بالقرب من القاهرة ، وأعيد أيضا تجديد بعض الخانقات المنشأة سابقا (٣٨).

* « هذه الخانقاه ... كانت دار تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء وهو الأستاذ قنبر ... قُتل ورُمى برأسه من القصر ثم صلبت جثته بباب زويلة ... فلما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر ... عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الوارد ين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم سنة تسع وستين وخمسمائة وولى عليهم شيخا ... وبنى لهم، حماما بجوارها ... فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر ... وعرفت بدويرة الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ (خطط ٢ ص ٣٠٣ – ٣٠٤) .

وورد عند القلشندى : « وأما الخوانق والربط فمما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية ، وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين .... فابتنى «الخانقاه الصلاحية » المعروفة بسعيد السعداء ، وسعيد السعداء لقب لخادم المستنصر الفاطمى اسمه قنبر ، كانت الدارله ... فلما ملك السلطان صلاح الدين جعلها خانقاه ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانية بزقاق البركة » (القلقشندى ٣ ص ٣٥٥)

وواصل أمراء المماليك والتجار الأغنياء بناء هذه الخانقات [٣٩].

والصوفية المؤمنة بالأفكار المسالمة للقهر والخضوع له ، والهائمة فى الاستغراق الذاتى ، كانت هى السلاح الإضافى اللازم للإجبار اللا اقتصادى ، الذى خول لطبقة الإقطاع أن تضمن امتثال الأهالى الكادحين لها .

والحكومة لم تكن فقط «لاتمنع الصوفيين عن صرف الناس عن النزعات الثورية» بل كانت كما لاحظ شتراوس بحق ، ترى « أن هذه الحركات الصوفية فى ذلك الوقت صارت قسما من المنظمات الحكومية » [٤٠].

وإلى جانب الصوفية الأرثوذوكسية كانت هناك بعض التيارات المهرطقة الأخرى ، لكنها كانت تواصل الوعظ بعدم الطمع وبالرضا والقناعة وتبرير البؤس عن طريق التنديد بالثروات ، ووجد السلاطين فى انتشار هؤلاء بين الناس البسطاء ، خاصة الحرفيين منهم [٤١]، مايحول دون انتشار الصوفية الحقيقية المنوه عنها سابقا – للسهروردى وابن سابين .

وانبعاث السنية فى مصر لم يستصحبه أى تغيرات مبدئية من ناحية الحكومات المصرية فى علاقاتها بغير المسلمين (الذميين) تلك العلاقات التى تتحدد تراثيا فيما يسمى «بوصية عمر» التى كانت تتغير طبقا للموقف السياسى[٤٢].

وكان الرؤساء الدينيون هم الوسطاء ما بين الحكومات المصرية وغير المسلمين : البطاركة (للقبط ، واليعاقبة ، والمسيحيين الأرثوذوكس) والحاخامات (لليهود)[٤٣].

وسعى صلاح الدين من ناحيته أن يحد من الحكم الذاتى النسبى للمجتمعات الدينية ، معينا موظفا خاصا للإشراف على اليهود فى كل من سوريا وفلسطين [٤٤].

وكان المسيحيون فى عهده يقعون أحيانا تحت المطاردة ، ولكن أغلبهم كان يتجنب إشعال نيران التعصب الدينى ؛ لأنهم كانوا متمسكين بتقوية النضال ضد الصليبيين . وفيما يبدو فإن اضطهادهم مهد السبيل لأبعد الحدود لتحولهم إلى الإسلام : فابن جبير يقول : إن المبلغ الاجمالى المأخوذ منهم كضريبة (جزية) قلّ فى عهد صلاح الدين[٤٥]،. وسيأتى الحديث عن هذا فيما بعد .

وخلفاء صلاح الدين – مراعاة منهم لظروف النضال السياسى أثناء الحروب الصليبية – كانوا غير متعصبين إلى حد كبير . والكنيسة القبطية أعلنت أن السلطان الكامل نفسه كان من أكثر الحكام المسلمين تسامحا ، وعن تسامح الكامل هذا ، فإن مذكرات الإمبراطور «فردريك تحكى الكثير(٤٦).

ومؤسس نظام أخوية الفرنسسكان (فرنسيس أسين) قد حضر إلى مصر فى ١٢١٩م . بهدف تحويل الكامل إلى الكاثوليكية وأخيرا توقفت محاولات من هذا النحو تجاه السلاطين المصريين (٤٧).

وأدت الحملة الصليبية بقيادة «ليودفيج» الرابع إلى تسريع حدة العداء ، خاصة فى مصر وسوريا ، فقد عملت على تشديد الدعاية المعادية للمسيحية فى هذه الفترة بالضبط ، مما أوصل الجدل الدينى اللاهوتى الموجه ضد المسيحيين إلى أقصى درجة له (٤٨).

وكان المسيحيون المارونيون فى شمال لبنان يقومون بتقديم المساعدات للصليبيين بشكل فعال خاصة مساعداتهم التى ظهر أثرها فى المقاومة الطويلة المدى لولاية طرابلس .

وخوف المماليك من عودة الصليبيين بعد طردهم واستئناف علاقاتهم مع المارونيين مرة أخرى ، جعلهم يوجهون حملة عسكرية إلى كسروان تم فيها هزيمة المارونيين نهائيا فى ١٣٠٦م. ، وتوزعت أراضيهم على شكل إقطاعات لأمراء دمشق (٤٩).

وفى مصر نفسها ، وردت عدة حقائق فى العهد المملوكى المبكر عن تخريب أو إغلاق الكنائس فى مدن مختلفة ، وأحيانا كان هذا يتم مصحوبا بطرد غير المسلمين من الهيئات الحكومية دون أن يكون لهذا أية علاقة بأية حوادث خارجية (٥٠)

وأكثر هذه الأشكال حدة ، كان هو الاندفاع المشابه لمثل هذه الأحداث فى ١٣٢١م .، وفيه تم تحطيم الكنائس فى كل مصر ، واستطاع الناصر محمد فقط بجهود كبيرة أن يعيد النظام مرة أخرى وأن يعلن عن استئناف العمل «بوصية عمر» وتحريم ستخدام المسيحيين فى وظائف الإدارات الحكومية ، مما اضطر الكثير منهم – نتيجة لهذا – أن يقبلوا الإسلام (٥١).

ورجال الدين وممثلوه المنحدرون أساسا من الأصول العربية ، والأرستقراطية القبطية كانوا يمثلون الركيزة الأساسية للطبقة الحربية الحاكمة .

ورؤساء الهيئات المدينية الكبيرة الذين كان يتم تعيينهم مباشرة من قبل السلطان نفسه كانوا يعتبرون فرعا من الأجهزة والإدارات الحكومية ، فقد كانوا يتسلمون من الحكومة كميات وافرة من المنتجات (بشكل عينى) علاوة على الوسائل النقدية المحددة ، وكان صوفيو خانقاه سعيد السعداء يتسلمون أيضا يوميا من الحكومة مواد معيشتهم المكونة من اللحم والخبز ، بينما كان صوفيو خانقاه سيرياقوس يتسلمون الحلاوة أيضا علاوة على ذلك (٥٢) . ومنذ عهد صلاح الدين ، كان يوضع تحت تصرف أميرى مكة كل عام : أحدهما كان يتسلم على شكل «عطاء» ثمانية آلاف أردب من القمح والآخر كان يتسلم ألف أردب وألفين من الدنانير (٥٣) . وكان يقدم للهيئات الدينية فى الإسكندرية $\frac{5}{8}$ الزكاة (أغلب الظن أنه $\frac{5}{8}$ المبلغ الإجمالى المجموع من المدينة) (٥٤). وينوه ابن جبير بأضرحة المساجد وأئمتها فى القاهرة ، فيحكى أن «كل ★ الهيئات تتسلم مساعدة كل شهر مقررة من السلطان (صلاح الدين – المؤلفة) ونستطيع أن نقول إن مثلها يقدم للمدارس فى مصر والقاهرة ، ونحن عرفنا بكل دقة أن هذه المساعدات تتكون بشكل إجمالى من أربعة آلاف دينار مؤمنية » (٥٥).

ووزع السلطان : صالح نجم الدين أيوب فى ١٢٤٥ – ١٢٤٦م . على المدارس والأديرة والخانقات فى دمشق أربعين ألفا من الدراهم ، وأعطى لبعلبك عشرين ألفا (٥٦).

ويكتب المقريزى عن المسجد الجديد الذى أقيم فى الفسطاط فى عهد السلطان : الناصر محمد ، وكان يضم صوفيين يتسلمون الخبز واللحم يوميا ؛ ويتسلمون على ذلك خمسة عشر درهما كل شهر(٥٧)

وأخيرا ، فإن الهيئات الدينية القائمة تسلمت بمثابة وقف (الأحباس)(٥٨) ، وهى ممتلكات مدينية (منقولة وعقارية) ، سيأتى عنها الحديث فيما بعد ، أما أملاكها من

★ والجرايات متصلة فى كل شهر ... والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر ، والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك ، وحُقِّق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيِّف على ألف دينار مصرية فى الشهر وهى أربعة آلاف دينار مؤمنية (رحلة ابن جبير ص ٤٩ ، ٥٠)

الأراضى ، فكانت فى الأقاليم الريفية ، فالأوقاف المنوه عنها للمدرسة «القمحية» أصبح من ضمنها «قرية بالفيوم★ تسمى حنبوشية ورتّب للمدرسة أربعة مدرسين ، عند كل مدرس عدد محدد من المتعلمين ، وهى من أكبر مدارس فقهاء المالكية ، وكانت أرزاقهم من الأرض الممنوحة لهم فى الفيوم ، المزروعة بالقمح الذى يأتى ليوزع بينهم ؛ ولذا صارت هذه المدرسة تعرف بالمدرسة القمحية» (٥٩). وانضمت جزيرة الفيل على النيل كوقف لمدسة الناصرية بينما جزيرة الروضة بحدائقها وقراها العديدة قد انضمت لمدرسة قاهرية تسمى التقوية★★ (٦٠).

وأسس صلاح الدين أوقافا (تضم إليها أقاليم محددة) وكان فى البداية يخصص قسم من مداخليها لإقامة المتاريس الدفاعية فى العاصمة (٦١). وأنشأ أيضا صلاح الدين أوقافا لينتفع بها أربعة وعشرون فردا من الطواشى الذين يقيمون بجوار الحرم المكى (٦٢). ويتم التنويه فى المصادر أكثر من مرة عن حقيقة تتعلق بنقل ثلث نابلس وضواحيها إلى أملاك« وقف القدس » هذه المدينة المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين (٦٣). وكانت هناك إتاوات الوقف لمدارس وأديرة الإسكندرية فى عهد صلاح الدين أيضاً (٦٤). وتم تحويل « قرية حزم ★★★ بجوار حوران إلى وقف تنتفع به إحدى مدارس دمشق (٦٥). « ووهب العزيز بن صلاح الدين إقليم سنديبس بالمنوفية للزاوية الشافعية فى الفسطاط (٦٦).

وكتب المقريزى تعطى تصورا عن الأعمال الخيرية الواسعة «لصلاح الدين الثانى» بيبرس ، الذى حول عددا من القرى فى سوريا وفلسطين إلى أوقاف طبقا لأوامره ، تخصص مداخيلها لإعاشة الحجاج المترجلين القادمين إلى القدس (٦٧). وانتزع أيضا هذا السلطان أوقاف الهيئات الدينية فى «خليل» لبعض الأمراء وأدخلها فى إقطاعاتهم وأضاف إليها أيضا قرية عزنة فى فلسطين (٦٨).

★ «وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية ، ورتب فيها أربعة من المدرسين ، عند كل مدرس عدد من الطلبة ، وهذه المدرسة أجلّ مدرسة للفقهاء المالكية ، ويتحصل لهم من ضيعتهم التى بالفيوم قمح يفرق فيهم ، فلذلك صارت لاتعرف إلا بالمدرسة القمحية إلى اليوم» : المقريزى خطط ٢ ص ٣١٦ .

★★ وتعرف أيضا هذه المدرسة «بمنازل العز» خطط هـ ٢ ص ٦٢١ - ٦٢٢

★★★ وقف السلطان قرية حزم باللوى من حران على الجماعة التى يشتغلون لعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه .. أبو شامة هـ ٢ ص ٢٦٣

وانـتزع الأمـراء ، في عهد بيبرس أيضا أوقاف الجامع الأزهر ، واستولوا عليها [٦٩].
وهناك أخبار عن تعيين بيبرس القاضي : ابن خالكان كاتب السيرة المعروف ؛ مراقبا عاماً على كل الأوقاف السورية [٧٠]. وخصص بيبرس إيرادات العديد من الأوقاف التي أقامها في الوجه البحري لينتفع بها أولاده [٧١].

وظل سلاطين المماليك مبقين على سيطرتهم العليا على مدن الحجاز المقدسة ، وقاموا بدور الوسطاء في النزاعات التي تنشأ بين حكامه الدينيين ؛ ويتعلق بهذا ما يتضح من إعادة توزيع أراضي الوقف الجاري في عهد بيبرس : أمير مكة في ١٢٦٦– ١٢٦٧م ، تسلم وثيقة لامتلاك نصف الأوقاف المصرية والسورية ، وكانت قبل ذلك مخصصة لأمير المدينة [٧٢].

وتتشكل أراضي الوقف عن طريق بيع الأرض ، ففي ١٣٣٧ – ١٣٣٨م ، تم بيع ٢٥٠ فدانا من الأرض مقابل ٤٠٠ ألف درهم في إقليم بهتيم بمثابة وقف ، يتم الإنفاق منه على مستشفى القاهرة التي أقامها قلاوون [٧٣].

وامتلكت الأديرة المسيحية والكنائس أيضا ؛ أراضي تشكلت عن طريق الهبات ، وهي كانت توضع تحت إشراف ديوان الأوقاف مثلها مثل أملاك الهيئات الدينية الإسلامية [٧٤].

كان هناك دير وكنيسة للقديس* أنوفري ، غير بعيدين عن مدينة الأشمونين (في أسيوط – المترجم) يمتلكان في بداية حكم الأيوبيين مائة فدان من أخصب الأراضي ، متفرقة على عدد من الدوائر (الكورات) [٧٥]. وكان ** دير طموه عند حلوان في ذلك الوقت يمتلك حدائق عنب وأراض زراعية أخرى تبلغ مساحتها العامة سبعة وأربعين فدانا [٧٦]. وكان الدير اليعقوبي المسمى دير «القديس أنطون» عند البحر الأحمر يمتلك

★ Here is a church named after the Saint and champion Onuphrius, which possessed a hundred Feddan of black fertile soil.... (Abu Saleh .... P. 255).(المترجم)

★★And laid out a garden near it and planted in it trees of all sorts and palms and dug wells .... the monastery possessed forty seven feddans of land .... (Abu saleh ... P. 198) . (المترجم)

حدائق العنب وبساتين النخيل الواسعة التى تمتلئ بالآلاف من أشجار النخيل ، وكان يحوى أيضا فى شكل آخر من الملكية ... بساتين فى أطفيح (٧٧).

ودير * القديس «سيويرس» فى ضواحى أسيوط كان يمتلك إلى جانب ممتلكات أخرى « بستان عامر بأشجار الفواكه وأشجار الزيتون والرمان وأحواض للخضر، وكان يتسلم من كل هذا كثيرا من النقود من سنة لأخرى (٧٨) » وكان دير** «كلعمون» . جنوب غرب الفيوم – يمتلك أراض فى عدة أقاليم فى مصر العليا ؛ منها ١٦ فدانا في شبرا ، وإلى جانب هذا كان يمتلك ملاّحة واسعة يتسلم منها ثلاثة آلاف أردب من الملح ، وعن هذا الدير يكتب أبو صالح «كانت له حديقة واسعة بها أشجار الزيتون ، وأراض لزراعة الخضر ، علاوة على البلح الذى يبيعه كل عام » (٧٩)

ومن المعروف أن جميع الأراضى المزروعة بالفيوم التابعة لخمسة وثلاثين ديرا مسيحيا بهذا الإقليم ، كانت تؤدى كل عام للخزانة السلطانية خمسمائة دينار فى بداية حكم الأيوبيين (٨٠).

وكان دير القديسة « كاترين » الذى يوجد فى شبة جزيرة سيناء يمتلك أراض واسعة لغاية (٨١). وبلغت إيرادات الكنائس والأديرة المسيحية فى مصر كلها فى ١١٨٠ – ١١٨١م : ٢٩٢٣ دينارا ، ٤٨٢٦ أردبا من الحبوب ، وكانت تمتلك ٩١٥ فدانا من الأرض . ولكن يبدو أن صلاح الدين انتزع منها جزءا لايستهان به من هذه الأرض ووزعه بمثابة إقطاعات(٨٢)

★ There is a monastery named after saint Severus, outside the town ... It possesses a keep, and cistern which Contains a thousaud pitchers of water, and is Filled from the blessed Nile .... the monastery Contains a mill and Several a vens and a press af olive oil .... Beneath the monastery there is a garden , full af trees and all fruits bearing palms and olives and pomegranats and verdant plots, and beds of Vegetables .... ABU Saleh .... P. 250 (المترجم)

★★ It possesses land in several districts of upper Egypt, and at Shubra it owns sixteen feddans. it possesses salt- marshes from which it annually receives nearly three thousand ardebs (of solt) of the dates, of the palm trees it receives a quantity, which are sold every year ... ABU Saleh .. P 206 (المترجم)

وأراضي الوقف ، شأنها في ذلك شأن الأنواع الأخرى من أملاك الوقف ، غير مصرح لها لا بالبيع ولا بالرهن ولا بالإهداء ، ولا بالانتقال بالوراثة ، ولا يمكن نزعها لأى سبب آخر . وبا ستثناء «التداول المدني» من هذه الصورة فإن الأوقاف لاتتعرض التطويق الضرائبي الحكومي . ومشروعات الأوقاف دائمة (غير محدودة الأجل) ، غير أن و هب الوقف كان له أن يشترط تحول العقار إلى الوقف بشروط متنوعة ، خاصة حق الاحتفاظ للورثة في نصيب محدد من الدخل ، أو الحق في تعيين المشرفين على الوقف الجارى (٨٣).

وعدم قابلية أراضي الوقف للمصادرة ، واشتراط المطابقة لرغبة المتبرع ، يدلان بصورة مقنعة تماما على الطبيعة الإقطاعية لهذه الأراضي .

ومن الأمثلة المقدمة سابقا يتضح أن الوضع الحقيقي للوقف لم يكن متفقا دائما مع الوضع النظرى للشريعة .

وجملة القول ؛ فان أراضي الوقف في مصر ، في عهد الأيوبيين والمماليك الأوائل بمساحاتها التي تشغلها ، كانت تحتل المرتبة الثانية بعد الإقطاع .

وطبقا لما يرويه المقريزى فإن أراضي «الأحباس» (وهي تعني حسب تأويلاته بعض أقسام أملاك الوقف) كانت تضم في ١٣٣٩ م ، : ١٣٠ ألف فدان(٨٤).

وظهور الأنواع الجديدة للهيئات الدينية كان نتيجة للانقلاب الأيديولوجي ، الذى كان مرتبطا ليس فقط بتحويل الأراضي الزراعية إلى وقف - (وخاصة الأراضي الحكومية ، وبدرجة ما بعض أراضي الملك) وإنما كان متمثلا أيضا في تعمير أقاليم جديدة ، وبهذا الشكل تمهد السبيل ، إلى حد ما ، للتطوير الشامل لقوى الإنتاج

هوامش الفصل الرابع

(١) انجلز حرب الفلاحين في ألمانيا [مؤلفات ك ماركس ، ف انجلز. الطبعة الثانية مجلد7 ص ٣٦٠ – ٣٦١]

(٢) المقريزي (خطط) ٤ ص ١٦١ .

(٣) انظر . G. Wiet, Les inscriptions de Saladin, - "Syria", III Paris, 1922, pp 318- 325, "Extraits des historiens arabes", P. 177

وانظر أيضا أبو شامة ١ ص ١٨٣ ، ١٩٧ .

(٤) المقريزي سلوك ١ جـ ١ص ٥٩ – ٦٠ .

(٥) نفس المصدر ص ١٦٧ – ١٦٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، وجـ ٢ ص ٣٦٨ ؛ وأيضا ابن تغربردي (النجوم) ٦ ص ١٦٥ – ١٦٦ ، ٢٢٥ .

(٦) المقريزي (سلوك) ١ جـ ١ ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٧) انظر : وهنا برهان بصورة مقنعة ، على مدى إفلاس مازعمه Д. Айалоном ب . فارتمان ، ب . برونشنج من ادعاء بقيام المماليك بتعيين أحد قمم الخلافة التونسية ؛ ويسمى أبو عبد الله محمد ، من سلالة الحفصيين ، في الفترة ما بين غزو بغداد على يد المغول ونقل الخلافة العباسية إلى مصر D.Ayalon, Studies on the transfer of the Abbasid caliphate From Bagdad to Cairo, - "Arabica", 1960, t. VII fasc.1) .

(٨) ابن عبد الظاهر ص ١٢٧ ، والمساحات الحقيقية لأملاك بيبرس هنا واضحة الزيادة ، فديار بكر كانت في ذلك الوقت تحت حكم المغول ، واليمن كما أسلفنا كانت تحت حكم الرسوليين انظر –

Cl. Cahen, Contribution à l'histoitre de Diyar Bakr quatorzième siécle - JA, t.CCXL III 1955, p. 67.

(٩) عن أيديولوجيا وتنظيم الاسماعيلية ، انظر – Е. А. Беляев, *Мусульманское сектантство,* М., 1957, стр. 47—55;

وانظر أيضا Л. В. Строева, *Восстание исмаилитов в Иране в конце XI — начале XII века,* — «Исследования по истории стран Востока», Л., 1964.

(أبحاث عن تاريخ بلدان الشرق) بالروسية .

10 - B.Lewis, the Ismailites and the Assasins.- " A history of the Crusades" Vol I , Philadelphia, 1955, p . 122.

11 - B. Lewis, Saladin and the Assasins.- BSOAS. XV. 1953. P. 241 .

12 - Ibid , P. 244.

13 - S. Guyard, Un Grand Maitre des assasins au temps de Saladin- JA, IX. 1877.

(١٤) قتل الإسماعيليون فى ١١٧٧م شهاب الدين ، وزير نور الدين زنكى ووريثه فى الحكم ، ثم بعد ذلك فى ١١٧٩ تم نزع قلعة هجير من تحت يد الاسماعيليين ، وصارت احتياجات رشيد الدين سنان عديمة الجدوى ، وعندئذ وجه هو رجاله إلى حلب ، فقاموا بنهب الأسواق وبهذه الصورة سببوا للمدينة خسائر فادحة : (B. Lewis, The Ismailites and the Assasins, PP. 125, 126)

15 - B. Lewis, the Ismailites and the Assasins, pp. 124-126; Max Von Bershem, Epigraphie des Assasins de Syrie,- JA, IX, 1897, pp. 453- 501.

(١٦) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٤٩٢ ، ٥٨٦ - ٥٨٧ ، ٦٠٨

(١٧) إلا أنه بعد ذلك ، واصل السلاطين المماليك استخدام الاسماعيليين فى أغراضهم الخاصة ، ونجد عند المقريزى (١٣١٥ - ١٣١٦) ما يفيد أن السلطان : الناصر محمد قد أرسل فدائيين من «المصيف» لقتل الأمير : قراسنقر لأنه كان غير مرغوب فيه . (سلوك ٢ جـ ١ ص ١٤٣ ، ٢٠٧)

18 - J. Schacht, über den Hellenismus in Baghdad und Cairo im11. Johrhundert - ZDMG, Bd 90, 1936, S. 314.

(١٩) ابن شداد ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ، وأبو شامة ٢ ص ٢١٩

20 - H. Laoust, Le hanbalisme sous les Mamlouks Bahrides (658-784/ 1260-1382), REL, t .XXVIII, année 1960, cahier I, Paris, 1960 , M. A. F. Mehren, Corresondance du philosophe souphi Ibn Sabin Abd Oul - Haqq avec l'empereur Frédéric II de Hohenstaufen ...., JA, XIV, 1879.

(٢١) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ ، ٦٤٠ . ومساعدو هؤلاء القضاة الرئيسيون كانوا يوجدون أيضا فى كثير من المدن الرئيسية وغير الرئيسية فى مصر ، والسلطة القضائية كانت هى صاحبة الكلمة فى القضايا الدينية للجماعات غير الإسلامية ، والعلاقات بين المماليك ، وإن كانوا قد تقبلوا الإسلام رسميا ، كانت تقوم أساسا على (مجموعة قوانين) جنكيز خان التى يقوم بتطبيقها فى زمن الحرب أئمة المذاهب الثلاثة (ماعدا الحنبلية) ، أما فى زمن السلم فيقوم بها من يسمى بالحاجب ، والمحكمة السلطانية كانت هى المرجع الأعلى الذى ينعقد مرتين فى الأسبوع (انظر المقريزى خطط ٣ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ، والقلقشندى ٤ ص ٣٦، وابن تغريردى (النجوم) ٦ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ؛ ٧ ص ١٨٢ - ١٨٣ وانظر أيضا : Г. В. Вернадский, *О составе Великой Ясы Чингис-хана с приложением главы о Ясе из истории Джувейни в переводе В. Ф. Минорского,* Bruxelles, 1939;

وانظر أيضا أمين على الخولى (مصدر سابق) (بالروسية)

(٢٢) المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ ص ١٧٨، وأبو الفدا ٤ ص ٥٤

(٢٣) « كانت المكتبة إحدى عجائب العالم - هكذ يقول عنها أبو شامة (١ ص ٢٠٠) - إذ

لايوجد فى كل بلاد الإسلام مكتبة أوسع منها» ثم بعد ذلك « إن للكتبة الفاطمية تحتوى على أكثر من مليون مخطوط ، منها ١٢٢٠ مخطوطا فى التاريخ . وهذه المخطوطات ألقيت بعد ذلك فى الميادين ، وقسم كبير منها كان من نصيب الوزير : القاضى الفاضل . أنظر أيضا القلقشندى ص ٤٦٧
A. Helbig, Al - Qadi al - Fadil, der Wezir saladin's, Berlin, 1909, S.25)

(٢٤) انظر : - M. A.Reuben Levy, Levy, The Nizamiya Madrasa at Baghdad, JRAS,1928, pt. II; A.L. Tibawi, Origin and character of al-madrasah - BSOAS, vol. XXV , 1961, pt2.

(٢٥) المقريزى (خطط) ٤ ص ١٩٢ والقلقشندى ٣ ص ٣٤٦

(٢٦) المقريزى (خطط) ٤ ص ١٦١ ، ويتحدث هنا – مرة أخرى – بتفاصيل جديدة عن الانقلاب الدينى : « ولم يحتمل صلاح الدين فى مصر أحدا سوى من كان من أتباع المذهب الشافعى ، ومنذ ذلك الوقت صار الناس ينضمون نحو المذهب المالكى والمذهب الشافعى ويبتعدون عن مذهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية (الشيعية المعتدلة) وكل تلك المذاهب قد اختفت ، منذ ذلك الحين ، من أرض مصر » وانظر أيضا المقريزى (سلوك) ١ جـ ١ص ٦٣ ، ٩٠ ; وأبو الفدا ٣ ص ٥٣ ، ٦٢.

27 - A .Helbig, Al-Qadi al - Fadil ..., S . 26, E Ashtor, The Karimi merchants, - JRAS, 1956, p. 54.

(٢٨) المقريزى (خطط) ٤ ص ١٩٢ ، ١٩٣

(٢٩) المقريزى (خطط) ٣ ص ٢٩٩ – ٣٠٠ ، ٤ ص ٢٠ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، وأبو شامة ١ ص ١٩١.

(٣٠) المقريزى (خطط) ٤ ص ٢٠٩ وأيضا أبو شامة ٢ ص ٢٣٩ ، والمقريزى سلوك ١ جـ ١ ص ٣٧١ ، جـ ٢ ص ٣٠٨ والقلقشندى ٣ ص ٣٦٧ .

(٣١) انظر على سبيل المثال : ابن عبد الظاهر ، صـ ١١٤ – ١١٥ ، والمقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٥٨٨ ، ٦٣٨ ، ٦٤٦ ، وابن الفرات ٧ ص ٨٣ ، ١٠٧ ، والقلقشندى ٣ ص ٣٥٢ ، وعن بناء المدارس فى عهد خلفاء بيبرس ، انظر أبو الفدا ٤ ص ١٠٤ ، وابن تغريردى (النجوم) ١٠ ص ٣٠٦ ، ١١ ص ٦٧ ، ٢٣٩ – ٢٤٠ .

32 - Е. А. Беляев, *Мусульманское сектантство*, стр. 70.

(٣٣) نقابل فى مصادر هذه الفترة مصطلحى : زاوية وربمة اللذين يختلفان عادة عن الخانقاه ، ولكنهما كانا – كقاعدة عامة – يقومان فى نفس الوقت بوظيفة المدارس الأولية ، انظر .
N. A. Ziadeh, Urban life in Syria under the early Mamluks,p. 162.

(٣٤) المقريزى (خطط) ٤ ص ٢٧٣ وأيضا القلقشندى ٢ ص ٣٦٨ – ٣٦٩

(٣٥) سعداوى ص ٢٢ ، وابن جبير ص ٣١٨

(٣٦) أبو شامة ١ ص ١٥٦ ، والمقريزى (خطط) ٢ ص ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥١

(٣٧) المقريزى سلوك ٢ جـ ١ ص ٣٦

38 - Аноним, стр. 175, 227;

وأبو الفـــدا ٤ ص ٩٦ والمقـــريزى سلوك ٢ حـ ١ ص ٣٦١ ، وابن خلدون ٥ ص ٤٣٨ وابن بطوطة ١ ص ٨٤

39 - W. Fischel, والمقريزى (سلوك) ٢ حـ ١ ص ١٩٩ – ٢٠٢ ، حـ ٢ ص ٤٢٣ ، وانظر the spice trade in mamluk Egypt,- JESHO, vol. I , 1958,pt 2,p. 169 .

وعن بناء المساجد والخانقات في العهد المملوكي المبكر ، انظر : Аноним, стр. 191, 203, 225;

وانظر أيضاً ابن دويدار صـ ٢٨٨ – ٢٩٠ ، وأبو الفدا ٤ صـ ١٠٤

40 - E. Strauss, L,inquisition dans L' Etat mamlouk,- "Rivista degli Studi Orientali" ,VOL. XXV, Roma, 1950, p. 15.

(٤١) انظر على سبيل المثال W. M.Brinner, the significance of the harafish and their "sultan", - JESHO, Vol . VI, 1963, pt 2, p. 211.

(٤٢) وهذه التعليمات ، تنظم قواعد السلوك مع غير المسلمين ، وتستخدم لإظهار الود في إخضاعهم للمسلمين : فغير المسلمين لايملكون الحق في التشبه بالمسلمين في ملابسهم : فالمسيحي طبقا للأوامر لابد وأن يرتدي عمامة زرقاء ، واليهودى عمامة صفراء ، وهم غير مسموح لهم بتعليم القرآن لأطفالهم ، ولا بالقيام بواجباتهم الدينية علناً ، ولا باقتناء سرج الخيل أو استخدامها ، ولايشربون الخمر جهارا ... الخ . وهذه التعليمات تتضمنها الوثيقة المعروفة تحت اسم – « معاهدة عمر مع مسيحيي سوريا » .

ولمزيد من التفاصيل انظر .

Н. А. Медников, *Палестина от завоевания ее арабами до крестовых походов по арабским источникам*

من « المجموعة الفلسطينية » مجلد ١٧ جزء ٢ – (١٩٠٣) ، ص ٥٢٨ – ٦١٣ .

(٤٣) ودائرة اختصاص المهمات الدينية لبطراخانة اليعاقبة المصريين كانت تمتد الى الحبشة . أما سوريا فكان بها بطرخانتان . والقسم الأساسي من اليهود سواء في مصر أو في سوريا كان من اليهود : السامرائيين والربانيين والقرائين ، وكان لليهود في سوريا رئيسان أحدهما للسامرائيين والآخر للمذاهب الأخرى .. انظر

القلقشندي ٩ ص ٢٥٩ ، ١١ ص ٣٨٥ ، ١٢ ص ٣٩٤

44 - N.A Ziadeh, Town administration in Syria under the early Mamluks. "Proceedings of the twenty - second congress of orientalists" Leiden, 1957, Section IV, pp. 215 - 216.

(٤٥) ابن جبير ص ٤٣ وانظر أيضا . "Extraits des historiens arabes" pp. 372 - 373

46 - S. Lane- Poole, A history of Egypt in the Middle Ages, London. 1936, p. 241.

(٤٧) بقيت لنا من زمن «الكامل» وثيقة قبطية ، عبارة عن مديح مكرس لوصف استشهاد كاهن مسيحي يسمى يوان بخاني ، تعطي تصورا حيا عن العلاقات الدينية . انظر

E. Amélineau, Un document copte du XIII-e siècle . Martyre de Jean de Phanidjôit - JA , 1887, t. IX .

(٤٨) هناك مقاله هامة لبرلمان فى تحليل هذه الأعمال ، انظر - M. Perlmann,.
Notes on anti - christian propaganda in the Mamluk empire,- BSOAS, Vol. X,1942, pt.4

49 - K . S. Salibi the Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk rule - "Arabica", 1957, t.IV, fasc. 3, pp . 299 - 300.

(٥٠) ما يتعلق بهذه الحقائق فى سنوات ١٢٦٧ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٣٠٠ – ١٣٠١ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٤ وحتى ولاية الناصر سيف الدين حسن للمرة الأولى (١٣٤٧ – ١٣٥١) انظر ;Аноним, стр. 87 والمقريزى (سـلوك) ١جـ ٢ ص ٥٦٦ ، جـ ٣ص ٩١٠ – ٩١٢ ، ٩٤٤ ، ٢ جـ١ ص ٥٠ ، ١٥٧،٩٠ – ١٧٣ ، ٢٥٣ – ٢٥٤

والمقريزى يتكلم أيضا عن هبة لسكان دمشق المسلمين ضد المسيحيين واليهود ، فى ١٢٥٨ – ١٢٥٩ ، وكان مشتبها فى وجود علاقات بينهم وبين المغول : (سلوك ١ جـ ٢ ص ٤٣٢ – ٤٣٣) ومن مطاردات المسيحيين فى دمشق يتحدث أبو الفدا تحت سنة ١٣٢٣– ١٣٢٤ (سلوك ٤ ص ١٣٦). ومن اضطهاد المسيحيين فى سوريا انظر ، أيضـا : .H
Laoust, Le hanbalisme sous Les Mamlouks Bahrides ..., pp 7, 13, 14 , 17 - 18, 32, 55.

(٥١) المقـريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ ص ٢١٦ – ٢٢٨ ، وانظر أيضـا E . Quatremère,
Mémoires géographiques et historiques sur l' Egypte et sur contrées voisines, t. II, Paris, 1811, pp. 244- 250.

(٥٢) المقريزى (خطط) ٤ ص ٢٧٣ ، والمقريزى سلوك ٢ جـ ٢ ص ٥٣٨ – ٥٣٩ .

(٥٣) أبو شامة ٢ ص ٣ وابن جبير ص ٨٨

(٥٤) ابن جبير ص ٤٣

(٥٥) ابن جبير ص ٥٣ – ٥٤ . والدينار المؤمنى كان عملة لمهديى شمال أفريقيا ، وكان مسموحا بتداوله فى مصر .

ومن الرعاية الموجهة من صلاح الدين للهيئات الدينية ، يقول ابن جبير الآتى : كانت مساعدات السلطان وهباته لمساجد القاهرة الضخمة ، وأيضا لمساجدها الصغيرة ، وأضرحتها وأديرتها ومدارسها ، وملاجئها كانت فى غاية الكرم .

(٥٦) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٣٢٦ – ٣٢٧

(٥٧) المقريزى (سلوك) ٢ جـ١ ص ١١٤

(٥٨) اصطلاح "أحباس" = (حبس أوحبوس) وهو مرادف للوقف ، فى فقه المدرسة المالكية . وفى العصر الفاطمى ظهر ديوان يسمى ديوان الأحباس ، وكان يشرف على بعض الأملاك المراوغة .

إضافة إلى إشرافه على الأرض.. والمقريزى يقصـــد « بأحباس ملكيات الأرض » أنها الأرض التى تبرع بها السـلاطين المماليك للوقف ؛ انظر (خطط) ٤ ص ٨٥ وأيضا Poliak, Feudalism ...., p 33;

Cl. Cahen, Le régime des impôts ..., pp 24 - 25 , Waparb

Р. Шарль, *Мусульманское право*, М., 1959, стр. 91). (القانون الإسلامى)

(٥٩) المقريزى خطط ٤ ص ١٩٣

(٦٠) المقريزى خطط ٣ ص ٢٩٩ – ٣٠٠ ، ٤ ص ٢٥١

(٦١) المقريزى خطط ٢ ص ٣٤٣ ، وهذه الخطة كانت من أجل تعزيز التحصينات وربط القلاع التى تقام بالقرب من المراكز التاريخية القديمة « لمصر » والمنوه عنها سابقا : الفسطاط ، والعسكر التى أقامها والى العباسيين ابتداء من ٧٥١ م ثم القطائع التى شيدها ابن طولون ٨٧٩ م ، ثم القاهرة التى تأسست على يد القائد الفاطمى جوهر الصقلى فى ٩٦٩م ، وهذه الخطة تم تنفيذها لبعض الوقت فقط ، انظر : S. Lane- Poole, A history of Egypt in the Middle Ages, p. 195

(٦٢) أبو شامة ١ ص ١٧٤ وابن جبير ص ٨٨

(انظر أيضا القلقشندى ١ ص ٤٦٧ ،

(٦٣) والباقى وهو ٢/٧ المدينة كان موهوبا بمثابة إقطاعات (عماد الدين صـ ٤٢٠ ، أبو شامة ٢ ص ٢٠٩ ، ٢٢٨ ، والمقريزى سلوك ١ جـ ١ ص ١٩٦ .

(٦٤) ابن جبير ص ٤٢ – ٤٣ ، وعماد الدين ص ٤٤٣

(٦٥) أبو شامة ١ص ٢٦٣، وعن مشروعات صلاح الدين فى الأوقاف المخصص دخلها لمدافن فقراء المسلمين ،انظر المقريزى سلوك ١ جـ ٢ ص ٦٣٨

(٦٦) المقريزى سلوك ١ جـ ١ ص ١٣٠ ، وعن الأوقاف التى كانت فى العهد الأيوبى انظر أيضاً المقريزى (خطط) ٤ ص ٨٤ .

(٦٧) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ صـ ٥٢١

(٦٨) ابن عبد الظاهر ص ١٤٤ ، والمقريزى (سلوك) ١ جـ٢ ص ٤٤٥ ، وابن إياس ١ ص ١١١

(٦٩) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٥٥٦

(٧٠) المقريزى (سلوك) ١ ص ٤٦٥

(٧١) المقريزى (سلوك) ٢جـ ١ ص ١٧٣، وعن الأوقاف المقامة فى عهد بيبرس انظر أيضا ابن عبد الظاهر ص ١٠٧ ، ١١٠ ، وابن الفرات ٧ صـ ٨٣ .

(٧٢) المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٥٦٠ ، ٥٧٩ ، وعن الأراضى الموهوبة للوقف فى العهد المملوكى المبكر انظر أيضـا المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ ص ٥٤٨ ، ١ جـ ٣ ص ٨٣٦ ، ٢ جـ ١ ص

٢٤٨ ، ٢ جـ ٢ص ٣١٧ ، ٥٤١، وابن بطوطة ١ ص ١٠٣ ، وابن خلدون ٥ ص ٤٠٩

(٧٣) المقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ ص ٤٦٤ وأيضا ابن خلدون ٥ ص ٤٠٣ ، وابن إياس ١ ص ١١٦ ، ١٢٠

(٧٤) ابن إياس ١ ص ٢٠٦

(٧٥) أبو صالح ص ٢٥٦

(٧٦) أبو صالح ص ١٩٧

(٧٧) أبو صالح ص ١٦٠

(٧٨) أبو صالح ص ٢٥٠

(٧٩) أبو صالح ص ٢٠٦

(٨٠) أبو صالح ص ٢٠٢

81 - S.M. Stern, petitions from the Ayyubid period- BSOAS, vol. XXVII, 1964, pt. I p. 11

(٨٢) أبو صالح ص ١٥ ، ٤١ ، ١٨٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٤

(٨٣) « استرشاد بتفسيرات الفقة الإسلامى » под ред. Н. И. Гродекова, т. II, Ташкент, 1893, стр. 137—163.

(٨٤) المقريزى (خطط) ٤ ص ٨٥ والمقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ ص ٤٧٣

الفصل الخامس

الفلاحون فى عهد الايوبيين والمماليك الأوائل

الفصل الخامس

الفلاحون فى عهدالأيوبيين والمماليك الأوائل

كانت الزراعة هى العمل الرئيسى لسكان مصر فيما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر . وكما كان الوضع فى مصر القديمة ، عندما اعتمدت الزراعة على أسلوب رى الحياض ، كان الوضع أيضا فى العهدين الأيوبى والملوكى . وهذا النظام باختصار شديد ، عبارة عن سدود وخزانات طينية تقام رأسيا على امتداد مجرى نهر النيل ؛ لتهدئ مياهه وتتوقف قليلا ، ويمكن التحكم فيها بدرجة ما (١) .

وعلى حساب احتياطى المياه المتراكم بهذه الطريقة ؛ نمت المعرفة الزراعية ؛ حيث كانت فلاحه الأرض لا تتوقف إلا فى فترات غمرها وامتلكت الزراعة قوة العمل اليدوية ، التى استخدمت طوال آلاف السنين أدوات بدائية مثل الفأس والمحراث والجرافة .. إلخ .

والمصادر لا تقدم الكثير عن وصف أنواع الأراضى وأنواع المحاصيل الصيفية والشتوية ؛ فابن مماتى ومن بعده القلقشندى ثم المقريزى يميزون بين ثلاثة عشر نوعا من التربة التى تكون صالحة للزراعة بدرجات ما (٢) . ويستخدم المقريزى التقويم القبطى التفصيلى فى كلامه عن الأعمال الزراعية (٣) .

ويلاحظ الارتقاء العام لقوى الإنتاج فى هذه الفترة فى مصر ، وهو يتضح فى اتساع مساحة الأراضى المستصلحة عن طريق اتباع الأساليب الجديدة فى رى الأرض ، ويشير المقريزى مستشهدا « بكتاب عجائب البنيان » المجهول المؤلف ، إلى أنه طبقا لأوامر صلاح الدين ، بدأوافى هدم هرم بالجيزة ، لاستخدام حجارته فى إقامة السدود ، وتم استخدامها فعلا فى إقامة أربعين خزانا ، وفى إصلاح إحدى القنوات . وكانت هذه الأعمال تتم تحت قيادة : الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى(٤) . و استولت إقامة وإصلاح مشروعات الرى فى الدلتا على اهتمام خلفاء صلاح الدين (٥)

والأديرة المسيحية كذلك ، كانت تقوم باستصلاح الأراضى الجديدة ، وذلك وفقا لما يرويه أبو صالح عن بداية حكم الأيوبيين ، بأن إقليم قوص كان به ديران مسيحيان ؛ ويقول إن تاجرا غنيا يدعى إسحق من مدينة قفط أهدى لهذين الديرين قطعا من

الأرض ، كان يتم ريها بالسواقي التي يلزم لدورانها أربعون زوجا من الثيران ، وكانت هذه الأرض تزرع بالكتان والقمح والخضروات ، وحول الديرين تم زراعة الكثير من أشجار العنب (٦) .

وبدون أدنى شك ، كان انتشار الإقطاعات الموهوبة ظاهرة إيجابية ؛ فالإقطاعي صاحب الأرض المعين في وظيفة حربية ؛ كان مهتما غاية الاهتمام بتطوير قوى الإنتاج أكثر من جامع الضرائب أو الملتزم في العهد الفاطمي . « وكان* المقطع يرغب بكل كيانه أن يروى أرضه ليستل منها الدخل ، وكان يزرعها حسبما يريد» (٧) . ويواصل ابن مماتي بعد ذلك روايته عن وجود خزانات تابعة لإدارة الإقطاعي(٨) .

ومن الرواية التالية للمقريزي ، من الممكن أن نستنتج أنه كان مسموحا لمالكي الإقطاعات بإنفاق مبلغ محدد على أعمال الري في كل عام « من** الأمور العادية أن تتم الموافقة للمقطع المشترك مع مقطع آخر في دائرة (كورة) واحدة ، أنه إذا أنفق أحدهما مبلغا ما من دخل إقطاعه في إقامة السدود في أي عام فله أن يقتسم هذا المبلغ مع المقطع الآخر ، أو على المقطع الآخر أن يتعهد بإنفاق مبلغ مساويا أنفقه الأول في بناء السدود في السنة التالية » (٩) .

ويستدل من معطيات النابلسي عن بعض النشاطات الاقتصادية لأصحاب الإقطاعات : أن فخر الدين عثمان ، وكان لديه إقطاع في دائرة مرج دموشيه بالفيوم قام بزراعة أرضه حدائق ؛ لأن ضياع جاره المسمى (المفضل) في " منية أقنى " كانت مزروعة حدائق في معظمها (١٠) .

وبهذا الصدد ، يمكن الإشارة إلى أنه تم تعمير بعض المدن المقفرة في شمال شرق

* والمقطع يباشرها بنفسه ويتوفر عليها بفكره ويعلم أنه متى قصر فيما أدى إلى عمارتها فقد سعى في خرابها فيطلق لذلك ماتقتضيه المباشرة وتقتضيه الحوطة فيجني ثمرة ما غرس ويبني في الاستغلال ما أسس - ابن مماتي : قوانين الدواوين صـ ٣٨

** ومن العادة أن المقطع إذا انفصل ، وكان قد أنفق شيئا من مال إقطاعه في عمارة جسر لأجل عمارة السنة التي انتقل الإقطاع فيها - فإن له أن يستعيد من المقطع الثاني نظير ما أنفقه من مال سنته في عمارة سنة غيره . المقريزي خطط جـ ١ صـ ١٨٧

وجنوب شرق حلب بعد الحملة الصليبية الأولى ، عندما تم غزوها على يد الأيوبيين وتحويلها إلى إقطاعات (١١) . وينبغى ملاحظة أن اقتصاد البلاد قد تعرض لخسائر غير قليلة ، من جراء الكوارث الطبيعية ، كالصقيع والثلج والرياح العاصفة وغارات الجراد على المحاصيل ، وكذلك من جراء الأوبئة التى أهلكت الجمال والبغال والحمير (١٢) .

كان أشد هذه الكوارث بؤسا هو انخفاض مستوى مياه النيل فى وقت الفيضان ، الذى كان يؤدى بدوره إلى تقليص المساحة المنزرعة من الأرض ، وإلى العناء المتزايد للشعب المصرى ؛ فبسبب القحط الحادث فى ١٢٠٠ – ١٢٠٢م عندما صار مستوى مياه النيل لايزيد ارتفاعه عن اثنى عشر ذراعا [وعادة ما يكون ١٦ ذراعا] بلغ عدد الموتى من الجوع فى مدينة القاهرة وحدها ١١١ ألفا . حيث زحف إليها الكثير من الفلاحين ، طبقا لما يخبرنا به شاهد العيان لتلك الحوادث : الطبيب عبد اللطيف البغدادى (١٣) . غير أن الكدح الشاق والمتواصل لفلاحى مصر فى السنوات التالية قد محا آثار الكارثة ، وكما يقول المقريزى ؛ فإن الازدهار العظيم قد عاد إلى مصر ، مرة ثانية ، فى عهد السلطان الكامل (١٤) .

وتنسيق نظام الإقطاعات الموهوبة بالتعاون مع السلطة المركزية الموحدة سهل تطوير قوى الإنتاج فى عهد المماليك الأوائل .

فمن المعروف أنه فى عهد بيبرس ، تم إعادة بناء الكثير من القنوات والخزانات ، وأقيمت أيضا خزانات جديدة فى القليوبية (١٥) .

وفى ١٢٨٣ –١٢٨٤م تم حفر قناة فى البحيرة ، ساهم فيها الأمراء والمحاربون ، أصحاب الإقطاعات ؛ كانت فائدتها عظيمة جدا ، فبواسطتها أمكن رى الأراضى التى لم تكن ترو من قبل ؛ كما يقول المقريزى (١٦) . على سبيل المثال : تم فى تلك السنوات فلاحة وتعمير إقليم الناصرية فى الغربية بمبادرة من أمير الحلقة : شمس الدين سنقر السعدى الذى كان قد مُنحه كإقطاع (١٧) .

وكثير من مشروعات الرى ، تم تعميرها وبناؤها فى مصر فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وعلى امتداد هذه الفترة لم تتوقف أعمال شق خليج الإسكندرية ،

التى اشتغل فيها أربعون ألف إنسان ، وفى رواية بعض المصادر الأخرى مائة ألف إنسان ، من أهالى الأقاليم المجاورة الذين تم جمعهم بواسطة أمراء المماليك (١٨) .

ونتيجة لهذا تم إحياء ما يزيد عن مائة ألف فدان ، وظهرت قرى جديدة (الناصرية وغيرها) وازدهرت آلاف الحدائق فى بعض المدن التى كانت قبل ذلك مخربة تماما : « فانطلقت العصافير هنا فى حقول القصب* والقلقاس والسمسم وغيرها »(١٩) .

وفى السنوات من ١٣١٢ – ١٣١٨ م . تم إصلاح الخزانات والقنوات التى تقع بين النيل وحصون القاهرة ، وأنشئت سدود جديدة فى الجيزة ، استخدم فى بنائها أيضا أحجار هرم صغير ، وكذلك أحجار قناة « الظاهر » . وهذا يعنى أن قناة الجيزة التى أنشئت فى عهد صلاح الدين على يد قراقوش الأسدى تم إصلاحها وتوسيعها فى عهد الظاهر بيبرس « واشترك** فى بنائها الأمراء والمحاربون وكان السلطان يراقب العمل بنفسه كما يقول المقريزى(٢٠) .

يروى المقريزى عن أعمال شبيهة فى القاهرة ١٣٢٣ م . « واستدعى الأمراء فلاحيهم من الأقاليم ، فحضروا*** هم وثيرانهم وزحافاتهم ، واشتغلوا فى إقامة قنطرة بين بولاق ومنية الشيرج(٢١)، وفى ١٣٢٤ – ١٣٢٥ م . حفرت قناة من القاهرة حتى سيرياقوس ، انتعشت على شواطئها أربعون قرية وازدهر الكثير من الحدائق التى كانت خربة قبل ذلك (٢٢) وتم إنشاء قنوات وجسور عديدة بهدف إمداد ضواحى القاهرة بمياه الرى فى السنوات التالية (٢٣) .

* واستجدت عليه قرية عرفت بالناصرية فبلغ ما أنشئ عليه زيادة على مائة ألف فدان ونحو ستمائة ساقية وأربعون ... وعمل عليه نحو ألف غيط فصار بعدما كان سباخا سواقى للقصب والقلقاس والسمسم وغيره (للأسف لم نجد فى النسخة التى تحت يدنا .. وانطلقت العصافير من ...المترجم .)المقريزى سلوك ٢ جـ١ صـ١١٢

** وخرج العسكر جميعه والأمراء بمضافيهم العمل فى ذلك ... فكان مهما عظيما ... وصار السلطان يركب إليه كل قليل حتى كمل . المقريزى ، سلوك ٢ جـ ١ صـ١٣٠

*** واستدعى الأمراء فلاحيهم من النواحى فحضروا بالأبقار والجراريف وعمل الجسر من بولاق إلى منية الشيرج – المقريزى سلوك ٢ جـ ١ صـ٢٥١

وفى ١٣٢٨ – ١٣٣٩ م . أنشئت قناة بين الجيزة والشرقية ، ساهم فى بنائها إثنا عشر ألف إنسان (٢٤) وهذه القناة قد خلقت إمكانية بعث الحياة فى الأراضى القاحلة ، التى تحولت بعد ذلك إلى إقطاعات لثلاثمائة محارب (٢٥) ، وأراضى البحيرة التى صارت مياه الرى تصل اليها والتى لم يكن بها قبل ذلك : « سوى* الكثبان الرملية والحلفاء ، ظهرت فيها المبانى والزروع » (٢٦) وكانت أراض فى فوه أعيدت إليها الحياة ، وأراض أخرى تم إصلاحها (٢٧) وتحقق الكثير من أعمال الرى فى أقاليم مصر المختلفة (٢٨) .

ويروى المقريزى أن السلطان الناصر محمد إلى جانب سعيه الدائم** لتوسيع ممتلكاته ، كان يهتم بوضع أراضى الإقطاعات ، وبإمداد ملاك هذه الأراضى بالبذور وغيرها ، وكان « إذا سمع عن جفاف التربة فى أى من الأقاليم سواء كان فى الضواحى أو فى الريف ؛ هزه القلق داوم السؤال للإقطاعيين عن وضع ضياعهم ، ولا يكف عن هذا الاهتمام حتى يوفر الماء اللازم لهذه الأراضى (٢٩) .

وهناك أخبار كثيرة يرويها المقريزى ؛ لاتتناول الإقطاع المصرى فحسب ، بل السورى أيضا ، وهو يكتب عن إحدى القرى الفقيرة فى ضواحى الرملة التى ازدهرت فى بداية القرن الرابع عشر وصارت مقرا لأحد الإقطاعيين ، وقال هذا عن كثير من قرى دمشق وحلب والشواطئ البحرية (٣٠) .

ولا تتضمن مصادرنا إلا القليل من المعلومات عن وضع الجماهير الأساسية من المنتجين المباشرين – (الفلاحين المصريين) ؛ حيث كانت أغلبية هؤلاء الفلاحين خاضعة للملاك الوارثين لإقطاعاتهم والمالكين لأدوات الإنتاج .

أما عن المعلومات الخاصة باقتصاديات الإقطاع فى عهد الدولة الأيوبية فهى لا

* حتى كان الإنسان يتعجب لذلك ، فإنه كان يعهد هذا كله تلال ورمل وحلفاء ، فصار لا يرى فيه قدر ذراع إلا وفيه زرع وبناء . المقريزى سلوك ٢ جـ٢ صـ٥٣٩

** وكان إذا سمع (السلطان الناصر محمد – المترجم) بشراقى بلد أو قرية من القرى ، أهمه ذلك وسأل المقطع بها عن أحوال القرية المذكورة غير مرة بل كلما وقع بصره عليه ولايزال يفحص عن ذلك حتى يتوصل إلى ريها بكل ما تصل قدرته إليه . المقريزى سلوك ٢ جـ ٢ صـ ٥٤٢

تحتل أى مكان تقريبا فى هذه المصادر ، ما عدا بعض المعلومات المأخوذة من « تاريخ الفيوم » التى تنوه عن زراعة قصب السكر وعن أراضى بركة بن شكله ، حيث كانت هناك « أراض * تابعه للديوان تروى بالماء المستخرج بالسواقى التى تعمل بواسطة الأبقار المملوكة للديوان ، وكان يتم عزقها وتنجيلها بفؤوس وثيران مملوكة أيضا للديوان » (٣١) .

وأدى انتشار أراضى الإقطاعات إلى تحويل الفلاحين من حائزين على زمام أراضى حكومية إلى قائمين بزراعة الأراضى الخاضعة للإقطاعى ، وتعبر عن هذه الحقيقة الخاصة بوضع الفلاحين ، كل الأخبار الموجودة فى المصادر تقريبا .

والشكل الاقتصادى لوضع الملكية الإقطاعية للأرض فى مصر ، فى الفترة الخاضعة للدراسة ، كان يتمثل قبل كل شىء فى ضريبة الأرض الحكومية العامة ، التى كانت تسمى « بالخراج » والتى كان يتم جمعها - كما أشرنا سابقا - طبقا للتقويم القمرى / الشمسى (٣٢) .

ويتحدد المقياس العام للخراج بمقدار المساحة الكلية المروية بمياه النيل ، وبما يمكن زرعته فيها من أنواع المحاصيل ، مما يعنى أنها كانت نوعا من أنواع « النموذج البيزنطى الساسانى (٣٣) والمقريزى يحسب المستوى العام لفيضان النيل بستة عشر ذراعاً (بمقياس النيل بالروضة) : « يقال** إنه إذا زاد هذا المستوى بمقدار ذراع واحد فإن خراج مصر يزيد بمقدار مائة ألف دينار »(٣٤).

وهناك ملاحظة هامة لابن مماتى تنص على . أن القياس السنوى لمساحة الأرض المروية فى مصر لم يكن دقيقا دائما ، مما يستتبع زيادة الخراج عن عدد الأفدنة التى تساويه (٣٥) .

* «وكانت هناك أراض تروى بالماء المحمول على أعناق الأبقار بالسواقى الديوانية ، وحرث الأراضى بالأبقار والمحاريث الديوانية » . النابلسى صـ ٢٨

** « وكان إلى ما بعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة ، وكانوا يقولون إذ زاد على ذلك ذراعا واحدا زاد خراج مصر مائة ألف دينار ... فإذا زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدا انقص من الخراج لما يستبحر من الأرض المنخفضة » . المقريزى خطط ١ صـ ١١٠

وقياس أراضى الإقطاعات كان يقوم به ممثلو إدارة الإقطاع (ديوان الإقطاع – المترجم) وهم كانوا يطابقون قوائم دافعى الضرائب المحفوظة لدى المقطعين[٣٦] .

أما الأراضى الحكومية فكان يتم قياسها بواسطة موظفى السلطان ، ثم ترسل السجلات بعد ذلك إلى القاهرة[٣٧] .

والمصادر لا تتضمن أى معطيات عن قياس أراضى الوقف ؛ ذلك لأنها كانت معفاة من الضريبة الحكومية العامة ، بينما كان الفلاحون الذين يقومون بزراعة هذا النوع من الأرض فى ذلك الوقت ، يتحملون بالفعل نفس الفروض الإقطاعية التى يتحملها فلاحو الأنواع الأخرى من الأرض بما فيها الخراج ، وكانت المشاريع الدينية والمشرفون على أراضى أوقافها هم المستفيدون من هذه الإعفاءات (٣٨) .

ودفع الخراج كان يتم إما نقدا أو عينا ، والدفع العينى كان هو الشكل السائد فى صعيد مصر ؛ فابن مماتى يروى أنه عند إنشاء سجلات ديوان القاهرة فى ١١٧٦ – ١١٧٧م – كان فدان الفول يدفع خراجا يتروواح ما بين إردب وإردب وثلث – أما فدان الحمص فيدفع من ثلثى إردب إلى إردب وثلث وفدان العدس يدفع ما يتراوح ما بين ثلث إردب ، وإردب وثلث ، وفدان الكتان كان يدفع فى معظم الأقاليم ثلاثة دنانير وأحيانا أكثر وأحيانا أقل ، ولكن فدان الكتان فى المنوفية ، كان يدفع دينارين وفى ضالاس كان فدان الكتان الواحد يدفع عشرين دينارا ونصف ، أما فدان القرطم فكان يدفع دينارا واحدا ، وفدان البصل أو الثوم يدفع دينارين ، أما فدان عنب « الديب » فكان يدفع دينارا وربع ؛ وكل هذه المحاصيل تعتبر محاصيل شتوية ، أما المحاصيل الصيفية فكان خراج : فدان القصب السورى مقداره دينار واحد ، أما فدان البطيخ أو الشمام أو الفاصوليا فكان يدفع ثلاثة دنانير ، وفدان السمسم أو القطن كان يدفع دينارا واحدا ، أما فدان قصب السكر الناضج فكان يدفع خمسة دنانير ، ويدفع فدان القلقاس أربعة دنانير ، وفدان نبات النيلة يدفع ثلاثة دنانير ، وفدان الفجل واللفت كان يدفع دينارا واحدا ، أما فدان الكرنب فيدفع حوالى دينارين ؛ وخراج الأشجار المثمرة كان يختلف حسب نوع الشجر وعمره ؛ ففى السنة الأولى من غرس الأشجار كان الفدان الواحد يدفع ثلاثة دنانير ، وفدان العنب يدفع خمسة دنانير ، وفدان قصب السكر الفارسى كان يدفع حوالى ثلاثة دنانير[٣٩] .

وإذا كان محصول الفدان من أى نوع من الحبوب غير مرتفع ، فمن الممكن استبدال خراجه ، فمثلا كان إردب القمح يساوى إردبين من الشعير أو إردبا ونصفا من الفول أو إردبا من الحمص أو إردبا ونصف من الجلبان* . وكان إردب الشعير يساوى نصف إردب من القمح أو ثلثي إردب من الفول أو نصف إردب من الحمص أو ثلثي إردب من الجلبان ؛ فبدلا من إردب الفول من الممكن أن يدفع الفدان ثلثي إردب من القمح أو إردبا ونصف من الشعير أو ثلثي إردب من الحمص أو إردبا من الجلبان ، أما إردب الحمص فكان مساويا لإردب من القمح أو لإردبين من الشعير أو لإردب ونصف من الفول أو لإردب ونصف من الجلبان ، وكان إردب الجلبان مساويا لثلثي إردب من القمح أو إردب ونصف من الشعير أو إردب من الفول أو ثلثي إردب من** الحمص(٤٠) .

وتوضح هذه المعطيات ، بكل الاحتمالات ، المعادلات التقريبية للخراج فى كل البلاد ؛ وذلك فى حالة دفعه فى مصر السفلى (الدلتا) بالعين أو النقد ؛ أوعلى العكس من ذلك فى مصر العليا(٤١) .

والمقارنة النموذجية لمعلومات ابن مماتى مع المعطيات المشابهة لها عن مصر فى القرون الهجرية الأولى تعطينا إمكانية « الحديث » عن تخفيف محدد لبعض الأعباء الضرائبية فى العهد الأيوبى(٤٢) .

* حبوب رفيعة كانت تستخدم فى علف الماشية ... المترجم .

** وقد ذكر فى قوانين الدواوين أن قاعدة البدل ، أن يؤخذ عن القمح بدل كل إردب ، من الشعير إردبان ، ومن الفول إردب واحد ونصف ، ومن الحمص إردب ومن الجلبان إردب ونصف .

والشعير يؤخذ عن كل إردب منه : نصف إردب من القمح ، أو ثلثا إردب من الفول أو نصف إردب من الحمص أو ثلثا إردب من الجلبان .

وفى الفول يؤخذ عن كل إردب منه ثلثا إردب من القمح وإردب ونصف إردب من الشعير ، أو ثلثا إردب من الحمص أو إردب من الجلبان .

وفى الحمص يؤخذ عن كل إردب منه : إردب من القمح أو إردبان من الشعير أو إردب ونصف من الفول أو إردب ونصف من الجلبان .

وفى الجلبان يؤخذ عن كل إردب منه : ثلثا إردب من القمح أو إردب ونصف من الشعير أو إردب من الفول أو ثلثا إردب من الحمص . القلقشندى : صبح الأعشى صـ ٤٥٠ - ٤٥١ .

ويواصل ابن مماتى قوله عن إنقاص قيمة الخراج عن محاصيل الحبوب الرئيسية فيقول : إنه فى نهاية ١١٧٢ م كان كل فدان من القمح أو الشعير يدفع حوالى ثلاثة أرادب ولكن فى ١١٧٦م صار يدفع إردبين ونصف فقط (٤٣) .

وتأكيداً لمثل هذا القول يمكن أن نستخدم النص التالى للمقريزى* « كانت الضريبة على فدان القمح فى مصر العليا فى زمن الفاطميين ثلاثة أرادب ، وفي ٥٧٢هـ (١١٧٥ - ١١٧٦ م .) صار كل فدان يدفع خراجا قدره إردبين ونصف ، ولكن بعد ذلك صار الفدان الواحد يدفع إردبين فقط » (٤٤) .

والضريبة الحكومية العامة الأخرى ، كانت تتمثل فيما يسمى بالزكاة - وكان تحصيلها واسع الانتشار ، حيث كانت تجبى من أصحاب المواشى (الرعاة) ، وينوه النابلسى عن الزكاة التى كان يدفعها الملاك عن الثيران الحمراء أو الجاموس أو الكباش أو النعاج ؛ ويضيف أن الزكاة عن النعاج البيضاء كانت أكثر من الزكاة عن غيرها(٤٥) ونجد عنده أيضاً تنويها عن الزكاة المطلوبة عن أشجار العنب والزيتون والطواحين (٤٦) .

ويشير المقريزى إلى أنه كان يوجد فى عهد صلاح الدين فى مصر ديوان يسمى ديوان الزكاة ، وكان تحت إدارة الأمير المعروف . قراقوش الأسدى(٤٧) .

وكانت هناك ضريبة على « رءوس الطيور » المنزلية تسمى المراعى* ومقدارها يتراوح من ٢٠ ، ٣٠ ، ٥٠ ، ٧٠ ، ١٠٠ درهم عن كل مائة طائر (٤٨) ازداد نمو المبلغ الإجمالى لهذه الضريبة بشكل غير متوقع ، وكانت هناك أيضاً ضريبة على الشمع والعسل يدفعها أصحاب المناحل (٤٩) وفيما يبدوا فإن هاتين الضريبتين كانت لهما علاقة « بالمكوس » التى سبق التنويه عنها ، وهى نوع من الضرائب كان يُدفع كل شهر قمرى وتسمى (النقود القمرية) .

* المراعى جارى عن مائتين واثنين وأربعين رأسا تسعة وسبعون درهما ونصف وثمن قطيعة ثلاثين درهما المائة رأس ، عن خمسة وثمانين رأسا خمسة وعشرين درهما . . النابلسى صـ ٣٥ وأيضا : والمربى بها من الفروج للديوان بما فيه من أجرة التربية ثلاثمائة وعشرون فروجا تفصيله للديوان مائتان والمقطعيه مائة وعشرون صـ٣٨ .

ومن المؤسف أن مصادرنا لاتمتلك معطيات دقيقة عن أسلوب توزيع الريع الإقطاعي (الخراج) لأنواع ضرائب الزكاة والابتزازات المختلفة من الحكومة والقابضين على الإقطاعات .

أما فيما يتعلق ببعض أنواع أخرى من الابتزازات المجباه من الفلاحين ، فإن المصادر تمتلك حقائق أكثر تحديدا : فابن مماتي يؤكد أن التبن في مصر كان يقسم إلى ثلاثة أقسام . يقدم الفلاح قسمامنه ليوضع تحت تصرف الحكومة ، ويأخذ الإقطاعي القسم الثاني ، أما القسم الثالث فيحتفظ به الفلاح لنفسه ، وكان سكان الإقطاعات البعيدة عن النهر يُعفون من تسليم هذه الضريبة ، وتتحملها غالباً القرى التي تقع على النهر حيث لا توجد صعوبات كثيرة في تسليمه[٥٠] .

ومن المعروف أن صلاح الدين في ١١٨٣ – ١١٨٤م أعفى أهالي البهنساوية من توريد التبن مقابل ألفين من الدينارات ، ولكن في ١٢٣٥م تسلم الديوان السلطاني من إقليم الفيوم ما مقداره ٥١,٦٥٠ حملا من التبن[٥١] .

وكان هناك تقسيم مصطنع على تقسيم رءوس الطيور إلى ثلاثة أنواع : كان مطبقا في مصر بشكل واسع على امتداد القرون الوسطى ، وبهذا الصدد نجد عند النابلسي بعض الأرقام المناسبة عن معظم قرى الفيوم ، فهو يقول إن قرية استنباط كان يجب عليها أن تقدم ١٢٥٠ طائرا ، يأخذ منها الديوان السلطاني ٤٥٠ طائرا ويأخذ أصحاب الإقطاعات ٨٠٠ طائرا ، أما قرية أبو كسا فكان عليها أن تقدم ١٧٧٠ طائرا : كان نصيب الديوان السلطاني منها ٩٧٠ طائرا ونصيب أصحاب الإقطاعات ٨٠٠ طائرا ، وأما قرية الحمام فكان عليها أن تقدم ٦٠٠ طائرا يقتسمهما الديوان السلطاني والإقطاعي[٥٢] .

وكان على الفلاحين تجاه الدولة صنوف من الواجبات المفروضة : يشير اليها ابن مماتي في كلامه عن بعض أنواع الزكاة (عن بعض محاصيل الحبوب ـ المؤلفة) فيقول « هذه الضريبة تجبى من الفلاحين ولاتجبى من ملاك الأراضي ، وهي تكون مناسبة لدخلهم ، إما نقدا وإما عينا ،فإذا وعد أحد الإقطاعين أحد الفلاحين

بإعفائه من هذه الضريبة فعليه أن يتحمل مسئولية سدادها هو ، وعليه في هذه الحالة أن ينفذ »[٥٣] .

وكان الفلاحون ممنوعين من حيازة أشجار السنط التي تنموعلى حدود أراضيهم ، وعليهم في هذه الحالة أن يقوموا بإمداد الإدارات الحكومية بما تطلبه من أخشاب لازمة لها . (لإقامة المباني أو السفن أو لوازم الوقود أو للبيع ــــ المؤلفة)؛ غير أن المنع لم يكن دائما واجب التنفيذ ، فابن مماتي يقول إن في زمانه كان في إقليم البهنساوية ثلاثة عشر ألف فدان من أراضي الإقطاعيين مفسدة بالأشجار ، وكان في إقليم القوصية ما يساوى مثل هذه المساحة أيضا [٥٤] وعلى النقيض من ذلك يقرر النابلسي أنه طبقا لأوامر السلطان الكامل ـ بعد ظاهرة اختفاء أشجار السنط في قليوب ـ تم تحريم قطع الأشجار ، وأمر أيضا بضرورة عمل إحصاء لعدد أشجار السنط وغيرها في إقليم الجيزة وعدد من الأقاليم الأخرى[٥٥] .

وكانت هناك ضريبة أخرى تسمي الكيالة (مقدار معروف من الحبوب) تقدم للحكومة ، وهي ضريبة خاصة المعينين لحراسة نهر النيل وبعض الموظفين الآخرين ، وهذا مانوه عنه النابلسي [٥٦] .

وعن وجود علاقات مباشرة بين موظفي الحكومة والفلاحين العاملين في أراضي الإقطاعات نستطيع أن نقدم هذه الحقيقة عن المعونات التي تتمثل في إمداد موظفي الحكومة للفلاحين بالتقاوى وذلك عندما تري ضرورة إمدادهم بصنف معين من هذه التقاوى[٥٧] .

وعند تنفيذ بعض أعمال الري ؛ كان على الفلاحين أن يقدموا الدريس اللازم للحيوانات التي تعمل في هذه المشاريع ، وعليهم أيضا أن يقدموا الجرافات وإلا فعليهم أن يقوموا بدفع إتاوات محددة وأحيانا كانوا يطالبون بدفع هذه الإتاوات وغيرها من الإتاوات مباشرة ؛ إذ إن المصادر عادة عندما تشير إلى مثل هذا النوع من الإتاوات تتكلم عنها كمداخيل للإدارات الحكومية أو لأصحاب الأراضي الإقطاعية .

وهكذا فإن سكان إقليم الفيوم فى ١٢٤٣ ـ ١٢٤٤م قدموا كضرائب من هذا النوع طبقا لمرسوم السلطان الصالح مائة جَرافة[٥٨]؛ وذلك لإقامة السدود فى الجيزة والفيوم . وكما سبق القول فإن مساهمات الفلاحين الخاصة ببناء أو إصلاح مشروعات الرى كانت بدون شك مساهمات تتم وفق ظروف خاصة بمصر ، وهذا ما جعلها شكلا أساسيا من أشكال السخرة .

وكانت خزانة الدولة تتسلم ، بشكل استثنائى ، ضريبة على النفوس تسمى ضريبة « الجزية » وهى الضريبة التى يتم جبايتها من الراشدين من غير المسلمين (ما عدا النساء) سواء كانو ا من الفلاحين أو من أهل الحضر ، وكانت الجزية عادة تعادل دينارين عن الشخص الواحد فى السنة وتدفع للخزانة الحكومية بشكل استثنائى .

« والمبلغ الاجمالى لإيرادات هذه الجزية كان ينقص عاما بعد عام ، بسبب اعتناق الناس للإسلام ، حيث يكتب ابن مماتى عن زيارته فيقر أن الجزية نقصت إلى نصف ما كانت عليه قبل ذلك [٥٩] ويوافقه فى هذا المقريزى فى تاريخه عن ١١٩١ م إذ يقول إن كل ماتم جمعه من أموال الجزية فى هذا العام يساوى ثلاثين ألف دينار [٦٠] .

ونجد عند النابلسى معلومات هامة تتعلق بجباية هذه الضريبة حيث يقول : إن الفيوم بأسره فى ١٢٤٣م ، كان به ، ١١٤٢ من غير المسلمين ، وفى زمن إعداد الوثائق عنهم ؛ تغيب ٢٩٢ فردا ، كان منهم ١٥٣ فردا فى مصر السفلى ، ١٣٩ فى مصر العليا ، وكان من بين هؤلاء المتغيبين ٤١ صياداً من صيادى الصحراء ، وبصرف النظر عن هذا ، فإن جباية هذه الضريبة كان يتم بصورة كاملة ؛ إذ إن إيرادات الفيوم من هذه الضريبة كما تدل وثائق هذا العام نفسه كانت ٢٢٨٤ دينارا [٦١] ، وقد اعتبر « كهن » أن هده الحقيقة تثبت مبدأ التكافل الاجتماعى ، معتقدا أن مايرو يه النابلسى يعتبر دليلا غير مباشر على وجود المشاعة القروية[٦٢] . غير أن تحليله هذا يدحضه مايرويه النويرى من أن المسيحيين بشكل خاص هم الذين كانوا يدفعون هذه الجزية حيث يوجدون فى أى مكان[٦٣] .

وبهذه الصورة فإننا لا نملك أية معطيات مباشرة عن وجود المشاعة القروية فى مصر فى العهد الأيوبى .

بيد أن المشاعة* القروية الإقليمية ، كانت حتما موجودة ؛ ووجودها يتأكد كواقع سواء كانت قبل هذا العصر أو بعده (٦٤) .

وهناك حقائق مشابهة أيضا تتعلق بالقرون الأولى للإسلام ، وتتعلق أيضا بالعهد المملوكى ؛ وهى تستدعى افتراض أن التبعية الخاصة للفلاحين فى العهد الأيوبى قد تقبلت شكل الارتباط بالأرض مما يستطيع خضوع المشاعات للإقطاعيين خضوعا كاملا(٦٥) .

وفيما يتعلق بهذا الموضوع ؛ فإن هناك احتمالا كبيرا يجعل من الممكن الموافقة على تقبل فرضية « بفزنير » القائلة : بأن الارتباط بالأرض فى مصر ، الذى كان يقترب من الاستيطان قد تحول إلى الاسترقاق الإقطاعى (٦٦) .

وإننا لنجد فى مصادر العهد الأيوبى بعض الأصداء التى تتردد عن عملية الانفصال الطبقى فى المشاعة القروية ؛ التى كانت بدايتها فى التاريخ القديم فى مصر(٦٧) .

ولا شك أنها امتدت عبر تاريخها مئات السنين ، حيث بدأ قسم من أهل المشاعة البدائية ؛ يفقد الحق فى أن يعمل فى فلاحة أرضه ، ففى " تاريخ الفيوم " نجد إلى

* وعنها يحكى المقريزى خطط ١ صـ١٤١ ... ثم تجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم ، وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم ، وحماياتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فإذا فرغوا نظروا فى كل قرية من الصناع والأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فإذا كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت تكون إلا للرجل الشاب أو المتزوج ، ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك على قدر طاقتهم ، فإن عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال ، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فإن تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم . (آثرنا إيراد هذا النص برغم أن المؤلفة لم تشر إليه ، وذلك لأنه يلقى الضوء على المشاعة القروية ، .. علاوة على ماتقوله المؤلفة فى نفس الهامش .. المترجم) .

جانب كلمة "فلاحين" التى تعنى "مزارعين" هذين المصطلحين : المولين والمرابين [٦٨] وهذان المصطلحان يعنيان بكل الاحتمالات نظام المحاصات ، التى تعنى أن "المحاصة" تعطى لمالك الأرض المستريح ربع محصولها [٦٩] .

وعن وجود الفلاحين الذين لا يملكون أرضا ، ويضطرون لاستئجار أراضى الغير ، يقول ابن مماتى : لقد كانت هناك فى الغربية قطع معينة من الأرض ، تم تسليمها للايجار وكانت ضمن أراضى الإقطاعات ، ولكنها كانت عسيرة الرى ، وفيما يبدو فإنها لم تكن داخلة فى أملاك المشتركات [٧٠] .

وسوف نستدل بمقارنة وثيقتين هامتين احتفظتا بوضوحهما ، عن الحجم الكلى لاقتصاديات ، البلاد فى نهاية القرن الثانى عشر .

الوثيقة الأولى : وقد ضمنها أبو صالح حسب تصوره قائمة بمداخيل أقاليم مصر ، تتعلق بسنة ١٠٩٠ م ، وهذه القائمة تم تأليفها طبقا لأوامر بدر الدين الجمالى وزير الخليفة الفاطمى : المستنصر ، وقام بترجمتها « افتس » مستشهدا بها على مداخيل الضياع[٧١] (fiefs) وللأسف فإن نشر هذه الوثيقة لم يؤد إلى الاستفادة منها عند موازاتها بالنص العربى ، لانه من الأرجح أن الأصل العربى استخدم مصطلح "الإقطاع" فى هذا المكان من الوثيقة ، ولكن الافتراض بأن كل الأراضى المصرية تقريبا (١٢٧٦ دائرة أوكورة) فى عهد المستنصر ١٠٣٦ - ١٠٩٤م قد تحولت إلى إقطاعات وتم منحها للإقطاعين المحاربين ، افتراض لا يتفق وحقيقة الوضع .

ولذا فالأرجح أن مصطلح الإقطاع فى هذه الحالة قد استخدم بدلا من المعنى الأصلى وهو الالتزام ، ومن ثم فإن هذه الوثيقة تقدم مجمل المداخيل المدفوعة عن التزام الأرض عن السنة المشار إليها .

مصر السفلى

الاقليم	جملة الدخل بالدينار
الشرقية	٦٩٤١٢١
المرتاحية	٧٠٣٥٨
الدقهلية	٥٢٧٦١
الأبوانية	٤٧٠٠
جزيرة قويسنا	١٥٩٦٦٤
الغربية	٤٣٠٩٥٥
السمنودية	٢٠٠٦٥٧
المنوفية	١٤٠٩٣٣
فوة	٦٠٨٠
النستراوية	١٤٩١٠
رشيد	٣٠٠٠
جزيرة بنى نصر	٦٢٥٠٨
البحيرة	١٣٩٣١٣
حوف رمسيس	٥٩٠٨٠

جملة مصر السفلى (الدلتا).٢٠٤٠٠٤٠

مصر العليا

الاقليم	جملة الدخل بالدينار
الجيزة	١٢٩٦٤١
أطفيح	٣٩٤٤٩
البوصيرية	٣٩٣٩٠
الفيوم	١٤٥١٦٢
البهنساوية	٢٣٤٨٠١
الأشمونين	١٢٧٦٧٦
أسيوط	٣٠٤٨٣٤
جملة مصر العليا (الصعيد)	١٠٢٠٩٥٣
جملة مصر كلها	٣٠٦٠٩٩٣

ويتضح من هذا الجدول أن جملة مداخيل مصر العليا والسفلى تتألف من ٣٠٠٦٠٩٩٣ دينارا ومن المعروف أن جملة الضرائب العامة فى الإسكندرية ودمياط وتنيس وقوص وأخميم فى هذا العام كانت ٦٠ ألف دينار ، ومن ثم تصبح جملة مداخيل الخزانة الفاطمية فى ١٠٩٠م تساوى ٣١٢٠٩٩٣ ديناراً [٧٢] .

الوثيقة الثانية : وتجدها عند المقريزى نقلا عن القاضى الفاضل ، وهى تقدم تصورا عن حساب مداخيل الضياع (العبرة) الموهوبة كإقطاعات فى الأقاليم المصرية والمدن المختلفة ومؤرخة فى ٢١ شعبان ٥٨٥ هـ ١٧ أكتوبر ١١٨٩م . فبمقدار ما كان نوع الإقطاع (فى معناه الأخير ... المؤلفة) فى هذا الوقت الذى تم فيه توزيع معظم الأراضى المصرية الخاضعة ، بمقدار ما تكون المقارنة نموذجية لهذه القائمة الخاصة بالعصر الفاطمى ، ونتضح تماما مدى مصداقيتها ، بالرغم من أن الحدود الإدارية الرسمية التى جرت فى مصر في المائة سنة الأخيرة كانت قد تغيرت قليلا كما هو واضح .

مصر السفلى

الإقليم	جملة الدخل بالدينار
الإسكندرية	٨١٨٠٣٠
رشيد	٢٠٠٠
البحيرة	١١٥٥٧٦
حوف رمسيس	٩٢٤٠٣
فوة والمزاحمتين	١٠١٢٥
النبراوية	١٥٣٠٥
جزيرة بنى نصر	١١٢٦٤٦
جزيرة قويسنا	١٣٠٥٩٢
الغربية	٦٧٤٦٠٥
السمنودية	٢٤٥٤٧٩
الدنجاوية	٤٦٢٧٤
المنوفية	١٤٨٣٤٧

جملة مصر السفلى (الدلتا) ٢٤١١٣٨٢

مصر العليا

الإقليم	جملة الدخل بالدينار
الجيزة	١٥٣٢٠٤
الأطفيحية	٥٩٧٢٨
البوصيرية	٦٠٤٦٦
الفيوم	١٥٢٦٣٤
البهنساوية	٣٥٢٦٣٤
الواحات	٢٥٠٠٠
الأشمونين	١٤٧٧٣٢
السيوطية	٧٢٥٠٤
الأخميمية	١٠٨٨١٢
القوصية	٣٠٢٥٠٠
أسيوط	٢٥٠٠٠

جملة مصر العليا (الصعيد) ١٥٢٠٢١٤

جملة مصر كلها (٧٣) ٣٩٣١٥٩٦ه

وبإضافة مداخيل بوش والدقهلية والمرتاحية والشرقية التى تبلغ ١١٩٠٩٢٣ دينارا ، يكون الإجمالي العام لهذا الإحصاء بهذه الصورة هو : ١٢٢٥١٩,٥ دينارا (٧٤) .

ويلاحظ المقريزى بوعى أن بيانات مداخيل منفلوط ومنقباد وبعض مصادر الدخل الأخرى لم يرد عنها شيء ، ومهما كان الأمر ، فإن الدخول الحقيقية لمصر فى نهاية حكم صلاح الدين كانت مرتفعة بشكل حقيقي عن مداخيل مصر في العهد الفاطمى فى نهاية القرن الحادى عشر ؛ نتيجة للتدهور الاقتصادى العميق الذى ميز العقدين الأخيرين من حكم هذه السلالة .

وعلاوة على هذا ، من الممكن نقل ثلاثة أرقام من مداخيل الفيوم ؛ اثنين منهما تضمنتهما كتابات أبو صالح أما الثالث فنجده عند المقريزى بعنوان «خراج » الفيوم (٧٥)

فى ١١٧٣ م	١٣٣٢٧٤ دينارا
فى ١١٨٠ م	١٠٠٠٤٦ دينارا
فى ١١٨٩ م	١٥٢٧٠٣ دينارا

وفى هذه الحالة ، فإن زيادة المداخيل تصبح مؤكدة من المعطيات المقدمة ؛ التى تم فيها حساب المداخيل النقدية فقط دون أى مساس بالدخول العينية – التى هى وفقاً لمعطيات «كهن » قد تضاعفت مرتين ونصف فى إقليم الفيوم وحده فى منتصف القرن الثالث عشر متجاوزة بذلك الدخول النقدية (٧٦) .

وفائض إنتاج المنتجين المباشرين (الفلاحين) ، هو الذى كون القسم الأساسى من تزايد الدخول الحكومية فى العهد الأيوبى ، وفى رأينا أن هذا لم يكن نتيجة لتطويق الفلاحين بالنظام الضرائبى ، بل كان نتيجة للارتقاء العام فى قوى الإنتاج ، الذى اشترط تغير شكل الملكية الإقطاعية للأرض ؛ وتمثل فى تخفيف بعض القيود الإقطاعية التى أملتها الضرورة على الطبقة الحاكمة ؛ للخروج من الأزمة الاقتصادية والسياسية التى حدثت فى مصر فى أواخر العهد الفاطمى .

●●●

والحقائق عن وضع الفلاحين المصريين فى العهد المملوكى المبكر ، قليلة جداً ، والموجود منها متناثر إلى أبعد الحدود . ففى رواية النويرى عن الإجراء التقليدى المتبع فى كل عام ، وهى رواية مقدمة منه كشاهد عيان ؛ نجد إشارات صريحة عن وجود الإقطاع فى زمانه ، فهو يسمى الفلاحين : الفلاحين القراريين . التى تعنى « الفلاحين المرتبطين بالأرض » (٧٧) وكمانوهناسابقاً ، فإن تبعية الفلاحين الخاصة للمملوك المقطع ، كانت تتضمن ، بشكل خاص أيضاً ، ضرورة إمداد الإقطاعى المملوكى بأنواع الأطعمة المختلفة اللازمة له وللمقربين منه ، حتى فى أثناء سفره من الإقطاع المعهوده به (٧٨) . ولاتوجد فى مصادرنا أية تفصيلات عن أوضاع فلاحى أراضى الحكومة ، عدا ماذكره الرحالة العربى الشهير : ابن بطوطة عن أيام زيارته الأولى لمصر فى ١٣٢٦ – ١٣٢٧ م . فقد سافر إلى تَرّوّجة ، وهى قرية كانت أرضها تحت تصرف الحكومة ، وكانت قريبة من الإسكندرية ، وقد تعجب من الحصار المضروب على سكانها (٧٩) . ويدل مثل هذا الخبر على مدى استغلال الفلاحين فى مثل هذا النوع من الأرض ذات الأهمية القليلة بالنسبة إلى مساحاتها .

أما فيما يتعلق بفلاحى أراضى الوقف ، فإن مصادر العهد الأيوبى تكاد لاتقترب منه إطلاقاً ، لكننا نجد عند المقريزى ، تحت (١٣٣٩ – ١٣٤٠ م) ، عندما يصف الوقف السلطانى بكلمة « مزارع » (٨٠) لذلك ، فمن الممكن هنا افتراض وجود نظام « المحاصة » .

وفى نفس الوقت نجد بعض المعطيات القليلة ، التى يمكن أن يستدل منها ، على وجود بعض القيود على الاستغلال الحكومى للفلاحين ، وفى العهد المملوكى الأول ، حيث يقول المقريزى عن ١٣٠٧ م : إن الأمير كاراى أثناء وجوده فى مصر العليا استعدادا لسفره إلى السودان – بناء على أمر السلطان – قام باضطهاد الفلاحين فى إقليم إدفو وانتزع منهم قطعان غنمهم . وعندما علم السلطان بهذا الأمر من ذنبه ، لم يتوان لحظة فى استدعاء كراى إلى القاهرة . (٨١) ومن المعروف أنه فى أثناء حكم هذا السلطان نفسه تم عزل بعض عماله فى الأشمونين وبلبيس وبعض أقاليم الدلتا الأخرى ، نظرا لتعسفهم الشديد فى إصدار الأوامر (٨٢) .

وظل الريع الإقطاعي مختلطا ؛ فعلى سبيل المثال ، هناك رواية للمقريزي عن الأمير سالار يثبت فيها أنه حتى مصادرته لإقطاع كان موهوبا لأربعين من أمراء الطبلخانات * ، تسلم من إقطاعه في نفس هذا العام ستة آلاف إردب من الحبوب ، وألف دينار مصري (٨٣) .

كانت السياسة الضريبية في عهد المماليك الأوائل تجاه الفلاحين معتدلة نسبياً بشكل عام ، ففي عهد السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس ، كان مجمل المكوس المجموعة من الفلاحين للموظفين في الدقهلية والمرتاحية قليلاً ؛ لكن الجزية كانت أحياناً تُجمع مرتين (٨٤) .

غير أن هذه الضريبة في ١٢٧٩ م . أي في عهد السلطان قلاوون لم تجمع من المسيحيين إطلاقاً ، وتم جمع ضريبة جديدة من المالكين لأدوات مثل السواقي الدائرة ، وفي ١٢٩٠ م . تم جمع الضرائب المتأخرة المستحقة من الخراج . (٨٥) وكان الإجمالي العام للخراج عالياً جداً وفق معطيات « اشتراوس » ؛ فقد بلغ في ١٢٩٨م ، مايساوي ٨١٦٥٨٤, ١٠ ديناراً (٨٦) وتزايد أيضاً هذا الخراج في عهد السلطان : الناصر محمد . (٨٧) .

والضرائب المجباة من الفلاحين المصريين وملاك الضياع لضرورة التصدي للغارة المغولية الجديدة ؛ معروف لنا أنه تم جمعها مرة واحدة في ١٣٠٠ م . (٨٨) ولانجد في مصادرنا الرئيسية أية إشارة عن هـــذه الضرائب المجباة لهذا الغرض في مصر في نهاية القرن الثالث عشر من الفلاحين المصريين ولكننا نجد هذه الضريبة يتم جبايتها من الفلاحين السوريين وفقاً لما يرويه ابن عبد الظاهر والمقريزي . (٨٩) .

وبعد إعادة التقسيم الذي قام به الناصر محمد ، فإن ضريبة الجزية من المسيحيين الذين يعيشون في مناطق خاضعة للإقطاعات صارت جبايتها تتم لحساب مالكي الإقطاعات ، وليس للخزانة الحكومية ، ويشير النويري بهذا الصدد إلى دسائس

* وكان قد شكاله من انكسار خراجه سته آلاف إردب غلة وألف دينار مصرية .. والأمير سالار يدخل اليه من أجر أملاكه في كل يوم ألف دينار مصرية ومن إقطاعاته وضماناته وحماياته تتمة ألف درهم في اليوم ... وكان إقطاعه أربعين إمرة طبلخانة . المقريزي سلوك٢ جـ ١صـ٥٨ ، ٩٧ ، ٩٩ .

أقباط مصر وسعيهم بكل الوسائل لتقليل عبء الضريبة المستحقة عليهم والمفروضة على إخوانهم فى الدين : فلم يكن بوسع الإقطاعى « أن يفرض رقابة صارمة على انتقال الأهالى ؛ لأن هذا كان من اختصاص موظفى الجهاز الحكومى المتشعب ، وقد سبق الكلام فى هذا الموضوع طبقاً لما قاله النابلسى عن أقباط الفيوم .

« عندما كان الجوالى المعينون* من قبل الديوان السلطانى – يواصل النويرى – هؤلاء المختصون بجباية هـذه الإتاوات ، يتوجهون إلى كافة الأقاليم ويجبون هذه الإتاوات طبقاً للظروف الملائمة ، فإذا كان المسيحى موجودا فى ميناء دمياط وهو من سكان أسوان أو حلب – أو العكس – فإن هؤلاء الجوالى يأخذون منه الجزية فى نفس المكان الذى يوجد فيه ، والموظفون سيقومون بالإخبار عنه فى إقليمه ، وهناك مع هؤلاء يكون الحساب . والآن فإن هذا النظام قد تم القضاء عليه » (٩٠) .

أما فيما يتعلق ببناء الحصون الدفاعية ومشروعات الرى أيضاً ، فإن مايسمى (ضريبة استيفاء دين العمل) كانت تلعب دورا كبيرا ؛ حيث كان عدد من موظفى أمراء المماليك يقومون بجمع هذه الضريبة بالشكل الملائم ، وكانوا يشرفون على أعمال بناء أو إصلاح الخزانات والقنوات السلطانية ، والمصادر تسمى هؤلاء الموظفين « الكاشفين » (٩١) .

وكان السلطان نفسه هو الذى يقوم بتحديد عدد الأشخاص اللازمين للقيام بالأعمال الكبيرة ، فمن أجل إقامة جسر من قليوب حتى دمياط بهدف الحماية من الهجوم المتوقع من الصليبيين من جهة النيل فى ١٣٠٨ – ١٣٠٩ م ؛ تم جمع ثلاثين ألف شخص من الأقاليم المصرية المختلفة ، كما جُمع أيضاً ثلاثمائة زحافة ، وستمائة ثور (٩٢) واستمر العمل بهذا الجسر حوالى شهر ؛ ثم بعد ذلك تم بناء جسر آخر فى اتجاه الإسكندرية (٩٣) .

فى ١٣٣٧م استدعى عدد كبير من الفلاحين بهدف تشييد حظيرة مواشى سلطانية ، كانت غاية فى الفخامة وكانت تقع فى مكان بعيد عن القاهرة « حيث كانت

* لما كانت الجوالى جارية فى الخاص السلطانى ، كانت الحشار (المختصون بجباية هذه الأتاوات – المترجم) تسافر إلى سائر البلاد ويستأدونها منسوبة إلى جهاتها ، وإذا وجد نصرانى فى ثغر دمياط وهو من أهل أسوان أو أهل حلب أو عكس ذلك أخذت منه الجزية فى البلد الذى يوجد فيه ويكتب المباشرون لها وصولا ، فيعتدله ببلده . . . فانفرط ذلك النظام وهى الآن على تقريره . المقريزى سلوك ٢ جـ ١ هـ ١٥٢ – ١٥٤ (وهو هامش بنفس الصفحتين عند النويرى) .

الأرض تقسم إلى قطع* يكدح فيها الفلاحون ليلا ونهاراً في لهب القيظ دون راحة ، وكان هذا يحدث في الصيف » (٩٤) .

أما فيما يخص سوريا ، عن وجود رقابة محددة على معدل الاستغلال الإقطاعي للفلاحين ، فإننا نشير إلى وصية الأمير طنكيز المنوه عنه سابقاً ، وكان يعمل حاكما لدمشق من ١٣١٢ - ١٣٤٠م ، والتي نجدها عند المقريزي معبرا عنها في المقطع التالي :

« منع** هو الأمراء من استخدام الفلاحين والمزارعين في الأعمال الإجبارية في جميع أقاليمهم » (٩٥) .

ونشير مرة أخرى إلى أن المقريزي نوه في هذا المقطع بمصطلحي « مزارع وفلاح » جنباً إلى جنب ، مما يؤكد أنهما مختلفان في المعنى .

وطالما أن وصية الأمير طنكيز كانت قائمة على أساس مرسوم السطان : الناصر محمد ، الخاص بكل سوريا (٩٦) فيمكن أن نستدل منها على أن هذا كان ينطبق على هذين النوعين من الفلاحين ؛ ليس في دمشق وحدها؛ بل في كل أنحاء المناطق السورية .

ومما يقوله المقريزي في هذا المقطع ، يمكن الافتراض أيضاً : أن هذا كان إشارة لعملية تحلل المشاعة القروية التي كانت في سوريا كما في مصر .

والملمح الرئيسي للعمل في الريف المملوكي ؛ هو خلوه من المحاصصين ، ومن العبيد كما سيجرى الحديث عن ذلك فيما بعد ، ولكن الفلاحين الأقنان هم الذين كانوا موجودين ، ذلك إلى جانب إقطاعية هرمية مركبة ذات سيادة مركزية وإيديولوجية دينية دلت على نضج العلاقات الإقطاعية في مصر إبتداء من القرن الثاني عشر حتى القرن الرابع عشر .

* وفيها استدعى السلطان من بلاد الصعيد ألفي رأس من الضأن واستدعى من الوجه البحري بمثلها وشرع في عمل حوش ... على موضع من قلعة الجبل ورسم لوالي القاهرة بتسخير العامة فقسمت عليهم الأرض قطعاً معينة لكل واحد منهم ، فجدّوا في العمل ليلاً ونهاراً . . ولا مكنهم الأستادار من الاستراحة . . . كان الوقت صيفا حاراً فهلك كثير منهم في العمل . المقريزي سلوك ٢ جـ ٢ صـ ٤٣٣ - ٤٤٤ .

** منع الأمراء من تسخير الفلاحين والمزارعين في أعمالهم (أقاليمهم - المترجم) . المقريزي سلوك ٢ جـ٢ صـ ٥١١ .

هوامش الفصل الخامس

١ – انظر على سبيل المثال : T. Н. Савельева, *Аграрный строй Египта в период Древнего царства, М.*, 1962, стр. 36.

والفيوم كانت مستثناة من نظام الرى حيث كان لها وضع خاص . انظر النويرى ٨ صـ ٢٤٦ .

٢ – ابن مماتى صـ ٢٨ – ٢٩ ، والمقريزى (خطط) ١ صـ ١٦٢ ، والقلقشندى ٢ صـ ٤٥٠ - ٤٥٢ وانظر أيضاً النويرى ٨ صـ ٢٤٧ .

٣ – المقريزى (خطط) ١ صـ ١٦٢ – ١٦٧ .

٤ – المقريزى (خطط) ١ صـ ١٩٣، ٣ صـ ١٨٤ ، ٢٤٦

٥ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ١ صـ ٧٤ ، ٢٤١ ، جـ ٢ صـ ٣٠٠ ، ٣٤١ والمقريزى (خطط) ١ صـ ٣٥٤ وأبو الفدا ٣ صـ ١٦٩ .

٦ – أبو صالح صـ ٢٨١ وينبغى أن نلاحظ باهتمام ، الأخبار المشابهة عند « الحاج » البيزنطى (أيون فوكيه) ، الذى كان يتجول فى فلسطين فى سبعينات القرن الثانى عشر ، وهى تتعلق بالمناطق القاحلة القريبة من أريحا ، حيث كانت هناك عدة أديرة مسيحية « ومع هذا فإن هذه المناطق الآن قد صارت مروية وتحولت إلى بساتين للأديرة القائمة هناك فى هذه الأماكن الصحراوية ، إذ أن هذه الأرض المنهوكة قد تم تقسيمها وتوزيعها على كهان الأديرة ، فأصبحت كلها مغطاه بأشجار العنب ، ولذا فإن الرهبان قد صاروا يقطفون وافر الثمار لأنفسهم » « وفوكيه يروى باختصار أيضاً عن المدن والبلاد القريبة الممتدة من أريحا حتى القدس ، وأيضاً سوريا وفينيقية ، وعن الأماكن المقدسة فى فلسطين فى نهاية القرن الثانى عشر » منشورة بنسخة أصلية فى ترجمة روسية فى المقتطفات الأرثوذكسية الفلسطينية مجلد ٨ جزء ٢ – ١٨٨٩ صـ ٤٩ .

٧ – ابن مماتى صـ ٣٧ .

٨ – نفس المصدر صـ ٣٢ .

٩ – المقريزى خطط ١ صـ ١٦٣ والقلقشندى ٣ صـ ٤٤٩ .

١٠ – النابلسى صـ ١٥١ ، ١٧٢ .

١١ – المقريزى سلوك ١ جـ ٦٢ صـ ، ١٥٨ ،

J . Sourdel - Thomine ,Le peuplement de la région des ((villes morte)) (Syrie du Nord)à l'époque ayyubide ((Arabica)) t . I , fasc 2,1954

١٢ – وحوادث من هذا النوع تبدو بوضوح فى المصادر ، فكما يقول المقريزى عن مصر ، فى بداية حكم صلاح الدين « لقد تزايدت الأضرار الناجمة عن الجراد الذى يلتهم ثمار البلح ، وقصب السكر وثمار الأشجار وكل هذه الأعمال التى نجم عنها هلاك مئات الأفدنه المزروعة بقصب السكر . . ، سلوك ١ جـ ١ صـ ٤٥ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ١١٩ ، ١٣١ ، ١٣٤جـ ٢ (سلوك) صـ ٤٢٢ ، جـ ٣ صـ ٨١٤ – ٨١٥ .

١٣ - عبد اللطيف : صـ ٣٦٠ - ٤١٢ ، وأبو شامة ٢ صـ ٢٣٩ ، وابن تغريبردى (نجوم) ٦ صـ ١٧٣ - ١٧٤ ، والمقريزى سلوك ١ جـ ١ صـ ١٥٦- ١٥٨ ، والمقريزى (إغاثة) صـ ٢٨ - ٣٠

١٤ - المقريزى (خطط) ٤ صـ ٢١٥ .

١٥ - ابن عبد الظاهر صـ ٢١٠ والمقريزى سلوك ١ جـ ٢ صـ ٤٤٦ ، ٥١٠ ، ٥٦١ ، ٦٣٩ ، ٢ جـ ١ صـ ٤٩ ، ١٣٠ وابن الفرات ٧ صـ ٨٣ .

١٦ - المقريزى (سـلـوك) ١جـ ٣ صـ ٧١٢ ، وأيـضـاً أبو الفدا ٤ صـ ١٧ وابن الفرات ٧ صـ ٢٥٩ - ٢٦٠ .

١٧ - المقريزى (خطـط) ١ صـ ٤٠٢ وابـن إيـاس (مـايتـعلـق بـهذه الحـقـبة تحت (١٣٢٥ - ١٣٢٦ م) ، (١ - ١٦٤)

١٨ - المقريزى (سلوك) ٢جـ ٢ صـ ٥٢٨ وأنونم صـ ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٩٧ (بالروسية) .

١٩ - المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ صـ ١١٢ .

٢٠ - نفس المصدر صـ ١٢٤ ، ١٣٠ .

٢١ - نفس المصدر صـ ٢٥١ .

٢٢ - المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١صـ ٢٦١ - ٢٦٢ ، جـ ٢ صـ ٥٣٩ وابن تغريبردى (نجوم) ٩ صـ ٢١٨ .

٢٣ - ابن دوبيرار صـ ٣٢٠ - ٣٢١ ، وأنونم صـ ١٧٥ (بالروسية)

٢٤ - المقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ صـ ٤٦٦ - ٤٦٧ .

٢٥ - نفس المصدر صـ ٥٤١ .

٢٦ - المقريزى سلوك ٢جـ ٢صـ ٥٣٩ .

٢٧ - ابن تغريبردى نجوم ٩ صـ ١٩١.

٢٨ - المقريزى (سلوك) ٢جـ ١صـ ٢٣١ ، ٣٠٢ ، ٢٠٠ صـ ٢٨٥ ، ٤٥١ ، ٥٤١ جـ ٣ صـ ٩٤٦ وعن تعمير الأراضى الجديدة والأراضى المطمورة التى لم تكن نادرة الحدوث فى هذا العصر والتى يتكلم عنها أكثر من مرة فى حقائقه المقدمة فى :

some notes on the feudal system of the mamluks. JRAS , 1937 pt . 1 . p . 107

٢٩ - المقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ صـ ٥٤٢ والمقريزى خطط ١ صـ١٤٦ -١٤٧

٣٠ - المقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ صـ ٥٤٢ : والمماليك مهدوا السبيل لإنماش قوى الإنتاج فى المناطق الخاضعة لهم فى أرمينيا الصغرى .. وهكذا ، فإن الناصر محمد قد وضع تحت سلطة نائبه فى دمشق : الأمير طنكيز ثلاث قرى مخربة فى اقليم « سيس » وطبقاً لأوامر هذا الأمير توجهت من حماه وحمص وطرابلس قوافل ومعها ٢٠ ألف جوالا من الحبوب لبذرها هناك ، وأيضاً أخذوا معهم الثيران وغيرها ، وصـارت هذه القرى مزروعة بعد ذلك (المقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ صـ ٤٣٦ ، ٤٦٧)

٣١ - النابلسى صـ ٢٨ - ٢٩

٣٢ – انظر Cl . Cahen , contribution àl'étude des impôts dans L'Egypte médiévale, JESHO , V ,1962 , pt 3 , p . 255 .

33 - Cl . Cahen , le régime des impôts ... , p . 14

. ونجد عند النابلسي الإجمالي العام لخراج كافة الأقاليم أو نوائرها المختلفة مستعملاً اصطلاح « ارتفاع » . وبهذا فإن ارتفاع الفيوم في سنة ١٢٤٢ قد بلغ مجمله ٢٠٧٤٧دينارا ، ١٤٠٧٣١ إردبا من الحبوب صـ ٢٣ ، أما مصطلح « خراج المنجز » الذي يتحدد عند « ك . كاين » بالخراج المأخوذ على أراضي الحبوب والفول ، والخراج على حقول العنب وقصب السكر والبساتين « وخراج الراتب » وهو على غير الأعمال الزراعية ، أما خراج « الزرع » فهو ثمار البلح ويسمى خراج النخل . . انظر

Cl. Cahen , contribution àl'étude des impôts . . . pp. 255 - 256.

وعن أنواع الخراج انظر النويري ٨ صـ ٢٥٣ – ٢٥٤.

٣٤ – المقريزي (خطط) ١ صـ ٩٦ – ٩٧ ، ١٤٢ .

٣٥ – ابن مماتي صـ ١٥ وانظر على سبيل المثال عند النابلسي مايقوله من أن مجموع ماأخذ من الثوم كخراج من كل الفيوم ، كان فقط ثلاثة وعشرون قنطارا بينما ماأنتج منه في ذلك الوقت في إقليم واحد فقط وهو « مطر طارس » قد بلغ ٢٠٦٢ قنطارا . النابلسي (صـ ١٥٧) .

٣٦ – القلقشندي ٣ صـ ٤٥٨ .

٣٧ – المقريزي (خطط) ١ صـ ١٣٨ .

٣٨ – وفي الظروف الاستثنائية ، كان الريع الإقطاعي من أراضي الوقف يتم الاستيلاء عليه لمصلحة الحكومة ، وهكذا في ١١٩٩/١٢٠٠ تم تحويل مداخيل الوقف المخصص للأغراض الدينية في كل من مكة والمدينة للأغراض الحربية (المقريزي سلوك ١ جـ ١ صـ ١٥١) .

٣٩ – ابن مماتي صـ٢٩ – ٣١ .

٤٠ – نفس المصدر صـ ٣٥ .

٤١ – انظر على سبيل المثال : القلقشندي ٣ صـ ٤٥٣ .

42 - C . H. Becker , Beitrage zur Geschichte Agyptens unter dem Islam , H . II , Strassburg , 1903, S . 116 - 117 .

٤٣ – ابن مماتي صـ ٢٩ .

٤٤ – المقريزي (خطط) ١ صـ ١٩٣ .

٤٥ – النابلسي صـ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٥ ، ٥٦ .... إلخ

٤٦ – نفس المصدر صـ٢٤ ، ٦٤ ، ١١٣ ، ١٤٢ ، وابن مماتي ، يكتب عن الزكاة خلاف ماكتبه النابلسي ، فهو يقول إنها لاتؤخذ عن الحيوانات المنزلية (في المعالف أو الاصطبلات) ولامن قطعان الرعاة الرحل ويقدم الزكاة على أنها « تنازل » عن نسبة محددة من الرؤوس طبقاً للحقوق الشرعية

التقليدية صـ ١٩ – ٢٠ . وبدون شك فإن المصادر تستخدم هذا النوع (الزكاة) حتى فى العصر الأيوبى . انظر . Cl . Cahen, le régime des impôts ...... pp 20- 21

٤٧ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ١ صـ ١٣١ – ١٣٢ والمقريزى (خطط) ١صـ ١٧٥ . والزكاة كان يتم جمعها من السكان الرحل فى « برقة » – فى شمال الهضبة المحاطة بالصحراء الليبية ، وكانوا يأخذون مايتناسب مع عدد الأغنام والجمال الموجودة فى المرعى فى نفس الوقت فى البحيرة ، وكان دفع الزكاة تعبيرا أساسيا عن خضوع برقة إلى مصر . (المقريزى سلوك ١جـ١ صـ ٤٨) .

٤٨ – النابلسى ص ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ....الخ .

٤٩ – نفس المصدر ٢٩ ، ٣٠....... الخ وابن مماتى صـ ٢٠ .

٥٠ – ابن مماتى صـ ١٧ .

٥١ – المقريزى (سلوك) ١جـ ١ صـ ٨٥ والنابلسى صـ ٢٤ .

٥٢ – النابلسى صـ ٢٤ ، ٤٦ ، ٥٣

٥٣ – ابن مماتى صـ ٢٠

٥٤ – نفس المصدر صـ ١٧ – ١٨ .

55 - CL . Cahen, Quelques aspects de l' administration égyptienne médiévale vus par un de ses fonctionnaires , p . 110 ; Ch. A. Owen, Scandal in the·egyptian treasury .

A portion of the luma al qawanin of Uthman ibn Ibrahim al Nabulusi.- . Chicago , vol . xiv, 1955. No 2 . pp »Journal of Near Eastern Studies« 72 - 73

٥٦ – النابلسى صـ ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٧٥ .... الخ

٥٧ – نفس المصدر صـ ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ .... الخ .

٥٨ – نفس المصدر صـ ١٧٨ .

٥٩ – ابن مماتى صـ ١٩ وهنا يكتب مرة أخرى عن الجزية ويقول إنما يتم جمعها فقط من مصر ، والإسكندرية ، وأخميم « والأماكن الأخرى لا يأخذون منها شيئاً » غير أنه بعد ذلك يقدم أخبارا عن الفيوم تتناقض مع تأكيداته الأولى . انظر أيضاً

Cl . Cahen . Contribution àl'étude des impôts ... , p . 255 .

٦٠ – المقريزى خطط ١ صـ ١٧٤ – ١٧٥ .

٦١ – النابلسى صـ ٢٤.

62 - Cl . Cahen , Le régime des impôts ... pp . 21 - 22 .

٦٣ – انظر نهاية هذا الفصل فى هذا الكتاب .

٦٤ – المقريزى (خطط) ١ صـ ١٢٣ .

يحكى عن الزمن الأول بعد الغزو العربى ، أن توزيع مبالغ ضرائب الأرض لكل الكور كان

يحدث فى مركز لحضور رؤساء الجماعات القروية ، ويتم توزيع الضرائب على الدافعين المختلفين من أعضاء الجماعات القروية » وعمرو بن العاص بعد أن وطد وضعه ، أبقى على النظام البيزنطى فى فرض الضرائب على القبط ، وكان إجمالى هذه الضريبة يتغير : فإذا كانت القرية أحوالها مزدهرة وعدد سكانها يتزايد ،فإن الضرائب المأخوذة منها تتزايد أيضاً ، أما إذا كان عدد سكانها يتقلص وأناسها يصبحون أقل ، فإن ضرائبها أيضاً تقل ، والموظفون يجتمعون مع شيوخ القرى ليحددوا بكل دقة وضع القرية ، وهل أهلها ميسورون أم مفلسون ،فإذا قرروا زيادة الضرائب فهذا يستتبع أن يقوموا بتوزيعه على مختلف الدوائر (الكور) وبعد ذلك يجتمعون مع رؤساء القرى ويوزعون الضرائب بما يتفق وحالات الأهالى ويسر المالكين .

ثم بعد ذلك يجتمع أهالى كل قرية ويحددون نصيب خراجه ومساحة الأرض المنزرعة ويخصمون من الإجمالى العام للأرض فدانين يخصصان إما للكنائس أو الحمامات أو السفن ، وبعض من المبالغ أيضاً لضمان حياة المسلمين وعواملهم – فى حالة قدومهم – وفى نهاية الأمر يعدون كم من الأهالى يعملون كحرفيين أو مأجورين وتتحدد عليهم الضرائب وفق قدراتهم ، وإذا كان هناك غرباء فإنه يتم تحديد الضريبة عليهم أيضاً بكل دقة .... ثم بعد ذلك المبلغ الباقى من الخراج ويتم توزيعه بينهم بما يتفق ومساحة الأرض . انظر أيضاً C. Becker , Beiträge ... s . 90 - 91

وغالباً مانجد عند النابلسى تنويها بخفراء ونجارى القرى بما يمكن اعتبارهم أشخاصاً موظفين فى القرية .. انظر النويرى ٨ صـ ٢٤٧ .

٦٥ – وفى المخطوطات الإغريقية والعربية للقرون الإسلامية الأولى مايدل على انتشار « محددات الهويات »

66– С. В. Певзнер, *Нкта*, стр. 179

وفيه يتحدث عن أقاليم سوريا وشمال العراق ويقول : إن الضرائب الأساسية على الفلاحين كانت هناك شبيهة بالضرائب المصرية وإن الخضوع المتمثل فى التبعية القنية كان متشابها هنا وهناك .

ويتأكد بصورة مقنعة وجود « تثبيت للفلاحين فى الأرض » فى سوريا حتى العصر الأيوبى ، وذلك من خلال المدونات السورية فى بداية القرن الحادى عشر ، وأيضاً تكون البطريركيات الدونية ذات الطبيعة الموحدة ، ويظهر هذا أيضاً من معطيات أبو شامة انظر A . Q rkodof ekwi

(ياكوبونسكى : العراق فى الميزان .... بالروسية)

« ملامح النظام الاجتماعى فى الخلافة العباسية » ، وأيضاً ، « أعمال الثورة الأولى للعرب » ١٩٣٧ صـ ٤٤ ، وأبو شامة ١ صـ ١٨٦ – ١٨٧ Cl . Cahen , Fiscalité, propriété, antagonismes sociaux en Haute - mésopotamie au temps des premiers Abbasides d'après Danys de Tell - Mahré -((Arabica)) , I , 1954 , fasc. II , pp . 147 - 148; ((Décrets mamelouks de Syrie)) . - ((Bulletin d.études Orientales)) , t . II,le Caire , 1932. p . 10 .

٦٧ – انظر على سبيل المثال:النظام الاجتماعي في مصر الهيلينية : B. B. Cтpyвe;
في « قضايا تاريخية » ١٩٦٢ رقم ٢ صـ ٧٦ بالروسية (استروفة) .
٦٨ – النابلسي صـ ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٤١ .
٦٩ – انظر ياكوبوفسكي A. Ю. Якубовский;
« الإيجارات المستخدمة في العراق في القرن الثامن الميلادي »« الاستشراق السوفيتي » بالروسية مجلد ٤ – الصادر ١٩٤٧ صـ ١٧١ – ١٧٢ .
٧٠ – ابن مماتي صـ ١٦ .
٧١ – أبو صالح صـ ١٥ .
٧٢ – نفس المصدر صـ ١٥ .
٧٣ – المقريزي (خطط) ١ صـ ١٣٩ – ١٤١ ، والإسكندرية ورشيد وبعض الموانىء الكبيرة الأخرى – سواء في البحر المتوسط أو البحر الأحمر – غير منوه عنها هنا ، والقاهرة التي لها حكامها الخصوصيون لاتدخل ضمن تكوين الأقاليم (انظر المقريزي خطط ١ صـ ١١٨ – ١١٩) وانظر .
C . H . Becker , Egypten , - EI , II , S. 12 - 13 .
وعلى كافة الاحتمالات فإن المقصود هنا بالدينارات هو الدينارات العادية ، إذ أن المصادر تحدد أن مداخيل الأجناد المحاربين في زمن الأيوبيين كان غالباً مايدل عليها الوحدة النقدية الاصطلاحية التي تسمى بالدنانير الحربية (الدينار الجيوشي ، المقريزي) والتي كانت تساوي الدينارات العادية : انظر Cl . Cahen, le régime des impôts . . . p . 12 .
ويتفق مع هذا ما يقوله ابن مماتي صـ ٣٥ عن وجود وحدات نقدية اصطلاحية أخرى ، ولكن سانوه عنه ابن مماتي لم نجده الاعنده فقط مرة واحدة مستخدما اياه بشكل محدود جدا ومداخيل فرق الأجناد المحاربين المصريين التي تسمى القاطاني) Gibb, The armies of Saladin - p . 76 كان دينارها مساوياً لنصف الدينار الحربي ، أما مداخيل الفرق المعروفة « بالجوزات » هم ورؤساؤهم ، (وكثير منهم على الأرجح من الفرق السودانية التي تم نقلها للعمل بالجيش الأيوبي بعد تسريح الجيش الفاطمي) كان دينارهم يساوي ربع دينار (عادي) ، ومداخيل الفرق البدوية – عدا قبيلة شعر كان دينارها لايساوي إلا دينار عادي . . انظر القلقشندي ٣ صـ ٤٤٣ .
٧٤ – المقريزي (خطط) ١ صـ ١٣٩ – ١٤٠ ، وفي هذا التعداد يتضح أن هناك معطيات ما إما محرفة أو محذوفة ، إذ أن الإجمالي العام للاحصاء الذي يحدده المقريزي إما ٤,٦٥٣٠٢٩ أو (٤٦٥٣٠١٩) ديناراً (خطط) ١ صـ ١٤٠ – ١٦١ .
٧٥ – أبو صالح صـ ٢٠٤ ، والمقريزي (خطط) ١ صـ ٤٠٣ .
76 - C l . Cahen , Le régime des impôts ... , p . 15 .

٧٧ - النويرى ٨ صـ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

٧٨ - نفس المصدر صـ ٢٤٥ .

٧٩ - ابن بطوطة ١ صـ ٤٨ - ٤٩ ، من المكن أن تتضح الدلاله أكثر ، بالمقارنة مع أملاك الإقطاعات ذات الشكل القاسي للتبعية الفلاحية (الذين يعملون فى الأراضى الحكومية ، ففى الكلمات الآتية للمقريزى والمتعلقة بحاكم الشرقية والغربية الأمير عيد مور الشمسى (المتوفى ١٣٠٢ / ١٣٠٣) « لم يتجاسر أحد من الفلاحين في الشرقية أو الغربية في عهده .. أن يرتدى رداء أسود أو أن يركب حصانا أو أن يتمنطق بسيف أو يحمل فى يده عصا ذات رأس حديد ية (سلوك) ١جـ٣ صـ ٩٦٨

٨٠ - المقريزى سلوك ٢ جـ٢ صـ ٤٧٣ - ٤٧٤ والمقريزى (خطط) ٣ صـ ١٨٥ والنويرى ٨ صـ ٢٤٧ ، ٢٥١

٨١ - المقريزى (سلوك) ٢جـ ١ صـ ٣٦ - ٣٧ .

٨٢ - ابن دويدار صـ ٢٧٨ .

٨٣ - المقريزى سلوك ٢ جـ ١ صـ ٥٨ ، ٩٧ - ٩٩ وابن خلدون ٥ صـ ٤٢٥ .

٨٤ - المقريزى سلوك ١ جـ ٢صـ ٥٢٧ - ٥٢٨ ، ٦٤٠

٨٥ - المقريزى سلوك ١ جـ ٣ صـ ٦٦٤ ، ٧٥٩ .

86 - E . Strauss , prix et salaires ~Al'époque Mamlouke , -RÉI , année 1949 , 1950 . p 50.

٨٧ - المقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ صـ ٥٤٢ .

٨٨ - المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ صـ ٨٩٧ ، ٩٠٦ - ٩٠٧ .

٨٩ - وهكذا ، فإن بيبرس فى ١٢٦٣ ، قد أجبر أهالى المناطق الساحلية السورية على أن يدفعوا له (النقود اللازمة للحياة) نيابة عن مواطنيهم الذين قتلوا ، ولم يتبق للورثة شيئاً وأمرهم أيضاً بالكف عن استخدام أية نقود حكومية ، تلك النقود التى كانت منهوبة ، على مايبدو ، من الصليبين أو من مواطنيهم هؤلاء ،

« وبهذه الطريقة استطاع أن يجبى مبلغاً كبيرا الى حد مامن دوائر نابلس والشواطىء » (ابن عبد الظاهر صـ ١٧٢ ، والمقريزى سلوك ١ جـ ٢ صـ ٤٨٨)

وفى ١٢٧٣ فرض بيبرس على فلاحى كل قرية أن ينهضوا لتقديم عدد من الخيالة بقدر ماتستطيعه كل قرية (سلوك) ١جـ ٢ صـ ٦١٠ ، وفى ١٢٧٧ - ١٢٧٨ أخذ ضريبة من أهالى أقاليم دمشق بلغت مليون درهم لإمداد الخيالة (نفس المصدر صـ ٦٤٠) .

فى ١٢٩٠ وطبقا لأوامره ، فرض على كل أهالى المرج ، وغوطة دمشق ، وقلاع بعلبك من ٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ درهم من كل شخص (سلوك) ١جـ٣ صـ ٧٥٤ ، وكان الابتزاز الباهظ الذى تم جمعه فى ١٣٠٠ (أنونم صـ ٨٢ « من السلوك » ١جـ ٢ صـ ٩٠٦ - ٩٠٧)

وأيضاً ، فإن الناصر محمد فى بداية تنفيذ مسح الأراضى قد انتزع مكوسا كبيرة ، وبقية

المستحقات عن السنوات الماضية (من ١٢٩٨ إلى ١٣١٤) سلوك ٢ جـ ١ صـ ١٣٦ .

٩٠ – المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ صـ ١٥٢ – ١٥٤ ، والنويرى ٨ صـ ٢٤٢ – ٢٤٤ .

٩١ – انظر على سبيل المثال القلقشندى ٤ صـ ٦٥ .

٩٢ – المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ صـ ٤٨ .

٩٣ – نفس المصدر ٢ جـ ١ صـ ٤٩ .

٩٤ – المقريزى سلوك ٢ جـ ٢ صـ ٤٣٣ – ٤٣٤ ، والمعطيات فى مجموعها بجانب الأخبار السابق التنوية عنها عن مشروعات الرى تدحض بكل تأكيد مايؤكده بولياك عن السخرة فى مصر المملوكية وكونها ظاهرة نادرة الوجود . ((la féodalité islamique)), RÉI, X, 1936, p . 252

٩٥ – المقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ صـ ٥١١ .

٩٦ – نفس المصدر ٢ جـ ١ صـ ١٣٦ .

الفصل السادس

الملكية الإقطاعية فى عهد المماليك الأواخر

الفصل السادس

الملكية الإقطاعية في عهد المماليك الأواخر

المرحلة التالية لتطور الملكية الإقطاعية الزراعية في مصر حدثت أساساً : في فترة حكم السلالة المملوكية الثانية ، الذين يسمون عادة بالشراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) . ففي هذه الفترة صارت الفئة الإقطاعية الحاكمة المتمتعة برعاية السلاطين ، تتكون - على الأغلب من العبيد السابقين ذى الأصل (الأديجى / الشركسى) . فإفقار السهوب الصيدية جعلها قبل كل شيء المصدر الأساسي لتصدير العبيد ، وبسبب الحروب التي دارت بين الحكام المغوليين المعروفين « بالموت الأسود » (١٣٤٦ - ١٣٤٧ م) وبسبب غزوات تيمور التي دفعت مغول القرن الذهبي (ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر في شبه جزيرة القرم) إلى اختطاف سكان شمال غرب القوقاز وتحويلهم إلى عبيد ، ليس فقط بسبب خراب هذه الأقاليم ، ولكن لأنهم كانوا أيضاً واقعين تحت سيطرتهم في ذلك الوقت [١]

ولم تتعرض الهرمية الحربية الزراعية المملوكية ، حتى هذا الوقت لأية تغيرات خاصة ، وينبغي ملاحظة أن المصادر ابتداء من نهاية القرن الرابع عشر فقط بدأت تميز مجموعة المماليك السلاطين وتطلق عليهم « المماليك القرانيص » . (إ . هامر يسميهم بالقراصنة) [٢] ولكن أغلب الباحثين يوافقون على استخدام صفة الكرانيص ؛ لأنها تعني المماليك الخبراء في الأعمال الحربية والمتلكين للدخول الكبيرة ، والذين آلوا للسلطان الحاكم بعد ماكانوا لأسلافه [٣] .

ولقب الأمير - يعني قبل كل شيء : الارتباط بشغل وظيفة رئاسية سواء في الجيش أو في امتلاك الأراضي ، ومنذ ذلك الوقت صار هذا اللقب يرتبط عادة بمن له وظيفة محددة في البلاط . أما الوظائف الإدارية الأقل أهمية فقد ظلت أساساً في يد السكان الأصليين من القبط « أهل القلم والعلم » [٤] .

ومن الضروري أيضاً أن نشير إلى ظهور نوعين جديدين من الملكية الزراعية الإقطاعية في نهاية القرن الرابع عشر ؛ أحدهما هو مااستتبع وجود أراضي تخص الخلفاء العباسيين ، فحتى ذلك الوقت ، كانت مصادر حياة الخليفة وعائلته تتحدد

بمنـــحة نـــقدية وجراية دورية تستقطع من الخزانة السلطانية [5].

وماخصص للخليفة من أرض ، كان في جوهره شبيها بالوقف ، غير أن هذه الأرض تسـمى في المصادر « إقطاع »[6] لأن هذين النوعين من الملكيـة الإقطاعيـة : الوقف وأراضى الخلفاء يتشابهان مع الإقطاع على الأرجح في كونهما يتضمنان نظريا عدم قابلية كل منهما لنقل الملكية ، واشتراطهما ريعاً محددا .

وتخصيص أراضى للخلفاء ، كان بمثابة إظهار ولاء السلاطين الحكام لهم ، بهدف ضمان تعضيدهم إياهم ، إذ إن الخلفاء قاموا بدور فعال في صراع جماعات المماليك من أجل السلطة . فمعروف أنه بعد موت السلطان : الناصر فرج ١٤١٢ م تم مبايعة الخليفة : أبو الفضل المستعين ، فتولى العرش لمدة نصف عام [7] .

وكـان النـوع الـثاني الجديد من الإقطاع الذى ظهر فى هذه الفترة يتمثل فى أراضـى الرزق (جمع رزقة) وكانت الرزقة في مصادر الفترة المبكرة تعنى راتباً نقديا أو عينياً يتم دفعه للموظفين ، وأحياناً كان اصطلاح رزقة يطابق فى حقيقة الأمر اصطلاح وقف وأحباس ، وكنموذج لهذا مايرويه ابن إياس فى أخباره* عن ١٣٥٧ - ١٣٥٨ م ، فيما يتعلق بمصادرة أجزاء محددة من ملكيات الهيئات الدينية المسيحية وجعلها تابعة لموظفى الحكومة [8] . أما مصادر نهاية القرن الرابع عشر والخامس عشر فتتكلم عن الرزق باعتبار أن غالبيتها رزق حربية ؛ مما يعنى أنها صارت عبارة عن قطـع من الأرض تم تسليمها من الحكومة للمماليك المرضى أو الشيوخ أو أطفالهم أو أراملهم[9] .

وكانت ملكية هذه الأراضى تمنح طوال حياة المستفيد منها وليس من النادر أن تكون لورثته ، ولاتنزع ملكية هذه الأراضى بأية صورة كانت ولايتم جباية ضرائب حكومية عنها ، وهى ليست مرتبطة بوظيفة حربية .

* ومن الحوادث فى هذه السنة (٧٥٩ هـ) كثرة الأوقاف الأحباسية على الديورة والكنائس حتى بلغ قدر ذلك فى ديوان الأحباس ٢٥ ألف فدان بين النصارى - فرسم السلطان بإخراج تلك الرزق جميعها وفرقها على الأمراء بمربعات زيادة على إقطاعاتهم وأبطل الأوقاف التى كانت على الديورة والكنائس بيد النصارى . ابن إياس طبعة الشعب جـ ٩ صـ ٩ (أوردنا هذا النص الذى أشارت إليه المؤلفة لأهميته - المترجم .

وبهذه الصورة ، من الممكن أن نقارن تطور أنواع الملكية الزراعية الإقطاعية ؛ علماً بأن الديوان الحربي هو الذي كان مختصاً بتوزيع هذه الرزق[١٠] .

●●●

يقدم لنا ابن الجعيان تصورا في غاية الوضوح عن الأساليب الملموسة في العملية المعقدة والمتناقضة لتطور الملكية الزراعية الإقطاعية في عهد المماليك الأواخر وذلك في وصفة التفصيلي الذي يصف فيه ابن الجعيان الأقاليم المختلفة ، علاوة على إبرازه المدن الكبرى وضواحيها بشكل خاص ، وهو في البداية يشير إلى اسم الدائرة (الكُورة) ثم الإقليم التابعة له ، ومساحة أرضه بالفدان وبعد ذلك يوضح أنواع الأرض المملوكة فيه وذلك في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر ، وأحياناً يشير إلى أسماء الملاك ، وبعد ذلك يوضح أنواع الملكية في زمن وضع قائمته التفصيلية ، وعند نهاية القرن الخامس عشر يوضح دخل كل دائرة بالدينار .

والوصف التالي لأحد الدوائر في القليوبية يمكن أن يعطينا مثالاً نموذجياً لكتاباته « المساحة* : ٢٣٦ فدانا ، من بينها ٢١ فدانا « رزقة » وكانت هذه الدائرة في عداد الملكية الخاصة للأشرف شعبان وصارت الآن وقفاً للأمير قاني بك الحسني[١١] .

وكان تقديمه لمقدار مساحة الأراضي المنزرعة بشكل إجمالي في كل دائرة ؛ دون توضيح لأنواع ملكية الأرض - باستثناء أراضي الرزقة - سبباً في تعقيد عملية التحليل لكتاباته .

الأراضي السلطانية :

قبل الانتقال إلى تفحص معطيات المساحات التفصيلية لأراضي السلاطين ينبغي الإشارة إلى مايقوله المقريزي[١٢] عن مرسوم « الروك الناصري** » وهو يحتفظ بكل قوته من الناحية الوصفية عن زمانه . فالمساحة الحقيقية للممتلكات السلطانية في الفترة من : ١٣١٥ / ١٣١٦ م . إلى سبعينات القرن الرابع عشر أي إلى حين وجود المعطيات التفصيلية - كانت تواصل انخفاضها . ففي عهد الأشرف شعبان كانت

* كان « الخزان » ومساحته ٢٣٦ فدانا وبه رزق ٢١ فدان ، كان من جملة أملاك الأشرف شعبان والآن وقف الأمير قاني بك الحسني . ابن الجعيان : التحفة السنية صـ ٨ .

** هو إعادة تقسيم للأراضي المصرية قام بها السلطان الناصر فرج ١٣١٦م (المترجم)

نــــسبــــة مساحة الأراضى السلطانية إلى الإقطاع تعادل ٤ : ٢٠ بينما طبقاً لمرسوم إعادة التوزيع فى عهد الناصر فرج والذى يسمى الروك الناصرى يجب أن تكون هذه النسبة ١٠ : ١٤ (١٣) .

والجدول رقم (١) يوضح التغيرات التى حدثت فى وضع أراضى السلاطين فى المائة سنة التالية والكتابات التفصيلية عن الوحدات الإدارية ، لم تسجل مقاييس دقيقة لكل الأراضى السلطانية بل اكتفت بالإشارة إلى النسبة (ضواحى القاهرة ١/٦ ، والفيوم ١/١٠ ، والجيزة ١/٤ والبحيرة والأشمونين وقوص ١/١٠ ، وفى نفس الوقت فإن هذه الكتابات تشير أحياناً إلى مداخيل هذه الأراضى ومساحاتها ، وبمقارنة هذه الدخول فى كل إقليم مع مساحة أراضيه .

نستطيع أن نحدد متوسط دخل الفدان الواحد ؛ ففى ضواحى القاهرة كان الفدان يعطى مايساوى ٩ دنانير فى السنة ، وكان يعطى فى الجيزة ٤ دنانير ، وفى قوة والبحيرة والفيوم ٢,٥ دينار ، وفى القليوبية ٤,٥ دينار وذلك كما يؤكد ابن دقماق(١٤) وبتحديد متوسط دخل الفدان ، يصبح لدينا إمكانية تحديد المساحة الدقيقة للأراضى السلطانية كما فى الجدول الموضح (١٥) .

جــدول (١)

الأراضى السلطانية من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر (بالفدان) .

الوحدات الإدارية	مساحة الأراضى السلطانية فى نهاية القرن الرابع عشر	الأراضى السلطانية بإختلاف أنواعها					مساحة الأراضى المرتبطة بالملكية السلطانية	المساحة العامة للأراضى السلطانية حتى نهاية القرن الخامس عشر
		اقطاع	ملك	وقف	رزقة	ملكية مختلطة		
ضواحى القاهرة	★ ٩٧٦٣,٥	٤١٠	-	-	-	٢٠٨٧,٥	-	٧٢٦٦
القليوبية	٢٧٢٢٨	١٠٣٦٣	-	٢٨٠٦,٥	-	٤١٢٩	٨٣٣٠	١٨٣٥٩,٥
الشرقية	٨٠٠٠	٤٥١٥,٧	-	٦٥٢,٣	-	١٥٩٠	٤٠١٦٣,٥	٤١٤٠٥,٥
الدقهلية والمرتاحية	٨٢٢٧	٤٨٦٧	-	٤١٥	-	-	١٠٥٨٠	١٣٥٢٥
الغربية	٤٨٠٧٩	١٨٧٨٦	-	٥٣٠	-	١٤٦٦٣	٤٦٤٩٥,٢	٦٠٥٩٥,٢
المنوفية	٥٠٨٠	١٩٥٩	-	-	-	٣١٧١	١٦٣٦٠	١٦٣٦٠
أبيار جزيرتى نصر	★١٥٠٨٧	-	-	-	-	١١٦٣	١٢٨٤٤	٢٦٣٦٩
البحيرة	★ ٣٣٤٥٧	٨٥٧	-	-	-	-	٧٥٥٠٩	١٠٨١٠٩
النستراوية	★ ١٩٩٠٠	-	-	-	-	-	١٣٠٠٠	٣٢٩٠٠
فوة والمزاحمتين	★٤١٤٠	-	-	-	-	-	١٤٠٠	٣٥٤٠
الجيزة	★ ١٠١٠٠٧	٥٣١٥	-	٧٧٨٩	١٣٠	٧٠١١	٥٢٥٠	٨٦٠١٢
الفيوم	★ ٥٢٩٦٣	٣٦٤٧٦	-	١٠٠٨١	-	٣٢٥٢	١٤٤١٠	٢٧٥٦٤
البهنساوية	٣٣٢٠٦,٥	٤٦٦٨	١٧٠	-	٢٠٠٠	١٠٥١٠	١١٠١٥٤,٥	١٣٦٠١٣
الأشمونين	★ ٣٢٧٢٩	٧٨٠٣	-	٣١٣٦	-	١٥٤٧	٤٨٠٩٨	٦٨٣٥١
منفلوط	-	-	-	-	-	-	٢٣٤٥	٢٣٤٥
أسيوط	١٩٥٥٧	١١٩٧٠	-	٧٥٨٧	-	-	٢٤٥٨٩	٢٤٥٨٩
أخميم	٣١٥٥٨	-	-	-	-	-	١٧٣٨٥	٤٨٩٤٣
قوص	★ ٧٨٩٦٣	٢٨٩٦٣	-	-	-	-	٤٧٦٥٢	٩٧٦٥٢
جملة	٥٢٦٩٤٥	١٣٦٨٥٢,٧	١٧٠	٣٢٩٨٦,٨	٢١٣٠	٤٩٠٧٣,٥	٤٩٤٤٦٥,٣	٨١٠١٩٨,٢

★ أن المعطيات الموضوعة فى هذا الجدول ليست بشكل مباشر كما أوضحنا هذه العلامة توضح .

أما بخصوص أراضي ضواحي الإسكندرية وأطفيح في نهاية القرن الرابع عشر ، كانت تابعة للأراضي السلطانية ، فإن الكتابات التفصيلية لم تتضمن أية معلومات عنها ماعدا ذكر حقيقة وجودها ، وفي نفس الوقت ينبغي أيضاً ملاحظة مايتعلق بأملاك السلطان في القليوبية ومنفلوط .

وبهذة الصورة تبلغ مساحة الأراضي السلطانية ٥٢٧٠٠٠ فدانا في الثلث الأخير من نهاية القرن الرابع عشر ؛ علاوة على بعض الأراضي التي تستحق الاعتبار في كل من الجيزة وقوص والفيوم والغربية ، ومنذ عهد السلطان الشركسي الأول : الظاهر برقوق ؛ الذي ألغي الوزارات ، صارت الأراضي السلطانية خاضعة لثلاث إدارات ، وفيما يبدو ، فإن هذا النظام كان مرتبطاً بضرورة الإمداد الأفضل لمماليك السلطان التي ازداد عددها في عهده بشكل محسوس حتى بلغ خمسة آلاف . وأول هذه الإدارات كان يحمل إسم ديوان «المفرد» وطبقاً لما يرويه القلقشندي كان هناك ديوان بنفس الاسم في العصر الفاطمي وأعادة السلطان برقوق فقط في عصره[١٦] .

أما الإدارة الثانية ، فكانت تحمل اسم « ديوان الأملاك » وظهرت أيضاً فقط في عهد برقوق[١٧] . والإدارة الثالثة كانت تسمى الديوان « الخاص » وقد شهدت المصادر بوجوده – على الأقل – منذ عهد صلاح الدين [١٨] .

يتضمن الوصف التفصيلي لمساحات الأراضي ، معلومات عن انتقال أملاك سلطانية خاصة إلى وحدات من الأراضي متباينة الأنواع ، وذلك دون الإشارة مرة أخرى – إلى مساحة كل قطعة من هذه الأراضي ؛ فمثلاً تحولت وحدات سلطانية إلى أراض من نوع : الإقطاع والوقف والملك منها : ثلاث ضياع سلطانية؛ الأولى في القليوبية ومساحتها (١٥٢٥ فداناً) والثانية في الغربية ، ومساحتها (٣٦٣ فدانا) ، والثالثة في المنوفية ومساحتها (٣١٢١ فدانا)

وتحولت أيضاً ثلاث ضياع في ضواحي القاهرة جملة مساحتها (٢٠٨٧,٥ فدانا) إلى أراض من نوع : الملك والوقف والرزق . وتحولت أيضاً ثلاث ضياع سلطانية ؛ [واحدة في الجيزة ومساحتها (١١٩٠ فدانا) والثانية في القليوبية ومساحتها (٢٦٠٤ فدانا) والثالثة في أبيار ومساحتها (١١٦٢ فدانا)] . من أراضي من نوع

الرزق إلى أراض من نوع الإقطاع أو الوقف وتحولت قطعتان من أراضي الشرقية والفيوم مساحتها (١٩٨٩ فدانا) من أراضي إقطاعات إلى أراضي للوقف . . . . ألخ .

ويلغت المساحة العامة للأراضي الشبيهة بهذا النوع (٤٩٠٠٠ فدانا) وذلك كما يتضح من الجدول رقم (١) . تحول من مساحتها إلى ملكيات للهيئات الدينية أي إلى وقف ١٥ ٪ .

وينبغي هنا ملاحظة الزيادة الفعلية لأراضي الملك ؛ غير أن معظم هذه الأراضي (حوالي ٦٠ ٪) قد خرج من أملاك السلطان وتحول إلى إقطاع أدى بدوره إلى تغيرات كيفية .

ومع هذا فإن مساحة الأراضي المحددة ، التي ارتبطت بالملكية السلطانية على امتداد القرن الخامس عشر بلغت حوالي (٤٩٥٠٠٠ فدانا) تقريباً . وهذا كان بشكل خاص على حساب أراضي أقاليم الغربية وبني سويف والبحيرة والشرقية والأشمونين ، وعلاوة على هذا ، انضمت إلى أملاك السلطان ؛ في الغربية بعض أجزاء من خمس ضياع ؛ كانت تخص ملاكاً آخرين قبل هذا ، وانتقلت أيضاً أربع ضياع في الشرقية وثلاث في الفيوم واثنتان في قوص .

وبهذه الصورة تبلغ مساحة الأراضي الخاضعة للدواوين السلطانية حوالي ٨١١ ألف فدان تقريباً ؛ هذا في زمن الكتابات التفصيلية المنوه عنها سابقاً .

وحقيقة تزايد الأراضي المملوكة للسلاطين تعطينا أساسا للزعم ، بأن السلاطين الشراكسة مثلهم مثل السلاطين الأتراك سعوا إلى تركيز ملكية الأرض ، وبعث الشكل القديم لاستغلال الفلاحين بواسطة الجهاز الحكومي مباشرة .

وهذا ما تؤكده المعطيات المأخوذة من المصادر ، غير أن هذا السعي لم يحقق نجاحاً ملحوظاً ؛ إذ إن الأراضي التي كانت توضع تحت يد الحكومة لأي سبب كان ، سرعان ما كانت تعود مرة أخرى إلى الملاك المستقلين . ونجد العديد من الملاحظات عن هذا الموضوع عند ابن تغريبردي في أخباره عن ١٤٦٠ -١٤٦١ م أي فيما يتعلق بالسلطان · المؤيد أحمد شهاب الدين . إذ يقول بأن مصادرة السلطان لإقطاعات أسلافه المماليك ، راكمت الكثير من هذه الإقطاعات ووضعتها تحت تصرف دواوينه ومن

بينها الديوان المفرد . غير أنه عندما شرع فى توزيع هذه الإقطاعات على المقربين منه لم تكفهم كل هذه الأراضى « وعند مالم تبق لديه★ ضياع مصرية . . . صار يستولى على القرى السورية ويوزعها على أمرائه المصريين ومحاربيهم (١٩) » ومن الصعب القول ، مالإذا كان هذا قد انعكس فى السجلات التفصيلية لابن الجيعان التى كتبت فى عهد السلطان : قايتباى فى أغسطس ١٤٩٢ م . فى كلامه عن توزيع أعداد كبيرة من قطع أراضى الإقطاع على المماليك ؛ والتى يجرى الحديث عنها أيضاً عند ابن إياس ، ولكن وبدون أدنى شك ، كانت هذه الأراضى خارجة من مجمل الأراضى السلطانية وتم توزيعها بمثابة إقطاعات(٢٠) بعد وباء الطاعون فى هذا العام .

ومعروف أنه بعد ذلك ، أى فى عهد السلطان : الناصر محمد (ابن ووريث قايتباى ١٤٩٦ - ١٤٩٨ م تم توزيع الإقطاعات المتبقية الداخلة تحت يد السلطان على المماليك ، بعد موت السلطان : قايتباى وكانت تبلغ حوالى الألف(٢١) .

وحدث أيضاً فى عهد السلطان : قنصوه الغورى(٢٢) توزيع للإقطاعات .

وبهذه الصورة يبدو أن تلك الأراضى المدونة فى السجلات التفصيلية على أنها أراض حكومية مباشرة صار معظمها عند نهاية القرن الخامس عشر ملكيات خاصة لمماليك إقطاعيين مستقلين ؛ وتسترت عملية نمو الملكية الزراعية الإقطاعية الخاصة - كما فى عهد المماليك الأوائل - وراء التزايد الواضح للأراضى السلطانية فى القرن الخامس عشر .

الوقفُ :

كانت أراضى الوقف فى عهد السلاطين الأتراك الأواخر موجودة فى كل أقاليم مصر ماعدا النستراوية ، وبلغت سبعين ألف فدان ؛ علاوة على أن ١٦٦ دائرة من مجموع الدوائر الكلية البالغ عددها ٢٢٩٤ دائرة فى السجلات التفصيلية ، كان بها قطع من أراضى الوقف ؛ لم تتضح مساحاتها .

★ ولما قل ماعنده من الضياع بالديار المصرية مديده إلى ضياع البلاد الشامية ففرق منها على أمراء مصر وأجنادهم ماشاء الله أن يفرق : أبو شامة : النجوم الزاهرة جـ٧ صـ ٦٩٢ - ٦٩٣ .

والنقصان الملحوظ لمساحة أراضي الوقف الكلية في بداية السبعينيات من القرن الرابع عشر بالمقارنة معع المعطيات الأولية لخمسينيات نفس القرن ؛ يوضح - على الأرجح - ماحدث من مصادرات لأموال الهيئات الدينية المسيحية ، وهذا مايؤكده ابن إياس فيما قاله وسبق التنويه عنه (٢٣) .

وعلى امتداد القرن الخامس عشر ؛ خضعت أراضي الوقف لتغيرات كانت تحدث باستمرار كما يوضح الجدولان ٢ ، ٣ .

وعلى هذا النمو ، يتضح أن مساحة الأراضي المتحولة - بشكل كامل - إلى أراضي الوقف قد تزايدت من ١٧٦,٥ ألف فدان حتى بلغت ٢٣٧ ألف فدان ، وأن عدد الدوائر التابعة للوقف بما فيها الدوائر التي يمتلك فيها الوقف قطعاً صغيرة تزايدت أيضاً حتى وصلت إلى ٦٦٧ دائرة .

وهذا التزايد في مساحة أراضي الوقف نلاحظه بشكل خاص في أراضي مصر السفلى (القليوبية - الدقهلية - البحيرة) وأيضاً في الفيوم . وكانت هذه الزيادة تتم بناء على منح السلاطين الشراكسة هذه الأراضي للهيئات الدينية السنية بهدف ضمان تأييدها لهم ؛ شأنهم في ذلك شأن أسلافهم ، وعدد كبير من هذه الضياع مُنح كهبات في شكل وقف في عهد السلطان : قايتباي في الشرقية والبحيرة بلغت مساحته (٥١٥٫٣ فدانا) (٢٤) .

جـــــــدول (٢)

أراضي الوقف من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر (بالفدان) *

الوحدات الإدارية	مساحة أراضي الوقف المستولية على دوائر كاملة حتى نهاية القرن ١٤	مساحة أملاك الوقف المتحولة إلى أنواع أخرى من الملكية على امتداد القرن ١٥	مساحة الأملاك المتحولة إلى وقف بالكامل ، على امتداد القرن ١٥	مساحة أراضي الوقف المستولى عليها كلها كاملة عند نهاية القرن ١٥
ضـواحي القـاهرة	** ١٦٠٠٥,٥	٢١٠ (إقطاع)	١٠٢٠	٢٣٨٥٠,٥
ضـواحي دمـيـاط	** ٢١٥٠٠	-	٤٢٠	٢٥٧٠
القليـوبيـة	** ٦٤٠٩	-	٨٢٠٠,٢	١٤٦٠٩,٢
الشـرقـيـة	** ٨٠٦٤	٣٣٣٢ (إقطاع وملك)	٩٣٩٧	١٥٠٤٣
الدقهلية والمرتاحية	١٨٨٧	-	١١٤٦٢	١٣٣٤٩
الغـربيـة	** ٨٧٩٧	٢٤٥٤ (الخزانة)	٣٦٣٦٤	٤٣٧٠٧
المنـوفـيـة	١٢٣٠	-	٤٦٨١	٥٩١١
أبيار وجزيرة بني نصر	١٦٤٦	-	٣١٧٩	٤٨٢٥
البـحـيـرة	** ٩٨٠٠	٢١٢٨ (الخزانة)	١٠٥٩٠	١٨٢٥٢
فـوة والمزاحمتين	٢٨٠	-	-	٢٨٠
ضـواحي الإسكندرية	٣٤٢٩	-	-	٣٤٢٩
الجـيـزة	** ٣٠٣٢	-	١٠٨٠٢	١٣٨٣٤
الفـيـوم	** ١١١٩٤	١٨٣٤ (إقطاع وخزانة)	٤١٤١٧	٥٠٧٧٧
البهنساوية	** ٣٦٤٩	-	١٤١٨٨	١٧٨٣٧
الأشـمونين	١٤٢٩	٣٣٣ (إقطاع)	٧٤٨١	٨٥٩٧
أسـيـوط	-	-	١٣٠١٨	١٣٠١٨
أخـمـيم	-	-	٤٣٣٩	٤٣٣٩
قـوص	** ٥٣٤٤	-	-	٥٣٤٤
جـمـلة	٦٩٩٦٥,٥	٩٤٣٣	١٧٦٤٧٣,٢	٢٣٧٠١٦,٧

* المعطيات في المساحات التفصيلية ، دقيقة إلى حد كبير ؛ عن مساحات أراضي الوقف والإقطاع في نهاية القرن ١٤ (ماعدا أطفيح) وكان من النادر جداً ضرورة إجراء حسابات ، غير مباشرة ، فبالنسبة للفيوم أجريت هذه الحسابات على ثلاث دوائر ، و في الأقاليم الباقية المعروفة أجريت على دائرة أو اثنتين ، وكانت إطفيح قد ضمت إلى أراضي الوقف أربع دوائر كاملة في نهاية القرن ١٤ ، ولكن في ظل الغياب الكامل تقريباً للمعطيات المقارنة عن دخول ومساحات الأرض أصبح من غير الممكن تحديد مساحة هذه الأراضي في أطفيح .

** انظر ما سبق عن الأراضي السلطانية .

جـــــــدول (٣)

أراضي الوقف من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر

الوحدات الإدارية	العدد الكلي للدوائر	عدد الدوائر التي كان بها قطع تابعة لأراضي الوقف في نهاية القرن ١٤	عدد الدوائر المتحولة كلية إلى الوقف بشكل كامل حتى نهاية القرن ١٥	عدد الدوائر الداخلة في عداد الوقف حتى نهاية القرن ١٥
ضواحي القاهرة	٣٦	–	٢	٦
دمياط	١٤	٤	١	٩
القليوبية	٦١	٢	٤	١٩
الشرقية	٣٨٣	١٩	١٣	١٣٣
الدقهلية والمرتاحية	٢١٤	١٩	٢٤	٨٩
الغربية	٤٧٥	٤٧	٥٠	٢٠٧
المنوفية	١٣٣	٣٨	٥	٦٥
أبيار جزيرة بني نصر	٤٨	٧	٣	١٤
البحيرة	٢٣١	١٤	١٥	٤٠
فوة والمزاحمتين	١٦	١	–	١
ضواحي الإسكندرية	١٤	–	–	٢
الجيزة	١٥٨	١٠	٨	١٥
أطفيح	٥٣	١	١	٦
الفيوم	١٠١	١	٢٣	٦
البهنساوية	١٥٥	٣	١٦	٣١
الأشمونين	١٠٢	–	٥	١٦
منفلوط	٥	–	–	١
أسيوط	٣٢	–	٤	٥
أخميم	٢٤	–	٢	١
قوص	٤٣	–	–	١
جملة	٢٢٨٨	١٦٦	١٧٦	٦٦٧

وفي عهدالسلطان : بارسيباي بلغت مساحة تلك الأراضي في الجيزة والغربية والفيوم والمنوفية والبهنساوية (٨٢٥٣ فدانا) ، وفي عهد السلطان إينال تحولت ضيعتان في الدقلهية إلى الوقف مساحة إحداهما (١٥٨٦ فدانا) ولم تعط المصادر مساحة الضيعة الثانية .

وتزايد أراضي الوقف كان يحدث أساسا لحساب الإقطاع ؛ فالمالكون كانوا يهبون ضياعهم بشكل كلي أو جزئي للهيئات الدينية ؛ حيث كانت هذه الأراضي تخضع لحماية القوانين الأخيرة ؛ (إذ إن الإمكانية القانونية لتسليم مداخيل هذه الضياع للورثة أصبحت موجودة) . وكان هذا نتيجة للصراع المتسارع بين المجموعات المملوكية المختلفة للطبقة الحاكمة ؛ الذي يعتبر ملمحاً مميزا للقرن الخامس عشر . وهذا كان أيضاً سببا جوهريا في أن مجمل ريعهم الإقطاعي كان متناقصاً . ونستطيع أن نقدم هنا على سبيل المثال تمردات المماليك في عهد السلطان : الظاهر برقوق وصراع الأمراء فيما بينهم ، والعصيان الحادث على الحدود طوال عهد السلطان : الناصر فرج ، والصدامات الدائمة بين مماليك « المؤيد » وإينال وبارسيباى » (بين أنصار السلطان المؤيد شهاب الدين أحمد وأنصار إينال وبارسيباى) ثم بعد ذلك التمردات التي حدثت في عهد السلطان خشقدم (١٤٦١ – ١٤٦٧م .) وصراع أنصار قنصوره الغوري وأنصار أجبرد في عهد قاتبياى (٢٥).

ويلاحظ في نفس الوقت ، بعض الظواهر المضاده للاتجاه الأساسي في نمو أراضي الوقف .

فلقد ظل قسم من الأرض ، بشكل رسمي ، على هيئة وقف ، ولكن هذه الملكية في الحقيقة فقدت طابعها الديني على امتداد القرن الخامس عشر ، فالمقريزي يكتب عن ملكية الأحباس في عصره فيقول : إنها *خرجت في غالبيتها من الديوان ، إما

* . . . جميع هذه الرزق أخرجها الديوان بالبراطيل ، والتقرب إلى الأمراء والحكام ، وأكثرها بأيدي الناس من فقهاء الأرياف لايدرون الفقة ، ويسمون أنفسهم الخطباء ولايعرفون كيف يخطبون ، ولا يقرأون القرآن . . وكثير منها بأسماء مساجد وزوايا معطلة وخراب . . المقريزي خطط ٣ صـ ١٩٦ .

بطريق الرشوة وإما بطريق النوال ووضعت تحت تصرف الأمراء والقضاة - أولئك الذين يسمون بالفقهاء ، وهم لا يعرفون ماهو الفقة ، والوعاظ الذين لايدرون كيف يعظون ولاحتى يرتلون القرآن ومعظم أراضيهم (الأحباس) مسجلة على مساجد مخربة وزوايا معطلة »(٢٦) .

ويكتب المقريزى أيضاً عن عهد السلطان : الظاهر برقوق فيقول إنه قد ظهر بين الأمراء المماليك المصريين والسوريين من يستولى عادة على ريع من فلاحى أراضى الوقف أعلى بكثير من ريع فلاحى الأراضى المماثلة لها .

وكان مالكو هذه الأرض ، أى الهيئات الدينية يتسلمون من دخل هذه الأرض فى أحسن الأحوال ما يساوى $\frac{١}{١٠}$ الدخل . وكثيرا ما كانوا لايأخذون شيئاً ، وفى الحقيقة فإن ملكية هذه الأرض قد صارت للأمراء (٢٧) .

وكان هناك قسم من أراضى الوقف التابعة للسلاطين ، قد تحول إلى إقطاع ، ففى ١٤٢٢ م ، وزع السلطان بار سيباى على مماليكه قرى الفيوم على شكل إقطاعات كانت حتى عهده وقفاً لمدرسة ، أما فى عهد السلطان : المؤيد أحمد فإن الأراضى الموزعة كإقطاعات على أقربائه وأصهاره والمقربين إليه كانت قبل ذلك موهوبة كوقف من سلفه إينال(٢٨) .

والمقريزى يشير إلى مصادرة موظفى الحكومة لبعض الأراضى التى تسمى بالوقف العائلى (تلك التى كانت موضوعة تحت إدارة ورثة واهبيها (٢٩) .

وبالرغم من أنه لايوجد فى مصادرنا صورة كاملة تبلغ مرتبة الحقيقة التى لايرقى إليها الشك . إلا أن المصادرة الواسعة النطاق لأراضى الوقف الخاص بالهيئات الدينية غير الإسلامية كانت نتيجة لاحتدام الصراعات الدينية ، وبالرغم من هذا فإن كل هذه الأعمال لم تغير من الاتجاه العام لتطور أراضى الوقف فى القرن الخامس عشر(٣٠) .

وأراضى الوقف الخاص بالخليفة ، لم تبق هى أيضاً بعيدة المنال ، ففى عهد السلطان قايتباى ١٤٦٨ م . تم نزع قرية إنبابة من الخليفة : المستنجد بالله

يوسف ، وكانت ممنوحة له من قبل السلطان : إينال ١٤٦١ م ، وتم منح هذا الوقف لأحد المقربين من السطان قايتباى .

وتم أيضاً نزع جرز ابن صابون وكانت وقفاً داخلا فى ممتلكات الخلفاء من ١٤٢٨م . ووزعت كإقطاعات على بعض المماليك (٣١) . .

ومن بين حوادث ١٤٥٤ م . نجد عند ابن تغريبردى مايدل على البيع غير القانونى (المحرم – المترجم) لأراضى الوقف الخاص بمدرسة وهيئات دينية أخرى لاستادار السلطان المسمى زين الدين (٣٢) .

ويتحدث ابن إياس عن تسلم القاضى شمس الدين لثلاثة آلاف دينار ثمنا لبيع وقف كان ممنوحاً له فى عهد السلطان قنصوه الغورى ، ويشير أيضاً إلى بيع الوقف الخاص بمدرسة جدة (٣٣) .

وبسبب حاجة الخزانة الملحة للنقود فى عهد السلطان المملوكى الأخير طومانباى ؛ تم بيع معظم الأوقاف السلطانية ؛ فاكتسبت نتيجة لذلك طابع الملك (٣٤) وهذه الأعمال المحرمة من وجهة نظر الشريعة الإسلامية خففت من الخسائر الناجمة عن تزايد مساحات الأراضى غير الخاضعة للتعبئة (٣٥) .

الرزقة :

هذا النوع من الأراضى ، كان موجودا فى كل أقاليم مصر فى بداية القرن الخامس عشر ، ماعدا النستراوية . لكنه كان واسع الانتشار فى كل من : الشرقية والبحيرة .

جدول (٤)

أراضى الرزق من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية الخامس عشر

الوحدات الإدارية	العدد الكلي للنواحي	عدد نواحي الرزق في نهاية القرن ١٤	عدد نواحي التي كانت بها رزق في نهاية القرن ١٥
ضواحي القاهرة	٢٦	١٣	١٧
ضواحي دمياط	١٤	٦	٧
القليوبية	٦١	٣٨	٤٧
الشرقية	٣٨٣	٢٥٩	٢٩٤
الدقهلية والمرتاحية	٢١٤	١٣٤	١٧٤
الغربية	٤٧٥	٣٦٥	٤٣٢
المنوفية	١٣٣	١١٤	١٢١
أبيار وجزيرتي نصر	٤٨	٤	٩
البحيرة	٢٣١	١٣٠	١٧٦
فوة والمزاحمتين	١٦	٤	٥
ضواحي الإسكندرية	١٤	١	٢
الجيزة	١٥٨	١١	٢٠
أطفيح	٥٣	٢	١٢
الفيوم	١٠١	١١	٢١
البهنساوية	١٥٥	٧٣	١٠٨
الأشمونين	١٠٢	٤٧	٨٣
منفلوط	٥	٢	٣
أسيوط	٣٢	٢٠	٢٦
أخميم	٢٤	١١	١٣
قوص	٤٣	١٧	١٨
جملة	٢٢٨٨	١٢٦٢	١٦٠٦

وكان نادر الوجود فى كل من أطفيح والفيوم ومن الممكن تتبع تزايد عدد الدوائر التابعة لأراضى الرزق من الجدول رقم (٤) ، فـقـد كـانت مساحة أراضى الرزق داخل كل إقليم تتراوح مابين ٢٥ : ٥٠ فداناً ونادرا ماكانت تتجاوز المائة فدان .

وبالأضافة إلى المعلومات التى يقدمها جدول (٤) فإنه من الضرورى الإشارة إلى أن قطع الرزق الموجودة بالدوائر ، تتحول أحياناً بعد ذلك إلى دائرة رزق بالكامل ؛ ففى الغربية ؛ كانت هناك قطع رزق تحولت إلى دوائر رزق وفى البحيرة تحولت خمس قطع وفى الدقهلية ثلاث قطع . . . إلخ

وتزايد أراضى الرزق كان يتم لحساب الإقطاع بشكل عام ولكنه أحياناً كان يحدث على حساب الأملاك السلطانية ؛ ففى نهاية القرن قفز عدد الدوائر التى بها رزق من ١٢٦٢ إلى ١٦٠٦ دائرة .

وكما سنوضح فيما بعد ، فإن إعادة توزيع ملكية الأراضى الزراعية بما فيها أراضى الرزق الذى تم فى عهد السلطان قنصوه الغورى كان يتم لصالح المماليك الجلّب [٣٦] .

والحقائق عن وضع أراضى الرزق فى القرن الخامس عشر جد متواضعة ، بل ومتضاربة . وعن حقيقة إعفاء أجزاء من أراضى الرزق من الضرائب ؛ يمكننا الاستشهاد بمخطوط عن قوص مؤرخ فى ١٧ ربيع الثانى ٨٨٣ هـ أى فى ١٨ يولية ١٤٧٨ م . ، ويقال فية إن الأمير يشبك « الذى كان يعمل وقتئذ دفتردار وأسطى دار وكاشفا لمصر العليا » قد أمر بإعفاء أراضى الرزق الموجودة فى قوص تحت ملاكها من القضاة وأمناء المحاكم والموظفين والأرامل واليتامى والأغنياء والبؤساء والكبار والصغار ، وحال دون أن يدفع المظلومون المتعبون أية ضرائب ولو كانت درهما واحدا » [٣٧]

غير أن ابن تغرىبردى يكتب عن سنة ١٤٤٠ - ١٤٤١ م ، أن أراضى الرزق الحربية شأنها فى ذلك شأن أراضى الرزق الأخرى التابعة للهيئات الدينية فى إقليم الجيزة ، كانت تدفع ضرائب عن الفدان الواحد مائة درهم (على مايبدو فى كل عام) وهذه الضرائب ظلت موجودة حتى كتابة النجوم أى حتى نهاية الستينيات من القرن الخامس عشر[٣٨] . وعن جباية الضرائب من ملاك أراضى الرزق يحكى أيضاً ابن

اياس* عن ١٥٠١ – ١٥٠٢ م ، ١٥٠٤ – ١٥٠٥ (٣٩)

أما عن ضعف تدخل السـلطـة المـركزية في العلاقة بين الإقطاعيين والفلاحين ، وما نجم عن ذلك من اسـتغلال مـلاك الرزق ، نستشهد بالحادثة التالية و المأخوذة من ابن إيـاس عن ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ – ١٥٢١) والتي حـدثت في أحد أقـاليم مـصـر الشمالية : « تقدم الفلاحـون الـعـامـلون في أراضي الرزق إلى عامل** السلطان بالإقليم راجين إياه أن يعطي أمرا لسيدهم بإنقاص الابتزازات المـأخوذة منهم ؛ لكن هذا الإقطاعي أعلن أنه ليس لأحد الحق في التدخل في الـعلاقة بينه وبين أتباعه»(٤٠) .

إن ظهور أراضي من نوع الرزق بل وتزايدها ؛ كان أحد المظاهر الجوهرية التي أدت إلى تفسخ نظام الإقطاع .

الملك :

على امتداد الفترة من نهاية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر تزايدت مساحة أراضي هذا النوع بشكل ملموس كما يتضح من الجدول رقم (٥) . وفي المساحات التفصيلية لابن الجيعان كما في مصادر العهد السابق فإن أراضي الملك لاتعني أراضـي الفلاحين ولكنها تعني الإقطاعات والضيا ع (أو جزء منها) التي تخص الإقطاعيين .

وبهذه الصورة فإن أراضي الملك في نهاية القرن الرابع عشر لم تزد عن ١٦٠ دائرة ولكنهـا وصلت في نهاية القرن الخامس عشـر إلى ٦١٦ دائرة ، وفي بعض الأحيـان كان تزايد أراضي الملك يحدث نتيـجة لبيع الخزانة للأراضي الحكومـيـة .

* . . على جـهـات رزق النسـاء من الحونذات والأعيـان من الستـات . . . وأطلق في الناس جـمـر نار المصادرات ، وصادر كل منهم في أليم الغمرات...... ابن إيياس، جـ ٤ صـ ١٦ وورد أيضاً في نفس المصدر صـ ٢٢٧ ... ووضع يده على رزق الناس وأوقافهم واستخرج خراجهم وضاعت على الناس حقوقهم وحصل منه الـضرر الشامـل والأمـر لله . [ومايشبه هذا كثير جداً . . . المترجم]

** فتضرر الفلاحون من ذلك ، فوقفوا إلى مـالك الأمراء وشكوا له .. فأرسل إليه ملك الأمراء يقول له : انظر في حالهم ولاتجور عليهم .. فقال مالك الرزقة سيدى عمر وإيش كان ملك الأمراء يدّخل بيني وبين فلاحيني في شيء لاله فيه شغل . إبن اياس جـ٥ صـ ٤٠٠

ويلاحظ أن هناك ٩ دوائر قد بيعت على هذا النحو ، منها أربع دوائر فى ضواحى القاهرة واثنتان فى كل من الغربية والجيزة وواحدة فى البهنساوية (٤١) .

والمساحات التفصيلية تنوه أيضاً بالتحولات الحادثة فى أراضى الملك المملوكة للبدو [من المحتمل أن تكون هذه الأراضى نوعاً من الإقطاع] (٤٢) وتزايد أراضى الملك أيضاً كان يتم لحساب أراضى الإقطاع ، ومن المؤسف أننا لانجد عند ابن الجيعان فى أى مكان مثالاً واحداً عن انتقال أراضى الإقطاع لأراضى الملك ولم يشر حتى إلى مداخيلها .

وكما لاحظنا سابقاً فإنه فى عهد سلاطين المماليك الأتراك ، انتشر بيع ملكيات الإقطاع لسكان المدن ، وفقدت هذه القطع من الأراض طبيعة ملكيتها التقليدية واقتربت بشكل حقيقى من نوع الملك (٤٣) .غير أنه لاتوجد فى مصادرنا أية معلومات تفصيلية تتعلق بهذا النوع من الملكية (ملكية سكان المدن للأراضى) .

وكان تزايد أراضى الملك مظهراً واضحاً لأبعد الحدود لمدى تفسخ نظام الإقطاع .

الإقطاع :

طبقاً للمساحات التفصيلية لابن الجيعان ، فإن ممتلكات الإقطاع فى عهد الأشرف شعبان .

جدول (٥)

أراضي « الملك » من نهاية القرن ١٤ حتى القرن ١٥

الوحدات الإدارية	العدد الكلى للدوائر	عدد الدوائر التى بها أراضى ملك نهاية القرن ١٤	عدد الدوائر التى بها أراضى ملك في نهاية القرن ١٥
ضواحي القاهرة	٢٦	–	٥
ضواحي دمياط	١٤	٢	٧
القليوبية	٦١	٢	١٤
الشرقية	٣٨٢	٩	١٠٦
الدقلهية والمرتاحية	٢١٤	١٩	٨٦
الغربية	٤٧٥	٤٢	١٩٧
المنوفية	١٣٣	٤١	٦٨
أبيار جزيرتى نصر	٤٨	٧	١٦
البحيرة	٢٣١	١٤	٣٦
النستراوية	٦	١	١
فوة والمزاحمتين	١٦	٢	٣
ضواحي الإسكندرية	١٤	–	١
الجيزة	١٥٨	١١	١٧
أطفيح	٥٣	١	٥
الفيوم	١٠١	١	٧
البهنساوية	١٥٥	٤	٢٢
الأشمونين	١٠٢	٢	١٧
منفلوط	٥	–	١
أسيوط	٣٢	١	٥
أخميم	٢٤	–	١
قوص	٤٣	١	١
جملة	٢٢٩٤	١٦٠	٦١٦

كانت هذه الأراضى تشغل مامساحته تقريباً ٢٢٤٧ ألف فدان ، وكانت معظم هذه المساحة على وجه الخصوص فى كل من : الشرقية والغربية والبهنساوية والدقهلية .

وكما كان الوضع فى العهد الماضى ؛ كان إقطاع أى وجيه من الأعيان الذى يتضمن كل أراضيه الموضوعة تحت تصرفه لابد أن تكون كل أراضيه – موزعة بشكل متعمد فى أنحاء البلاد ، وهكذا كان إقطاع حاكم بنى سويف مثلا موجودا قسم منه فى أسيوط وقسم فى أطفيح وآخر فى أخميم . أما حاكم البحيرة فكان إقطاعه موزعا على بنى سويف والفيوم ، وكان إقطاع حاكم الغربية موزعاً فى البحيرة والدقهلية والمنوفية والشرقية . ،، وإقطاع حاكم الدقهلية كان موزعاً فى أطفيح والأشمونين وأخميم . أما حاكم القاهرة القديمة (الفسطاط) فكان إقطاعه موجودا فى أطفيح وحاكم القليوبية كان إقطاعه فى المنوفية أما حاكم المنوفية فكان إقطاعه فى أبيار والدقهلية والفيوم ، وحاكم الفيوم كان إقطاعه فى أطفيح وأسيوط وقوص وكان إقطاع حاكم الشرقية فى الدقهلية(٤٤) .

والدخل الرسمى للإقطاع (وتسميه المصادر العِبْرَة – المترجم) ظل فى نهاية القرن الرابع عشر كما كان تماماً فى عهد الناصر . كما يقول القلقشندى : فإن * دخل (عِبْرَة)الأمراء الكبار كان يتراوح مابين ٨٠ – ٢٠٠ ألف دينار حربى فى السنة . وإقطاع هؤلاء كان يتملك مساحات هائلة تصل أحياناً إلى عشرة دوائر . أما أمراء الأربعين فكان مجمل دخل الواحد منهم فى النسبة من إقطاعاته يتراوح مابين ٢٣ – ٣٠ ألف دينار حربى ، وأمراء العشرة كان مجمل دخل الواحد منهم من إقطاعه يبلغ حوالى ٩ آلاف دينار حربى ، أما إقطاع مماليك السلطان فلم يكن كبيرا ، فقد كان من المعتاد أن يقتسم اثنان منهم دائرة واحدة وقلما كان واحد منهم يضع يده على دائرة كاملة . ومماليك الأمراء كما أسلفنا كان دخلهم ليس كبيرا ويتناسب مع مساحات إقطاعات أمرائهم .

* ويبلغ إقطاع الواحد من مقدمى الحلقة إلى ١٥٠٠ دينار وكذلك أعيان جنود الحلقة إلى ٢٥٠ دينار : القلقشندى صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء . جـ٤ صـ ٥٠.

إقطاع الحلقة :

وهو عادة مايكون إحلال دائرة واحدة لعدد من المحاربين ويعطى دخلا يتراوح مابين ٢٥٠ إلى ١٥٠٠ دينار (٤٥) .

غير أن الدخل الحقيقى للإقطاع ، كان يقل كثيرا عن الدخل الإسمى أو التقديرى له . ويتحدث ابن الفرات عن هذا فى ١٣٩٣ م . عند استعراض فرق الحلقة الجارى فى القاهرة ، وعندما أجاب أحد الجنود على نائب السلطان حينما سأله عما يُدره عليه إقطاعه من دخل قائلاً لنائب السلطان إن إقطاعه الممنوح له يعطيه دخلاً (عبرة) يساوى ٦٠٠ دينار

(على الأغلب يقصد دينارا عاديا*) ولكن فى الواقع كان إقطاع الحلقة يعطى دخلاً يقدر بثلاثة آلاف درهم فى السنة ، تأخذ الخزانة الحكومية منهاألفى درهم كضريبة (مغارم **) - أما المقطع نفسه فيتبقى له ألف درهم » والشكل النموذجى للإجابة على هذا السؤال قدمه محارب آخر من الحلقة بعد انتهاء الاستعراض (٤٦) .

ومن دراسة العشر سنوات الأولى من حكم المماليك الشراكة (المماليك البحرية) يتبين لنا أن العلاقة بين الدينار العادى والدرهم كانت بكل تأكيد بنسبة ١ : ٢٠ (٤٧) وبالتالى فإن الدخل الحقيقى للإقطاع المنوه عنه يساوى ١٥٠ دينار (١٠٠دينار حربى) ويخصم ١٠٠ دينار للخزانة كما سبق يتبقى للمقطع خمسون دينارا أى (٣٤ دينار جيشياً وهذا يعادل $\frac{١}{١٢}$ من الدخل الاسمى أو التقديرى للإقطاع ، وفى ذلك الوقت كما فى بداية القرن الرابع عشر ، كان كل مايتبقى للمحارب يقل عن $\frac{١}{١٠}$

* ويسميه المقريزى دينار جيوشى ، وابن تغريردى دينار جيشى فى صفحات كثيرة من كتاب كل منهما . . . المترجم .

** وفى يوم السبت أول يوم من صفر - ابتدأ الأمير سودون نايب السلطنة بالديار المصرية بعرض أجناد الحلقة فعرض منهم عشرين نفراً وسألهم عن عبرة إقطاعاتهم ومتحصل خراجهم فذكر بعضهم أن عبرة الذهب ستماية دينار فى كل سنة ومتحصل الخراج فى كل سنة ثلاثة آلاف درهم يخرج من ذلك ألفين درهم مغارم ويفضل ليده ألف درهم . . وذكر بعضهم قريب من ذلك فامتنع عند ذلك من عرض الباقى وقال حتى أخبر السلطان وأشاوره . ابن الفرات ٩ جـ ٢ صـ ٣٦٢ - ٣٦٣ مطبعة الجامعة الأمريكية ببيروت . سلسلة العلوم الشرقية - الحلقة العاشرة .

العبرة[٤٨] أو الدخل .

والجدول (٦) يقدم تصورا عن التغير الذى حدث للإقطاع على امتداد القرن الخامس عشر .

وفى خلال هذا القرن (الخامس عشر) تقلصت المساحة العامة لأراضى الإقطاع إلى حد كبير حيث إن جزءاً ، كان من أراضى دوائر الإقطاع فى بداية القرن تحول بالكامل إلى أراضى للوقف : ففى ضواحى دمياط بلغت مساحة هذه الأراضى ١٥ ٪ من مجمل مساحة أراضى الإقطاع المتحولة إلى أنواع أخرى من الملكية ، وفى الدقهلية كانت النسبة ١١ ٪ ، وكانت فى الفيوم ٢٦٦٥٤ فدانا أى مايوازى ٥٠ ٪ تقريباً .

وتحول قسم من أراضى الإقطاع تحولا كليا إلى أراضى الرزق : فعلى سبيل المثال تحولت فى البحيرة أربع دوائر جملة مساحتها ٢٥٤١ فدانا وفى الدقهلية ثمانى دوائر جملة مساحتها ٣٣٦٦ فدانا .... إلخ .

وأغلبية الدوائر التى كانت ملكيات إقطاعية فى نهاية القرن الرابع عشر تحولت إلى ملكيات مختلطة الأنواع فى نهاية القرن الخامس عشر : أى أنها صارت تتكون من قطع تختلف فيها نوعيات الملكية ، وفى مقدمتها نوع « الملك » وللأسف فإن مساحة كل نوع من هذه الأنواع لم تشر إليه المساحات التفصيلية .

جـــدول (٦)

أراضي الإقطاع من نهاية القرن ١٤ حتى نهاية القرن ١٥ * (بالفدان)

الوحدات الإدارية	مساحة الأراضي التابعة للإقطاع حتى نهاية القرن ١٤	مساحة الأراضي الإقطاعية المتحولة إل أنواع أخرى من الملكية خلال القرن ١٥	مساحة الملكيات المتحولة إلى إقطاعات	المساحة الكلية للأراضي الإقطاعية فى نهاية القرن ١٥
ضواحي القاهرة	٦٣٥	٣٨	٧٥٠	١٣٤٧
ضواحي دمياط	٤٣٤٨ **	٤٣٤٨	–	–
القليوبية	٥٤٧٩٦ **	١٧٩٠١	٦٠٨٢	٤٢٩٧٧
الشرقية	٢٨٨٦٠١ **	٢١٩٩٦٤	٧٠٧٣	٧٥٧١٠
الدقهلية والمرتاحية	١٣٥٥٨٤	١٠١٠٤٩,٥	٢٤١٢	٣٧٩٤٦,٥
الغربية	٣٦٠٢٥٧,٨ **	٢٥٧٤٥٢,٣	١٦٦٠٦	١١٩٤١١,٥
المنوفية	٩٠٧٢٦ **	٥٢٩٠٠	١٩٥٩	٣٩٧٨٥
بيار وجزيرتي نصر	٦٢٠١٧	٤٦٢٠٨	–	١٥٨٠٩
البحيرة	٢٣٣٦٨٩,٥ **	١٦٦٦١٩	٩٧٣٨	٧٦٨٠٨,٥
النستراوية	١٤٠٠٠	١٣٠٠٠	–	١٠٠٠
فوة والمزاحمتين	١٠٣٦٠ **	٣٤٨٠	–	٦٨٨٠
ضواحي الإسكندرية	١١٥٧	١١٥٧	–	–
الجيزة	٢٢٦٢٣ **	١٣٢٨٠	٦٣٦٥	١٥٧٠٨
الفيوم	١٠٣٦١٧ **	٥٨٦٣٣	٢١١٣٨,٦	٧٦١٢٢,٦
البهنساوية	٣٠٥٠٤٩,٥ **	٢٠٨١٠٩	٧٦٨٨	١٠٤٦٢٨,٥
الأشمونين	١٤٧١٧٣ **	٩١٣٦٠	٩٢٧٦	٦٥٠٨٩
منفلوط	١٨٢٣٣	١٢٨٧٣	–	٥٣٦٠
أسيوط	١١٥٥٨١ **	٥٥١٥٩	١٥١٤٠	٧٥٥٦٢
أخميم	٨١٩٥٦ **	٣٨٢٧٣	٣٠٣٥	٤٦٧١٨
قوص	٢٣٣٥٠٩	٥٠٠١٩	٤٠٨٧٤	٢١٤٣٦٤
جملة	٢,٣٧٣٩١٢,٨	١,٤١١,٨٣٢,٨	١٥٩,١٣٦,٦	١٠,٢١٢٣٦,٦

* بطريق إجراء الحسابات غير المباشرة تم تحديد مساحة ست دوائر في الشرقية وفوة ، وخمس دوائر في الأشمونين ، وأربع في القليوبية . وفي باقي الأقاليم تم الحساب غير المباشر لدائرة أو إثنتين أو ثلاث وتحديد مساحة أراضي الإقطاع في أطفيح في نهاية القرن ١٤ كان غير ممكن بسبب غياب المعطيات الضرورية لكل دوائره ماعدا واحدة منها (مساحتها ٤٧ فدانا) ، ويشار في المساحات التفصيلية إلى أن معظم إقطاعات هذا الإقليم نقلت لإحدى جزر النيل في نهاية القرن ١٥ [فيما يبدو بسبب كسح النيل لها (أو مايسمى بطرح البحر – المترجم) وبسبب غياب المعطيات المقارنة أيضاً أصبح غير ممكن تحديد مساحة إقطاعين في ضواحي الإسكندرية

** أنظر ماسبق عن الأراضي السلطانية .

وفى وصف كل أقليم فى المساحات التفصيلية لابن الجعيان نجد أخباراً مشابهة للآتى : « (مساحة الدائرة) – ١٥٠ فدانا ، ودخلها – ٢٠٠ دينار ، وهى كانت تابعة لإقطاعى – ، وصارت الآن ملك – ، وقف (٤٩) » .

وفى القليوبية على سبيل المثال حدثت مثل هذه التغيرات فى ١٧ دائرة من ٢٢ دائرة ، وفى الشرقية حدثت فى ١١٨ دائراة من ١٤٧ ، وفى الغربية حدثت فى ١٨٠ دائرة من ٢٥٢ دائرة . . . . إلخ .

وكما لاحظنا سابقاً ، فإن عملية تحول إقطاعات الحلقة إلى الملاك المدينيين كانت تواصل سيرها . وهكذا سمح السلطان الشركي الأول : الظاهر برقوق لأجناد الحلقة فى القاهرة ، أن يقيموا خارج حدود حصونهم ، مما سهل لهم الاندماج الكامل بالناس و هيأ لهم الاتصال بإقطاعاتهم .

« هـم هجروا الحصون* واقترنوا بنساء المدينة واستمرأوا الحياة السهلة ، وغفلوا عن عاداتهم السابقة » (٥٠) هكذا كتب المقريزى عنهم ورغب المماليك – غير الراضيين عن نقصان ريع ضياعهم – (٥١) فى بيع هذه القطع من الإقطاعات ، واجدين الربح الأكبر فى أعمال الحرف والتجارة حيث يستطيعون تحقيق مزايا جديدة . وكما يقول المقريزى (٥٢) ، وصار** الآن مالكوا إقطاع الحلقة حرفيين تقريباً . (أو رؤساء ورش حرفية – المؤلفة) وعلاوة على الاشتغال بالحرف ، فإن أراضى الإقطاع انتقلت إلى أيدى التجار أيضاً .

ونجد عند ابن تغربردى(٥٣) فى ١٤٥٧ – ١٤٥٨ م حقائق عن مثل هذه الأوضاع. والحقائق كثيرة عن حوادث أراضى بيع الإقطاعات ، فى القرن الخامس عشر ، لامن أجناد الحلقة فقط بل من أمراء المماليك (٥٤) .

والقلقشندى يقول إنه ليس من النادر أن تتحول إقطاعات الحلقة إلى الهيئات الدينية وإلى الناس غير المحاربين (٥٥) »

* فلما عاد إلى المملكة (الظاهر برقوق – المترجم) رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسو تلك العوايد. . . المقريزى – ٣ خطط صـ ١٣٧ ، مطبعة الفرقان ، بيروت .

** حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات– جـ٣ صـ ٢٥٥ طبعة النيل المقريزى خطط .

والمصادر تعطي بعض الإمكانيات لتتبع وضع أراضي الإقطاعات وتشكلها ، واحتفاظها من الناحية الشكلية بطبيعتها ذات التبعية المشروطة .

ونجد في هذه المصادر كثيرا من الإشارات في القرن الخامس عشر عن ظهور المجموعات -المنوه عنها سابقاً - من المماليك السلطانية المعروفين★ باسم الجلّب (من جلب أي استورد - المؤلفة) . فالسلاطين الشراكسة لم يكونوا غافلين عن حماية حياتهم وسلطتهم .

ولذا أحاطوا أنفسهم بالمماليك المجلوبيين ليواجهوا المماليك الآخرين (٥٦) وكان المماليك الجلب يتسلمون منحاً نقدية أكبر من غيرهم من الماليمك الآخريين ، ولايرسلون إلى الحملات الحربية الخطيرة . وابن إياس وابن تغريردى ، وهما من المؤيدين لأعيان المماليك القدامى ، - يكتبان عن التصرفات الفظيعة لهؤلاء الجلب تجاه السكان المسالمين (٥٧).

ومعظم الإقطاعات الأساسية في نهاية هذا القرن ، تركزت في أيدي هؤلاء المماليك الجلب ، حيث منحهم السلطان : المؤيد أحمد في ١٤٦١ م . إقطاعات أنصار إينال (٥٨) . وعن ضمان المرتبة الأولى لمماليك الجلب ، يتحدث إبن إياس عن ١٤٩٢ م . ، عن توزيع السلطان قايتباى للإقطاعات في تلك السنة فيقول « في★★ ذي القعدة . . بدأ السلطان

★ ويسميهم ابن إياس بالمماليك الجلبان - المترجم .

★★ وفي ذي القعدة ابتدأ السلطان بتفرقه الأقاطيع المتوفرة عمن مات بالطاعون في السنة المذكورة فصار يفرق إقطاع كل من توفي من الطباق لأهل طبقته ، ولايخرج من ذلك شيئاً لغير أهل طبقته ، وكانت أغوات الأطباق والمماليك الجلبان يتراصون مع بعضهم بالنوبة ويحضرون ويعرضون ذلك على السلطان فينعم لهم بذلك ، فمنهم من يكون طبقته فيها كثيرة متوفرة ومنهم من يكون فيها شيء قليل ، فتأخر من المماليك الجلبان جماعة بلا أقاطيع . . . فعرضهم السلطان فيما بعد وأخرج لهم أقاطيع كانت متوفرة في الذخيرة ففرقها على المماليلك الذين لم يخصهم شيء من الإقطاعات المتوفرة من الطاعون ... وصار الديوان يستدعيهم بأسمائهم ، والسلطان يعطيهم ، ويكتب حتى لم يبق من جلبان قايتباى أحد بلاإقطاع إلا الذين استجدوا من بعد الفصل ، وكانت الإقطاعات التي فرقت أكثرها ثلاثون ألفا وأقلها خمسة عشر ألف درهم والإقطاعات التي توفرت من جماعة المماليك الإينالية فرقها على خشداشينهم الاينالية فوق إقطاعاتهم والتي توفرت من الحشقدمية أعطاها لخشداشينهم من الخشقدمية وأعطى بعض خشداشينه وبعض أولاد الناس ممن كان منزلا بالديوان وهو بالطيقة إقطاعات خفيفة واستمرت تفرقة الإقطاعات مدة ثلاثة أشهر . ابن إياس طبعة الشعب صـ ٥٧٣ (وسقطت من طبعة الهيئة العامة وأضيفت في الهامش في الجزء الثالث صـ ٢٩٢ - ٢٩٣ ـــ المترجم .

بتوزيع إقطاعات من ماتوا فى الطاعون (فى السنة المذكورة سابقاً) فوهب إقطاع الميت من أى قشلاق إلى زملائه فى نفس القشلاق وليس لأحد آخر ، واصطف رؤساء هذه القشلاقات والمماليك الجلب أمام السلطان بانتظام وهو يوزع على كل منهم مايخصه من إقطاع قشلاقة ، والكثير منهم صار لديه إقطاعه ، وبعضهم كان إقطاعه صغيراً ، وبعض المماليك الجلّب بقوانون إقطاعات ، ولكن فى نهاية هذا العام استدعى السلطان هؤلاء الجلب ووزع عليهم إقطاعات كانت ماتزال تابعة للخزانة بعد الطاعون ، أما المماليك الذين لم يتسلموا أى شىء ، فقد « استدعاهم السلطان بأسمائهم إلى الديوان ، ولم يبق من مماليك قايتباى الجلب من ليس له إقطاع باستثناء من تواجد بعد هذا التوزيع – وقسم كبير من هذه الإقطاعات الموزعة كان يدر ريعاً كبيراً يقدر بحوالى ثلاثين ألف درهم ، وقسم صغير منها ، كان يدر ريعاً يقدر بخمسة عشر ألف درهم ، أما الإقطاعات المتبقية من مماليك إينال فقد منحها لزملائهم الاينالين علاوة على إقطاعاتهم ، والإقطاعات التى بقيت من مماليك خو شقدم قد ذهبت إلى زملائهم وأولاد* الناس « أولئك المقيدون فى سجلات الديوان ويمتلكون إقطاعات صغيرة ، واستمر توزيع هذه الإقطاعات ثلاثة شهور »(٥٩) .

ونشاط السلطان الغورى فى ١٥٠٨ – ١٥٠٩ م فى انتزاع أراضى الرزق والإقطاعات من غالبية « أولاد الناس » كان يهدف من ورائه إشباع رغبات المماليك الجلب (٦٠) .

وفى سعى هؤلاء المماليك الجلب لزيادة أملاكهم ، اتجهو إلى النهب مباشرة ، فابن إياس يروى فى ١٥١٤ م عن اغتيال هؤلاء المماليك لأحد المماليك القرانيص فى القاهرة بهدف الاستيلاء على إقطاعة ويستمر فى قوله « إنهم كانوا يقومون بأعمال من هذا القبيل تجاه أعداد كبيرة من المماليك القرانيص للاستيلاء على إقطاعاتهم . . . وكان الوضع مرعباً للغاية فى هذه الأيام وكان المماليك يقتلون من يريدون أخذ إقطاعه(٦١) ** » .

* هم اليتامى من أبناء أمراء المماليك أومرضاهم أو شيوخهم – المترجم .

** وقد فعلوا ذلك بجماعة كثيرة من المماليك القرانصة بسبب إقطاعاتهم فقتلوا ولم تنتطح فى ذلك شاتان . . وقد اضطربت الأحوال فى هذه الأيام إلى الغاية ، وصار المماليك يقتلون من يلوح لهم عليه مضرب لأجل إقطاعة . ابن إياس جـ ٤ صـ ٣٥٨ (الهيئة العامة) .

ومن المعروف أنه فى عهد السلاطين الأتراك ، كان قسم من مداخيل أملاك المماليك تأخذه الخزانة الحكومية على هيئة ضريبة ، وفيما يبدو ظلت هذه السياسة العملية باقية بشكل ما ، في العشر سنوات الأولى من القرن الخامس عشر ويستدل على ذلك من التعليمات العديدة الموجهة للموظفين الحكوميين المشرفين على الملكيات الخاصة للأراضى الزراعية فى عهد السلطان الظاهر برقوق ! وتتحدث هذه التعليمات عن ضرورة تطبيق النظام الـ .رم تجاه الوجهاء (الأعيان) الذين يخلون بالتزاماتهم وعهودهم ، وذلك بضرورة التوجه لممتلكاتهم المعهود لهم بها والمستأمنين عليها ، والعمل على فحص وتحقيق مداخيلها ، مع ضرورة جباية الضرائب الحكومية عنها فى نفس الوقت (٦٢) .

وظل مندبوا الحكومة القائمون بالاشراف على جمع الضرائب الحكومية مثل سابقيهم ، يسمون بالكاشفين ، وهم * من كان يعينهم السلطان بنفسه عادة ، وتتفاوت أوضاعهم مابين رئيس ومرءوس ، علاوة على أن عدد دوائر كل منهم ومجال اختصاصاته ظل كما كان فى السابق دون تغير (٦٣) .

أما فى عهد المماليك الشراكسة ، فكانت المطالبة بأنصبة السلطة المركزية من دخول الإقطاعات نادرة جدا ، ، وعندما كانت تطالب بها كانت لاتتحقق وفق مطالبها (٦٤) فقد صار الإقطاعى ،هو صاحب التصرف فى ضياعه كمايريد (٦٥) .

والإقطاعيون المصريون ظلوا حتى القرن الخامس عشر تارة يستطيعون أن ينقلوا أملاكهم لورثتهم وتارة لايستطيعون ، ولكن حيازتهم للأرض كانت مرتبطة بشكل حتمى بمدى تأديتهم لأعباء وظائفهم الحربية ، لكن النزعة إلى توريث الإقطاعات تزايدت فى القرن الخامس عشر ، وهذا مايسجله ابن إياس فى عهد السلطان الظاهر سيف الدين

* وأما الكشاف فكانوا قديما ثلاثة : كاشف الوجه القبلى ، وله الولاء من الجيزة إلى الجنادل ويولى من تحته سبع ولاة بأقاليم الوجه القبلى وكاشف بالوجه البحرى يولى من تحت أمره سبعة ولاة بأقاليم الوجه البحرى وهما من مقدمى الألوف ، والآن ربما يكون بالوجه القبلى ثلاثة كشاف أحدهم بالفيوم والآخر بالصعيد الأدنى وربما يكون أيضاً بالوجه البحرى كاشفان أحدهما بالشرقية والآخر بالغربية وكاشف البحيرة على عادته -- الظاهرى : زبدة كشف الممالك . . . صـ ١٢٩ - ١٣٠ .

جقمق (١٤٣٨ – ١٤٥٤ م) لايخرج* إقطاع من له ولد إلى أى شخص آخر إلا لولده (٦٦) وواجبات القيام بالوظائف الحربية ذاتها لم تكن تتم بشكل دقيق تماماً ، فقد كان هناك نقصان حاد فى أعداد المماليك الفرسان فى نهاية القرن الخامس عشر ، وديوان الجند نفسه لم يكن لديه تعداد حقيقى عن القوات المحاربة فى مصر ، ودخل فى قوائمه – كما أشرنا سابقاً الكثير من الأشخاص غير المحاربين (٦٧) .

ونتوقف أمام التفصيلات الكافية عن الإحصاء العام لقوات المماليك فى عهد السلطان الظاهر .. . ولكن كما لاحظ د . أيا لون بحق (٦٨) ، أنها بعيدة كل البعد عن الحقيقة ؛ إذ لايمكن أن نعرف منها عن أى زمن تتكلم . . وكيف يكتبها السلطان الظاهر بنفسه : ومن المحتمل أنـها كانت رداً على مبعوث القائد المغولى للقوات المتأهبة للهجوم على مصر ، وذلك بهدف إرهاب العدو – وهذا مما يوضح طبيعتها المغالية فى الوصف (٦٩) . ومايقوله المقريزى عن مختلف أقسام الجيش المصرى ، أقرب بكثير من الحقيقة . «منذ ذلك الوقت (أى فى عهد السلطان : الناصر محمد – المؤلفة) صار** عدد قوات

★ وكان السلطان جقمق . . . لايخرج إقطاع أحد من الجند وله ولد «إلا إلى ولده . . .» ابن أياس جـ ٢ صـ ٢٩٩ طبعة الهيئة المصرية العامة .

★★ فكتبت جرائد من جيش الديار المصرية بأسماء أجناد الحلقة وعدتها أربعة وعشرون ألفا ، والمماليك السلطانية عشرة آلاف ومماليك الأمراء ثمانية آلاف وأجناد الحلقة بدمشق المحروسة إثنا عشر ألفا مماليك وكافلها والأمراء بها ثلاثة آلاف وأجناد الحلقة بحلب المحروسة ستة آلاف ومماليك كافلها والأمراء بها ألفان ، وأجناد الحلقة بطرابلس المحروسة أربعة آلاف ومماليك كافلها والأمراء بها ألف وأجناد الحلقة بصفد ألف ومماليك كافلها والأمراء بها ألف وأجناد الحلقة بغزة ومماليك كافلها والأمراء بها ألف ، وحُصرت عدة المدن بالبلاد الشامية والديار المصرية مماتقدم ذكرها قريب ستين مدينة وضبط مافي المدن من أجنادها ومن هو بخدمة نوابها من الخيالة فكانت ستين ألفا.

ثم كتبت قبائل العربان فأول مابدأ آل فضل وهم بنو نمير أربعة وعشرون ألفا ثم عرب الحجاز بكمالة أربعة وعشرون ألفا ثم آل علي ألفان وعرب العراق ألفان وعرب يلملم ألفان وعرب الجزيرة ألفان وعرب متروك ألف وعرب جرم ألف وعرب بني عقبة وبني مهدى ألف وعرب محارب ألف ، وعرب قتيل ألف و عرب قطاب ألف وعربان متفرقة (طوائف عديدة) بالديار المصرية كل طائفة تشتمل على ماينيف عن مائة خيال وتقدر جملتها ثلاثة آلاف وعرب هوارة جريدتها في الزمان المتقدم أربعة وعشرون ألفا ثم كتبت طوئف التركمان من غزة إلى ديار بكر مثل ابن (قطبكلو) وابن كبك وابن سقلسيز وابن دلجادر وابن رمضان والأوزارية وبكدلو والبازاتية وبوزجالولار والمرعشكولار والأراكية وأوج أخلو وبوزا خلو والإينالية والخربندلية والكندولية والقنجولية . . . وهؤلاء ينقسمون فرقا كثيرة وأصل جريدة الجميع مائة ألف وثمانون ألف خيال . . . ثـم حسب جـميع الاكـراد وماسعهم من المقيمين فجاءت عدتهم قديما مايزيد على عشرين ألفا . . . . إلخ الظاهرى ص ١٠٤ – ١٠٥ .

الحلقة يتناقص ، وصار عددهم الآن قليل . . . وسواء كانت ألفا أو أكثر . . . فهي لاتنفع ولاتضر .

وأما المماليك السلطانية* الآن فهى أيضاً غير كبيرة العدد وهى لاتكاد تبلغ خمسة آلاف فارس مايصلح منها للقتال إلا ألفا أو أقل(٧٠) .

ويلاحظ ابن تغريبردى أيضاً غياب الانضباط « العسكرى ، والشهامة ، وانعدام كفاءة المجموعات الحربية عند المماليك فى زمنه . ثم بعد ذلك يمتدح بسالة صلاح الدين والكامل وبيبرس فى مقابل ضعف سلاطين عصره(٧١) .

فى نهاية القرن الخامس عشر وطبقاً لأرقام د. إيالون عدد أمراء المائة خمسة عشر ، وكان عدد أمراء الأربعين عشرة ، وأما أمراء العشرة فكان عددهم ستين ، وكان عدد مماليك حاشية السلطان لايتجاوز ثمانائة (٧٢) وحتى فى حالة ما إذا كان تحت تصرف كل أمير عدد غير قليل من المماليك الخاضعين له ، فإذا هذا يدل على أن مالكى الإقطاعات القائمين بوظائف حربية ، كانت جملة عدد المحاربين الحقيقيين منهم ليست كبيرة .

وبهذه الصورة ، يتضح أن امتلاك الإقطاعات الذى ظل من الناحية الاسمية محتفظاً بالارتباط بالوظيفة الحربية صار ينتقل بالوارثة ويفتقد الارتباط بالوظيفة الحربية ويقترب بملامحه فى الحقيقة إلى طبيعة الملك وكان كل هذا مجتمعاً هو الذى أدى إلى التفسخ الكامل للنظام الإقطاعى .

وفى حقيقة الأمر : كان أحد أشكال ملكية الأرض فى ذلك العصر قد ظهر فى تأجير الإقطاعيين للأرض ، (ريع الأرض) ومثال ذلك ما قدمناه سالفا ، فيما يتعلق بأراضى الوقف .

* وأكثر ماكانت أجناد الحلقة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون فإنها قد بلغت ٢٤ ألفا ثم مازالت تتناقص حتى صارت اليوم مع قلة عددها سواء منها الألف والواحد فانها لاتنفع ولاتضر . . .

وأما المماليك السلطانية فإنها اليوم قليل عددها بحيث لوجمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية لاتكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس ، يصلح منها أن يباشر القتال ألف أو دونها المقريزى خطط ١ صـ ١٧٥ .

والنموذج الثاني للريع الإقطاعي يقدمه ابن تغريردى حيث يقول إن السلطان جقمق أمر أن يسجن من يدعى ابن كويز حتى يدفع أربعة آلاف دينار عن الأرض التى اشتراها فى الدقهلية من مالكها السابق قرقماس* . ، ويقول بعد ذلك ، وإن ابن كويز قبل أن يشترى هذه الأرض كان يقوم باستئجارها طوال عامين سابقين نظير مبلغ نقدى كبير (٧٣) وهذا ما يقدمه السخاوى أيضاً . (٧٤) وهذه العلاقات الإيجارية أدت فى مثل هذه الظروف إلى ترابط ممثلى الطبقة الحاكمة .

ويشير قانون نامة ومصر إلى أن بعض الناس الميسورين (دون أدنى شك ليس هم الفلاحون البسطاء – المؤلفة) كانوا يستأجرون أراضى قريتين أو ثلاث(٧٥) ويبدو أنه من الممكن الاستدلال على وجود أنماط مشابهة للعلاقات الإيجارية ، من بعض الإشارات عن ريع المستأجرات الذى كان يدفعه « الأعيان » مثلما كان الوضع فى عهد المماليك الأوائل حيث كان يجرى القول عن ديوان المستأجرات كأحد الإدارات السلطانية (٧٦) .

ولكن المعلومات المشابهة التى تبرز قيام الإقطاعيين بتأجير أراضيهم فى القرن الخامس لا تمتلك انتشارا واسعا فى مصادرنا وعلى كل فإن تأسيس الإيجارات كان يمثل جانبا من الجوانب الرئيسية لتطور الملكية الإقطاعية الزراعية فى ذلك العهد – عهد الانحلال الجذرى لنظام الإقطاع .

* طلب السلطان الزينى بن كويز ورسم بالترسيم عليه تعريفا حتى يرد لقر قماس الأشرفي ماأخذه منه من ثمن قرية ابتاعها قرقماس منه في الدقهلية تسمى منية المرايا . . . وهو أربعة آلاف دينار ، وكان لأبامها الزينى للمذكور استأجرها منه سنتين بمبلغ هائل فلما انقضت المدة واستولى عليها مالكها لم يجدها تفى بالمبلغ المعين من الخراج . . ابن تغريردى حوادث صـ١٢٦ – ١٢٧

هوامش الفصل السادس

١ – انظر

A.Poliak .Le caractère colonial de l État mamelouk dans ses rapports aves la Horde d'Or. p.241 ; D.Ayalon (Neustadt) . The Circassians in the Mamluk Kingdom - JAOS . vol . 69 , 1949 . No 3 , p . 136 , W.Popper , Egypt and Syria ... pp . 1 - 12

وعن تربية وتعليم المماليك انظر -

D.Ayalon. L'esclavage du mamelouk , Jerusalem , 1951

٢ – انظر J . Hammer , Geschichte des Osmanischen Reiches . Bd VII , Pest , 1831 , S . 470

3 - Silvestre de Sacy , Sur La nature ..., p . 245 ; A. Poliak , Le caractère colonial de l'État mamelouk dans ses rapports avec La Horde d'Or , p . 242 ; D . Ayalon (Neustadt) ,The Circassians in the Mamluk kingdom , p . 146 ; W. Popper , Egypt and Syria .... p. 88 .

وعلى إبراهيم حسن صـ ٢٦٦

٤ – والوظائف الرئيسية للحاشية السلطانية غالباً ما يتم عنها التنوية فى المصادر بأسمائها القديمة :

فكبير الأكابر يسمى " حاجب الحجاب " ، وهو كان يقوم ببعض الأعمال القضائية إلى جانب استقبال ومقابلة المبعوثين إلى السلطان ، " دوادار " وهو المسئول عن الكاتبات السلطانية ، " وأستادار " كان مسئولا عن الموظفين والخدم بالقصرالسلطانى ، علاوة على تولية قيادة الوظائف الأقل فى ديوان المفرد ، " خازندار "وهو رئيس المحاسبين وتحت رعايته المخازن السلطانية ، وكان هناك أيضاً رئيس للاصطبلات يسمى سراخوار * ، وهذه الوظائف عادة كان يشغلها أمراء المائة ، ومساعدوهم كانوا من الأمراء ذوى المرتب الأقل . ومن الوظائف " المنظورة " فى القصر أيضاً ، كان كبير الطواشى ويسمى " زمامدار " أما حامل الأسلحة فيسمى "سلاحدار" وأمير البردراية ويسمى " أمير طبر " وهو يحمل الطبر** السلطانى فى الظروف المهيبة ويقود الموكب السلطانى ، " وأمير علم " وهو قائد فرق الطبالين ، وناظر المبانى ويسمى " شد العمائر " وهو يلاحظ المنشآت والتجديدات لجدران القصور السلطانية والقلاع .... الخ .

وتاجر المماليك السلطانية ويسمى " تاجر المماليك " . وهذه الوظائف كان يشغلها عادة أمراء الأربعين أو أمراء العشرة . (انظر W . Popper Egypt and Syria ... pp . 92 - 96 . M Caude Froy - Demombynes . La Syrie ... PP .LVII - LXI)

* صـ ١٨٤ النجوم صـ ٧ ابن تغريردى .

** سلاح على هيئة فأس – التعريف بمصطلحات صبح الأعشى – محمد قنديل البقلى صـ ٤٥ ، الهيئة العامة ١٩٨٤ (المترجم) .

٥ - انظر على سبيل المثال أنوتم صـ ٢٠٧ ، وعن حياة الخلفاء العباسيين فى مصر انظر الجزء الأخير المكرس لذلك من كتاب : جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين - القاهرة ١٨٨٧ .

٦ - انظر على سبيل المثال : ابن دقماق ٥ صـ ١٢٨ .

٧ - انظر على سبيل المثال : ابن إياس ١ صـ ٣٥٧ - ٣٥٩ .

٨ - ابن إياس ١ صـ ٢٠٦ » وفى هذا العام قد أحيل إلى الأمير " سار جتميش " دفتر تسجيل " الأحباس " (نوع من أراضى الوقف) الخاص بالكنائس والأديرة المسيحية ، فوجد فيه أن مساحة مايه من قطع من الأرض يساوى ٢٥ ألف فدان ، كانت موضوعة تحت أيدى المسيحين .

وعندما علم الأمير "سار جتميش" بهذا الأمر ، تملكه الغضب وهب مسرعاً إلى القلعة ، وأخبر السلطان بذلك ، فأمر السلطان أن تنزع هذه الأرض من أيدى المسيحيين وكتب وثيقة لتوزيعها على الأمراء كزيادات على إقطاعاتهم ، ووزع هذه الوثيقة القراء على الأمراء فانتزعوا كل هذه الأراضى التى كانت تحت أيدى المسيحيين " من رزقهم " انظر أيضاً : القلقشندى ٤ صـ ٥١ وينبغى الانتباه إلى ما حدث بمناسبة هذا فى نفس هذا العام من إصدار قانون لتنظيم ميراث الأملاك غير ملائم للمسيحيين (A . Perlmann Notes on anti - christian propaganda in the mamluk empire , p . 855) 9 - Poliak , Peudalism ... p . 25

10 - Silvestre de Sacy , Sur la nature ... pp . 61 ,69

١١ - ابن الجعيان صـ ٨ .

١٢ - المقريزى (خطط) ١ صـ ١٤٦ ، ونجد عند ابن الفرات تنويها مختصرا عن " الروك " (إعادة تقسيم الأرض) زعموا أن هذا قد حدث فى عهد الظاهر برقوق ، وعن هذا يقال إن الأرض التى كانت خاضعة لأربعة وعشرين أميرا من أمراء المائــة (فى بداية الأمر ..) انظر ٩ حـ ١ صـ ١٠٩ .

وفيما يبدو فإنه هنايقصد واحداً من إعادة التوزيع الجزئى الذى لم يغير من الوضع المعقد فى ذلك الوقت ، وكان ذا أهمية قليلة لا نجد لها صدى فى المصادر الأخرى المعروفة لنا . ويطابق هذا ما يقوله القلقشندى من أن عدد أمراء المائة فى عهد الظاهر برقوق لم يكن ٢٤ بل كان من ١٨ - ٢٠ أميرا (٤ صـ ١٤)

١٣ - انظر جدول ٦ ، والإقطاعات المباعة فى عهد السلطان الأشرف شعبان ، هى بكل الاحتمالات غير محسوبة فى الاماكن المناسبة لها فى الإحصاء التفصيلى ، إذا أنها كانت مقتناة بصورة شخصية وأحصيت فى تكوين الجيش .

١٤- ابن دقماق صـ ١٩ ، ٢٢ - ٢٤ ، ٢٩، ٥٠ .

١٥ - وهنا تم استخدام نفس أسلوب جدول ٢ ، ٦ .

١٦ – القلقشندى ٣ صـ ٤٥٧ .

١٧ – نفس المصدر صـ ٤٥٧ .

١٨ – انظر على سبيل المثال المقريزى (خطط) ١ صـ ١٤١ ، وفى ارتباط بهذا يعتقد القلقشندى كما لو أن هذا الديوان ظهر فقط فى عهد الناصر محمد ، ثم يعترف بعد ذلك بأن هذا غير دقيق (٣ صـ ٤٥٦) .

١٩ – ابن تغريردى (نجوم) ٧ إصدار بوبر صـ ٦٩٢ – ٦٩٣ .

٢٠ – انظر في هذا الكتاب الجزء الأخير من هذا الفصل .

21 - Silvestre de Sacy, Sur la nature ...p. 251

٢٢ – ابن إياس ٤ صـ ٥٠ .

٢٣ – انظر ماقبله " فى هذا الفصل " .

٢٤ – وعن تأسيس أوقاف " قايتباى " انظر ابن إياس ٢ صـ ١٩٤ ، وأيضاً

CIA , I , p. 495 " Le voyage d' outremer (Egypte , Mont Sinay , Palestine) de Jean Thenaud gardien du couvent des cordéliers d , Angouleme suivi de la relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du soudan d'Egypte (1512) " publié et annoté par Ch . Schefer , Paris , 1864 , p . XXXIII .

٢٥ – من المعروف أن " بار سيباى " قد قبل هذه القياسات لتلافى تمرد مماليك القاهرة ، ثم بعد ذلك قسمهم إلى سبع مجموعات ، غير أن ما يؤكد المقريزى ، كان على خلاف ذلك " فكل طائفة منها مباينة لجمعها ، فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت حدتهم ، وأمنت على السلطان غائلتهم ، ولم يخف ثورتهم لتفرقهم وإن كانوا مجتمعين ، وتباينهم وإن كانوا فى الظاهر متفقين (صـ ١٧٣حـ١ خطط من طبعتنا – المترجم ، صـ ١٥٣ عند المؤلفة ، وهذه القياسات لم تحقق نتائجها المرجوة) .

٢٦ – المقريزى (خطط) ٤ صـ ٨٦ .

٢٧ – المقريزى (خطط) ٤ صـ ٨٦ وينبغى ملاحظة أن الحكومة سعت بكل جهدها للوقوف ضد مثل هذه السياسات ، ويستدل من نقش على واحد من جوامع طرابلس يتعلق بحوادث ١٤٧٥ ويتم فيه التعريض بمرسوم " قايتباى " عن ضرورة تسليم ريع الأراضى الداخلة فى الوقف الممنوح لمسجد ، (ليس للأشخاص ذوى المكانة العالية المتمتعين بالسلطة)

ولكنه كان مسجداً للملاك البسطاء

CIA , II . PP . 129 - 130 .

وكما لاحظ " بيكر " فإن هذا المرسوم ، يستدعى إلى الذهن إدراك أن الناس الميسورين كانوا أكثر إصرارا على استعادة الريع ، وقد فازوا بعودة الأرض لهم .

("Islamstudien" I,S.268)

٢٨ – المقريزى (خطط) ٤ صـ ١٩٤ ، وابن تغريبردى (حوادث) صـ ٤٠٤ – ٤٠٥ ، وابن تغريبردى (نجوم) (إصدار بوبر) ى صـ ٦٩٢ ، ٤ صـ ١٦٦ .

٢٩ – المقريزى (خطط) ٤ صـ ٨٦ ، . Silvestre de Sacy , Sur la nature ... p . 56 .

٣٠ – انظر , N.Abbot , The monasteries of the Fayyum , Chicago , 1937, pp . 60 - 61

٣١ – ابن إياس ٢ صـ٩٦ ، وابن تغريبردى (حوادث) صـ ٦٣٣ ، وعن أراضى الخلافة ، انظر أيضاً ابن تغريبردى نجوم ٧ إصدار بوبر صـ ٦ ، ٢٨٠ ، ٤٦١ ، ٦٤٦ ، وأيضاً السخاوى صـ٤٢٣ – ٤٢٤-. A. Schimmel, kalif und Kadi im , spatmittelalterischen Aegypten 'Die, Welt des Islams ".Berlin - Leipzig - Leiden , Bd 24 , 1943 , S . 20

٣٢ – ابن تغريبردى (حوادث) صـ ٢٠٢ .

٣٣ – ابن إياس ١ صـ ١١٧ ، ٢ صـ ٣٠٥ .

٣٤ – انظر Silvestre de Sacy , Sur la nature ... p. 73 .

٣٥ – انظر Becker, Islamstudien , I , s. 206 . ، وينبغى الانتباه إلى أن مبدأ إعفاء أراضى الوقف من الضرائب فى العهد المملوكي المبكر لم يكن يتم مطلقا بشكل دائم ، وهكذا فإن السلطان الناصر خرج قبل توجهه إلى سوريا للصراع مع تيمور ، أخذ من الوقف المصرى مبلغاً إجمالياً وفق معطيات ابن إياس (انظر ١ صـ ٣٣٠ .

ومبلغاً شهرياً وفق معطيات ابن الفرات ٤ حـ١ صـ ١٠ – ١١ وتطويق الوقف بالضرائب حدث أيضاً فى عهد قايتباى وفى عهد قنصوة الغورى للاستعداد للصراع ضد الأتراك انظر ابن إياس ٢ صـ ٢٥٧ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ .

٣٦ – ابن إياس ٤ صـ ٥٠ ، ١٣٦ ؛ ٣ صـ ٦٠ .

٣٧ – CIA , I , conp 720 وعلى كافة الاحتمالات ، فإن الحديث هنا يدور عن الخراج فى شكله النقدى أو عما يسمى بالابتزاز " غير الشرعى " أو غير القانونى الذى كانت تتم جبايته في عهود أسلاف يشبك .

٣٨ – ابن تغريبردى (نجوم) ٧ إصدار (بوبر) صـ ١١٦ .

٣٩ – ابن إياس ، صـ ١٥ – ١٦ ، ٧٣ .

٤٠ – انظر Poliak , Feudalism .... P . 64

وهذه الحقائق المقدمة من بولياك مأخوذة على الأرجح من محفوظات ابن إياس التى لم تتضمنها كتبه المطبوعة .

وعن توجه الفلاحين عديم الجدوى إلى السلطة المركزية برجاء تقليل الابتزازات فإن ابن إياس، يتكلم عنه تحت سنة ٩٢٣ هـ (ابن إياس ٣ صـ ٢٩٣) .

٤١ – انظـر على سبيل المثال ابن الجعيـان صـ ١١ ، ١٣٩ ، وابـن تغـريبردى (نجوم) ٢ صـ ٣١٦ ، والحقائق المتعلقة ببيع الأراضى الخراجية الحكومية بواسطة الخزانة معروفة ، لفترات المبكرة من تاريخ مصر (خطط ١ صـ ١٥٦) ، ويسعى بولياك لتوضيح أن هذه السياسة العملية فى العصر المملوكي كانت استثناء تم تحت التأثر بظروف التركـستان (الذى ظـهر فى نفس الوقت بشكل جزئى عند قبيلة القرن الذهبى) يبدو لنا تعليلا غير مقنع إطلاقا ،

انظر ، Poliak, Feudalism .... pp. 36 - 37 , n .7

٤٢ – ابن الجعيان صـ ١٢٤ .

٤٣ – القلقشندى ٣ صـ ٤٩٢ .

٤٤ – ابن الجعـيـان صـ ٢٢ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ – ١٨٩ ، ١٩٣ .

وابن دقماق ٥ صـ ٤ ، ٧ – ١٠ ، ١٦ .

٤٥ –– القلقشندى ٣ صـ ٤٥٧ ، جلال الدين السيوطى – كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة جـ ٢ صـ ١١٠ .

٤٦ – ابن الفرات ٩ جـ ٢ صـ ٣٦٢ – ٣٦٣ ، وأيضاً القلقشندى ٣ صـ ٤٤٢ – ٤٤٣ .

٤٧ – انظر D. Ayalon . The system of payment in mamluk military Society - JESHO. vol. I, 1957, pt 1, p . 47

٤٨ – المقريزى (خطط) ٣ صـ ٣٥٤ – ٣٥٥ ، وانظر أيضاً .

A. Darrag . L'Égypte sous Le règne de Barsbay ... p . 61

٤٩ – الجعيان صـ ٦٢ ، وانظر أيضاً صـ٣٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٨٥ ، ٨٩ ... الخ .

ى (خطط) ٣ صـ ٣٥٥ .

٥١ وهكذا فقد أصبح المؤيد شيخ (١٤١٢ – ١٤٢١) ، بسبب الدخول القليلة لإقطاعات الحلقة مضطرا لتوحيد إقطاعات كل أربع محاربين فى هذه الظروف ، ويصير إقطاعهم فى حالات الضرورة لواحد منهم ، انظر M Gaudefroy - Demomombynes , La Syrie ... , P . XXX V

وانظر أيضاً ابن إياس ١ ص ٣٣١

٥٢ – المقريزى (خطط) ٣ صـ ٢٥٥ وانظر

Maqrizi , Le traité des famines , trad . par G.Wiet -JESHO , vol . V , 1962 ,pt I , p . 38 , n . I

٥٣ – ابن تغريبردى (حوادث) صـ ٢٦٤ – ٢٦٥

٥٤ – ابن الجيعان صـ ١٠٩ ، ١٣٩ .

٥٥ – القلقشندى ٤ صـ ١٦ . وانظر أيضاً ابـن تـغريبردى (نجوم) ٧ إصدار (بوبر) صـ ٦٩ .

٥٦ – تحديد هذه المجاميع على أنها مماليك للسلطان الحاكم ، تم لأول مرة بواسطة سيلفستر دى ساسى انظر Silvestre de Sacy , Sur la nature ... , p. 244

٥٧ – ومـن هـذا انظـر على سبيل المثال : ابن تغريبردى (نجوم) ٧ (إصدار بوبر) صـ ٢٠٥ ، ٤٦٧ – ٤٧٦ ، ٤٩١ ، ٥٠٧ – ٥٠٨ ، ٥١٦ ، ٥١٩ – ٥٢٠ ، ٥٥٩ – ٥٦٠ ، ٧١٦ ، ٧١٨ – ٧١٩ ، ٧٦١ – ٧٦٢ ، ٨٣٩ ، ٨٦٠ – ٨٦٢ ،

وأيضاً ابن إياس ٣ صـ ١٣ ، ١٩ ، ٨٠ – ٨٢ .

٥٨ – ابن تغريبردى (حوادث) صـ ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، (ونجوم)٧(إصدار بوبر صـ ٥٣٦ .

٥٩ – ابن إياس ٢ صـ ٢٧٧ .

٦٠ – ابن إياس ٢ صـ ٢٤١ ، ٣ صـ ٦٠، ٤ صـ ٥٠ . وكان قد تم نزع الإقطاعات ، وعند ابن إياس " وأنا من جملة من وقع له ذلك وخرج إقطاعى (ابن إياس) لأربعة من المماليك ولكن أعان الله تعالى ورجع إلى إقطاعى ولله الحمد " ابن إياس ٤ صـ ١٣٦ من طبعتنا .

٦١ – ابن إياس ٤ صـ ٣٥٨ .

٦٢ – الظاهرى صـ ٥٩ ، ٩٤ .

٦٣ – وهكذ ، فبنص كلمات الظاهرى « فى الزمن السابق كان يتوجه ثلاثة من الكشاف ، إذ أن واحداً منهم كان يتوجه للجنوب ، من إقليم الجيزة وحتى الجنادل وتحت سيطرته سبعة أقاليم ، وواحدا إلى الشمال وكان تحت سيطرته أيضاً سبعة أقاليم ، والثالث كان واحدا من الأمراء المقدمين للألف أو أمراء الجماعات . والآن يتوجه إلى الجنوب ثلاثة كشاف ، واحد إلى الفيوم والثانى إلى الصعيد القريب والثالث إلى الصعيد البعيد ، وإلى الشمال يتوجه اثنان ، واحد إلى الشرقية والآخر إلى الغربية وأيضاً حسب الظروف يذهب واحد إلى البحيرة صـ ١٢٩ .

٦٤ – انظر على سبيل المثال ابن إياس ٢ صـ ٢٥٢ ، ٣٦٢ ، ٤ صـ ٧٣ ، ٢٢٨ ، ٢٨٢ ، ٣٣٣.

٦٥ – القلقشندى ٤ صـ ٥٠ . وهذا الخبر يأتى من سياق حديث المؤلف نفسه ، فيما يتعلق بنهاية القرن الرابع عشر أو بداية القرن الخامس عشر ، ومن ثم فغير ممكن تأكيد هذا الوضع . وهو وجود حصانة ضرائبية متطورة فى مصر فى ذلك الوقت ولا حتى فى القرن الثالث عشر كما يقول

والبرهنة على فكرة اعتمد بقرنير على المقريزى (خطط ٢ C. Б.Певзнер ‏ («Икта», стр
٣٥) .

غير أننا نجد أن الحديث – عند المقريزى – يدور عن تصرف المقطع فى دخل صناعة ، وعن استخلاص الضريبة بواسطة الأمير المملوكى نفسه من خلال ديوانه الخاص أو القائم عليه ... قارن بأخبار ابن مماتى صـ٨٧) .

٦٦ – ابن إياس ٢ صـ ٢٤ وأيضاً انظر ابن تغريبردى (حوادث) صـ ٣٦١ ، وابن تغـريبردى م) ٧ (إصدار بوبر) صـ٣٧٥ ، ٤٧٢ .

٦٧ – القلقشندى ٤ صـ ١٦ وانظر أيضاً

Gaudefroy -Demombynes , La Syrie ... PP . XXXIV - XXXV .

68 - D. Ayalon, Gunpowder and firearms in the mamluk kingdom,

London ,1956, pp. 72 - 73 .

٦٩ – وطبقاً لما يقوله الظاهرى : من أن أجناد الحلقة فى مصر كان عددهم ٢٤ ألفاً ، والمماليك انية – ١٠ آلاف ، ومماليك الأمـراء – ثمانية آلاف ، وعلاوة على ذلك فإن أجناد الحلقة فى ن كـان عددهـم ١٢ ألفـاً ، ومماليك نائب السلطان والأمـراء فى دمـشق – ثلاثة آلاف ، وأجناد فى حلب كـان عددهم ستة آلاف ، ومماليك نائب السلطان والأمـراء فى حلب – ألفـان ، وفى ن كان مماليك نائب السلطان والأمراء عددهم أربعة آلاف ، وأما أجناد الحلقة فكان عددهم ألفاً صفد كان لنائب السلطان والأمراء ألف من المماليك ومن أجناد الحلقة ، وعدد أمراء النائب اء فى غزة كان ألفا ، وفوق ذلك ، فإن قبائل مختلف البدو فى مصر وفى سوريا كانت تقدم ، كامل ، ٦٨ ألفا من الخيالة ، وقبائل التركمان الرحل فيما بين غزة وديار بكر كانت تقدم ١٨٠ الخيالة ، أما الكرد فكان عددهم ٢٠ ألفاً (صـ ١٠٤ – ١٠٥) .

طبقاً لأخبار المقدس الألمانى : برنارد برايدن والذى زار القاهرة فى ١٤٨٣ يبدو كما لو أن المملوكى فى ذلك الوقت قد بلغ عدده / ٢٢ ألفاً ويبدو أنه يبالغ أيضاً انظر

<< Les saintes pérérgrinations de Bemard de Breydenbach(1423) >> te trad. annotée par F . Larrivaz . Le Caire , 1904, P. 55

٧٠ – المقريزى (خطط) ١ صـ ١٥٣ .

٧١ – ابن تغريبردى (نجـوم) ٧ (إصدار بـوبـر) صـ ٣٢٨ – ٣٢٩ ؛ ١٢ صـ ٢٤٩ – ٢٥٠ .

٧٢ – وانحطاط المهارات الحربية للجيش المصرى ، كان نتيجة لظروف المماليك الخاصة ، التى ى مقاومتهم إدخال الأسلحة النارية ، وكان هذا سببا فى التغيرات الجذرية التى حدثت بشكل

حتمى واضح فى بناء الجيش وحرمت خيالة المماليك من تفوقهم الواضح .

وهناك دلالة محددة أيضاً لأولئك السلاطين الشراكة الذين قاموا بترقية الكثير من الأمراء المماليك فى هذه الرتب الكبيرة ، فور وصولهم مباشرة إلى مصر ، وهم مازالوا فى سن البلوغ ، دون أن يلحقوهم بأية مدارس حربية .

انظر D. Ayalon ,Gunpowder and firearms in the mamluk kingdom, P 46

وانظر أيضاً

D. Ayalon (Neustadt) , The circassians in the mamluk kingdom , P. 144 .

٧٣ – ابن تغريردى (حوادث) صـ ١٢٦ - ١٢٧ .

٧٤ – السخاوى صـ ٢٨٦ .

٧٥ – قانون نامة ومصر صـ ١٠٩ .

٧٦ – انظر على سبيل المثال ابن تغريردى (نجوم) ٨ صـ ٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٣١ والظاهرى صـ ٥٧ ، والسخاوى صـ ٣٨٤ .

الفصل السابع

الفلاحون فى عهد المماليك الأواخر

الفصل السابع

الفلاحون فى عهد المماليك الأواخر

المعلومات التى توضح وضع الفلاحين فى مصر فى عهد المماليك الشراكسة لاتتوافر لدينا أيضاً بقدر كبير ، شأنها فى ذلك شأن المعلومات عن العهد السابق .

ومعروف أن حالة التدهور الاقتصادى ، وإقفار بعض الأقاليم بالكامل ، أديا إلى بعض التطورات فى الاستئجار الفلاحى الفردى . فطبقاً لما يرويه المقريزى عن بداية القرن الخامس عشر ، وذلك بعد موت السلطان : الظاهر برقوق « واستولى المقربون ★ من الأمراء على الأراضى التى كانت مقتطعة لهم ، واستدعوا مستأجريها من الفلاحين ، وزادوا من قيمة إيجاراتها » (١)

ويتحدث ابن إياس عن الفلاحين الذين يتعرضون للعقوبة لعدم استيفائهم المتأخرات الإيجارية ، وذلك فى نهاية حكم السلالة الشركسية مستخدما اصطلاح مزارع ؛ الذى يعنى فى بداية القرون الوسطى نظام المحاصة (٢)

ويمكننا الاستدلال على وجود نظام إيجار الأراضى الزراعية من نصوص " قانون نامة ومصر " ؛ ذلك التشريع الخاص ببداية الحكم التركى (٣) .

ويتضح منه أن الملكية العامة للأرض الزراعية ، ظلت كما هى للأتراك الغالبين ، بالرغم من أن المعلومات عنها جد متواضعة : كانت القرية تعتبر وحدة مالية أمام سياسة ابتزاز الأموال الباهظة .

والأراضى التى كانت تروى ريّاً دائماً وكانت بمثابة ملكية فردية للفلاحين ، تم وضعها تحت إشراف السلطات العامة (٤) . ويتحدث قانون نامة ومصر أيضاً عن شيوخ القرية (شيوخ البلد) وهم مسئولون فى نصوصه عن صيانة الرى أمام السلطات .(٥)

كانت الغالبية العظمى من الفلاحين – كما كانت سابقاً – تحت السيطرة

★ وذلك أن قوما ترقوا فى خدم الأمراء .. فأحبوا مزيد القرية منهم ولا وسيلة أقرب إليهم من المال فتعدوا إلى الأراضى الجارية فى إقطاعات الأمراء وأحضروا مستأجريها من الفلاحين وزادوا فى مقادير الأجر ... المقريزى إغاثة الأمة صـ ٤٥ طبعة دار ابن الوليد ، دمشق .

الإقطاعية التى مارست فى هذه الفترة ، خاصة ، أشكالا قاسية ، فالمقريزى يكتب عن عصره .

« إن *. الفلاح الذى يعيش فى الريف والمرتبط بالأرض ، وكما يسميه هو الفلاح القرارى ، كان عبداً لصاحب الإقطاع المالك لهذا الإقليم ، فهو لايستطيع أن يأمل فى أى شئ فهو لايباع ولا يتحرر بل ، على العكس ، بقى عبدا وكذلك كان أولاده (٦) .

وكان تكثيف استغلال الفلاحين نتيجة لنمو استهلاك الإقطاعيين ، الذى ارتبط بالتطور الواسع المدى للعلاقات التجارية النقدية .

ووجدت التبعية الإقطاعية شكلها النهائى القانونى فى قانون نامة ومصر ، المنوه عنه سابقاً ، وهو قد رسخ كل التفاصيل الجزئية فى الواقع العملى التى كانت فى عهد المماليك الشراكسة . وإحدى مواده تنص على أنه إذا هجر فلاح قطعة أرضه المسندة إليه ، فلابد أن يجبر على العودة إليها ، وتتم معاقبته ، وعلى مشايخ البلد أن يتعقبوا أولئك الفلاحين الهاربين من موطنهم الأصلى ويأتون بهم من مكان هروبهم إلى موطنهم القديم . أما الفلاحون الهاربون من القرية أثناء جباية الضرائب فيتعرضون لعقوبة الموت شنقاً إذا ما تم القبض عليهم .

فمعروف أن السلطان : المؤيد شيخ حكم بالإعدام فى ١٤١٧ م على مجموعة من الفلاحين بأحد الأقاليم المصرية بعد أن تم القبض عليهم وترحيلهم من قراهم ، ولكن بفضل شفاعة أحد المقربين من السلطان ، أمر السلطان بتحويلهم إلى عبيد بعد أن عطف على حالهم (٧) .

وكان الخراج ، هو الضريبة الأساسية الحكومية العامة فى ذلك العهد كما كان فى العهد السابق ، وكان فى هذا العهد يجمع أساساً لأصحاب الإقطاعات . ويخبرنا ابن إياس أنه فى عهد السلطان قنصوه الغورى ، خصم كاشف الشرقية من الخراج المجموع من الأهالى مبلغاً محددا على هيئة ضرائب غير عادية ، وبنص كلمات هذا المؤرخ نفسه « سببت خسائر كبيرة لأصحاب الإقطاعات »

* ويسمىٌ المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قرارا ، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لايرجو قط أن يباع ولا أن يعتق بل هو قن مابقى ومن ولد له كذلك – المقريزى ... خطط صـ١٥٧ .

ومن هنا نستطيع أن نستدل على أن الخراج كقاعدة عامة وصل إلى أقصى مدى له في ذلك العهد (٨) والتصور النموذجي عن المقدار العام للخراج في نهاية القرن الرابع عشر ، يمكن أن يوضحه لنا دليل . مداخيل الأقاليم المصرية الذي يقدره لنا ابن الجيعان في بداية تسجيله الوصفي المؤرخ في شوال ٧٧٧ هـ (مارس ١٣٧٦ م) وبكل الاحتمالات ، فإن هذا الدليل شبيه بما قدمناه سابقاً من سجلات القاضي الفاضل . إذ إنه يثبت فيه مدى تفوق أراضي الإقطاع ، على عكس السجلات الأيوبية عند ابن الجيعان التي يوضح فيها أرقام الخراج بالدنانير الحربية (وهو يساوي كما أسلفنا ثلثي الدينار العادي .(٩)

مصر السفلى

الأقليم	المبلغ بالدينار
ضواحي القاهرة	١٥٣٠٧٥
القليوبية	٤١٩٨٥٠
الشرقية	١٤١١٨٧٥
الدقهلية	٥٩٦٠٧١
ضواحي دمياط	١١١٠٠
الغربية	١٨٤٤٠٨٠
المنوفية	٥٧٤٦٢٩ ١/٣
أبيار وجزيرة بني ناصر	١٠٠٢٣٢
البحيرة	٧٤١٢٩٤ ٢/٣
فوة والمزاحمتين	٥٦٨٤٦ ١/٢
نستراوية	٤٣٥٠٠
ضواحي الإسكندرية	١١٠٠٠
الجيزة *	٦٢٠٠٠
جملة	٦٠٢٥٥٥٣,٥

* الجيزة (عبرة بلادها المقتطعة خارجا عن بلاد الديوان) : ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية صـ ٣ - ٤ . هكذا وردت - المترجم

مصر العليا

الأقـــليم	المبلغ بالدينار
الأطفيحية	١٤٣٩٩٧ ١/٢
الفيوم	١٦٤٠٥٠
البهنساوية	١٣٠٢٦٤٢ ١/٢
الأشمونين	٧٦٢٠٤٠
الأسيوطية	٣٢٣٩٢٠
الأخميمية	٢٤٣٩٢٥ ١/٣
القوصية	٤١٤٦٦٣ ١/٢
جملة	٢٣٥٥٨٠٨ ٥/٦
الإجمالى الكلى ★	٩٣٨٠٧٠٢

وبهذه الصورة ، يتضح أن مداخيل أراضى الإقطاع تشكل القسم الرئيسى من الخراج فى نهاية القرن الرابع عشر ، وتقدر بمبلغ ٩,٤ مليون دينار حربى ، أى ما يعادل ٦,٢٦ دينارا عادياً ، والأرقام العالية - إلى حدما - عن إيرادات الدخل العام لهذا العهد - على عكس العهد الأيوبى - لاتدل مطلقاً على تزايد رخاء المنتجين المباشرين بل إنها على عكس ذلك تماماً ، تدل على تكثيف استغلالهم . فبمقارنة هاتين الوثيقتين ينبغى حساب النقصان الملحوظ للقيمة الحقيقية للديـنار خـلال الثلاثة قـرون الماضية :

★ وفى الأرقام هنا بعض الاختلاف ، فالإجمالى عند ابن الجيعان ٩٥٨٤٢٦٠٤٠ دينارا حربيا وهو كما أسلفنا كان الدينار العادى . التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية : الشيخ الإمام شرف الدين يحيى بن المقر بن الجيعان صـ ٣ - ٤

وما يعنيه هذا من نقص لقوته الشرائية . (١٠) علاوة على العيوب الموجودة فى السجلات الأيوبية .

وطبقاً لما يرويه القلقشندى ، فإن خراج الفدان فى نهاية القرن الرابع عشر ، كان يتراوح عادة ما بين إردبين إلى ثلاثة أرادب من الحبوب أو البقول . وكما أسلفنا ، فإن جمع الخراج كان يتم فى مصر السفلى نقداً بينما كانت جبايته فى مصر العليا عينا ، وكان ثمن الإردب يتراوح ما بين درهم وثلاثة دراهم .

وفى عهد السلطان : الظاهر برقوق ، فإن الأراضى " الباء " فى معظم القرى المصرية -- وهى أراض تغمرها مياه النيل فى أوقات الفيضان ، وكانت إلى حد كبير أسهل أنواع الأرض فى الفلاحة -- كانت تدفع خراجا قدره أربعون درهما عن كل فدان . وأراضى " البارويا " وهى أيضاً أراض تغمرها مياه الفيضان ، لكنها كانت أسوأ قليلا من سابقتها -- كانت تدفع خراجاً قدره ثلاثون درهما . غير أن مقدار الخراج قد زاد بعد ذلك ، فصار خراج الفدان عن الأرض " الباء "مائة درهم ، وعن الأرض "البارويا" ثمانين درهما ، أما أراضى " البرش " -- وهى طبقاً لما يقوله القلقشندى كانت لاتحتاج قبل بذرها إلى حراثة -- كانت تدفع خراجا عن الفدان الواحد مائتى درهم تقريباً . ولكن فى عهدى السلطانين : الناصر فرج ، والمنصور عز الدين أبو العز ، أى فى العشرة الأولى من القرن الخامس عشر ؛ صار خراج الفدان : من الأرض الباء ٤٠٠ درهما ، وإذا ما كانت عالية الجودة كان خراجها يرتفع إلى ٦٠٠ درهما ، أما أراضى البارويا فكانت تدفع أقل من ذلك . (١١)

وأدى تزايد الريع الإقطاعى إلى تدهور ملحوظ فى نوع العملة المصرية . (١٢)

حيث يلاحظ اشتراوس أن جملة الخراج المحصل فى مصر فى ١٥٢٠م ، أى بعد الغزو التركى بثلاثة أعوام قد هبط إلى ١٨٠٠ ألف دينار (١٣) وتفاهة حجم المداخيل هذه توضح بالدرجة الأولى مدى إفلاس الفلاحين المصريين فى عهود السلاطين الشراكسة الأواخر ، وتوضح أيضاً تزايد أراضى : الملك والوقف والرزقة ، وهى أراض غير خاضعة لجباية الضرائب المنتظمة ، وهذا بدوره أدى إلى خروج الإقطاعات من تحت السيطرة الحكومية .

وكان الذين لايدفعون الخراج فى الوقت المحدد يتعرضون للعقاب ، إذا كانوا غير قادرين على الهرب مثل الأطفال والشيوخ . ويروى ابن إياس عن " حادث لا نظير له " فى ١٥١٣ م حيث كان الهاربون من دفع الخراج فى موعده ، من فلاحى مصر العليا ، يسيرون فى شوارع القاهرة أحرارا غير معرضين للعقاب . (١٤)

وكان الأهالى غير المسلمين فى مصر يدفعون الجزية كما أوضحنا سابقاً ، وجملة حصيلتها كانت ١١٤٠٠ دينارا فى ١٤١٣ - ١٤١٤ م . وهذا المبلغ يزيد قليلا عن السنوات السابقة . (١٥)

" والفلاحون كما أسلفنا كانوا مجبرين على المشاركة فى إصلاح وشق منشآت الرى ، وفيما يتعلق بالأعمال الضخمة من هذا النوع ما نجده بالتفصيل الدقيق عند الظاهرى « فى ربيع نفس السنة ؛ كان عدد من الأمراء الأمرين (أمراء المائة) يتوجهون إلى كل إقليم لمصادرة الحصة المقررة على كل إقليم من الجواريف والزحافات ، وكانت توزع على الفلاحين الذين يشتغلون طبقاً لأوامر الحكومة ، التى تحدد لهم أماكن الحفر ، * وتطهير مجارى القنوات ، وعليهم أن ينقلوا التراب المتجمع من هذه الأعمال إلى أماكن السدود السلطانية بواسطة الزحافات ، وكان يتم جمع مبلغ من كل إقليم حيث يتوجه الناس للعمل بهذه المشروعات . » (١٦) وكان على الفلاحين الذين يقومون بفلاحة الأراضى التى تغمرها مياه الفيضان تماماً كل عام أن يدفعوا ضعف ما يدفعة غيرهم . (١٧)

لكن الأعمال فى مشروعات الرى فى نهاية القرن الخامس عشر غير معروفة تماماً . والمصادر لاتنوه إلا ببعض السدود والقنوات والمشاريع فى عهد السلطان برقوق والسلطان جقمق ، وبعض إصلاحات السدود التى تمت فى عهد السلطان بارسيباى ، ثم القناة الكبيرة التى أنشئت فى عهد السلطان قنصوه الغورى . (١٨)

* أما كُشاف التراب فيتعينون فى كل سنة مرة من الأمراء مقدمى الألوف ، إلى كل إقليم أمير فى زمان الربيع لاستخراج ما يتعين على البلاد من الحفير والجرافة ، أما الحفير فإنه يتعلق بالدولة ، ويعرف بأماكن معلومة يحفرها لجريان المياه ، والجراريف التى يجرف بها التراب تستخرج من جميع البلاد مبلغ ورجالة بسبب ذلك : الظاهرى ، . زبدة كشف الممالك صـ ١٢٩

أما أشغال الري ومشروعاته ، ذات الأهمية المحلية ، التي كان يجب على مالكي أراضي الإقطاعات أن ينفذوها بمبادراتهم الشخصية ، فالمعلومات الخاصة عنها غير موجودة نهائياً في مصادر القرن الخامس عشر ، عدا إشارة من القلقشندي إلى أن السدود السلطانية شأنها شأن السدود الخاصة بمالكي الإقطاعات قد تعرضت للإهمال في زمنه . (١٩) وكانت دناءات موظفي الحكومة ، هي الملمح المميز للعشر سنين الأخيرة في النظام المملوكي ، فعن عبد الله التركماني يقول ابن جبير ، « إنه قد سبب الأذى للخلق بشره وخبثه ، وكان عبد الله هذا يعمل كاشفاً للشرقية في عهد السلطان : الظاهر جقمق ، وكان يعامل ، بشكل خاص ، أهالي بلبيس وفلاحي الشرقية معاملة أخبث من معاملة إبليس ، مما دفعهم للشكوى عدة مرات للملك الظاهر جقمق ، لكنهم لم يجدوا عنده أبدا آذاناً صاغية * ... » (٢٠)

ومن بين الابتزازات الإضافية الكثيرة التي يتم جمعها من الفلاحين ، كانت هناك ضريبة تسمى ضريبة الحماية ، و أ . بولياك ، هو الذي حدد أنها صارت في عهد المماليك المتأخرين ضريبة لحماية الإقطاعيين بواسطة الأمراء والسلطان غالباً ، وكان يقوم بجباية هذه الضريبة عدد من الدواوين الخاصة وعلى رأسها ديوان الحماية . (٢١)

غير أن جباية هذه الضريبة في الواقع ، خاصة في عهد المماليك الشراكسة لم تضمن أية حماية أو رعاية ، وهل كان من الممكن أن يحدث هذا في ظل هذه الأوضاع الاقتصادية المتدهورة ؟ علاوة على الصراعات الحربية الدائمة ، والتسلط الدائم للأمراء الكبار ، بل على العكس ، فإن استمرار جباية هذه الضريبة أدى إلى إضعاف الإقطاعيين الصغار وإملاق الفلاحين ، وابن تغريردي يعتقد أن هذه الضريبة كانت سببا من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى مزيد من التدهور في أوضاع البلاد .(٢٢)

* عبد الله التركمان :كان كاشف الشرقية بالوجه البحري ... فلما تسلطن (جقمق) ولاه كشف الشرقية فلما ولي ماكف عن قبيح ولا عف عن حرام إلا فعلها . فساءت سيرته في ولايته وحصل للناس منه شدائد لاسيما أهل بلبيس وفلاحي الشرقية فإنه كان عليهم أشر من ابليس وشكاه غير واحد مرات عديدة إلى الملك الظاهر جقمق فلم يسمع فيه كلاماً ، وبالجملة فإنه كان من أوحاش الظلمة – ألا لعنة الله على الظالمين – ابن تغريردي ! النجوم الزاهرة جـ ٧ صـ ٦٣٧ .

وعن الضرائب الحربية الخاصة ، الباهظة للغاية يتكلم ابن إياس بالآتى : جمع السلطان (قنصوة الغورى – المؤلفة) شيوخ العرب والكشافين وأمرهم أن يقوموا بإعاشة خمسمائة * من الفرسان ، وفيما يقول آخرون « خمسة آلاف من الفرسان ، فانطلق الشيوخ والكشافون فى كل ناحية من نواحى البلاد ، فارضين على العباد فى كل قرية صغيرة أعباء ما يكفى لإعاشة فارسين ، مقدرين ذلك بمائة دينار ، أما القرية الكبيرة فعليها أن تقدم ما يضمن إعاشة أربعة فرسان وذلك ما يساوى مائتى دينار ، وعندما سمع بهذا الفلاحون فى أقاليمهم ، تسحبوا من قراهم وهجروا محاصيلهم .. وهربوا .. وصار عدد كبير من القرى مهجورا بسبب هذا الهروب » (٢٣)

وفى القرن الخامس عشر ، ساهم انتشار الطاعون إلى تقلص الرقابة الحكومية ، بسبب عدم الأمان مما أدى إلى خراب الزراعة (٢٤) ونتج عن هذا كله حدة الصراع الطبقى التى كانت هجرة الفلاحين لقراهم ، كما أسلفنا ، أحد أشكال هذا الصراع .

ومن أخبار ابن تغريبردى عن ١٤٥١ م ما يؤكد أن الفلاحين قد تركوا قراهم البائسة واتجهوا إلى المدن « تزايد عدد حشود الصعاليك فى القاهرة ، وتراكمت أعدادهم على الطرقات ، والكثيرون منهم ماتوا من شدة الجوع » (٢٥) فأرض مصر اقتربت من الخراب ... وخربت ** منها قرى عديدة » (٢٦)

* ورد النص وبه بعض النقص فى طبعة الهيئة المصرية ج٥ صـ ٣١ ولكنه ورد كما أوردته المؤلفة فى طبعة دار الشعب كتاب رقم ١٢١ صـ ١٠٠٥ وهو الآتى : أحضر السلطان مشايخ العرب والكشاف وأفرد عليهم نحو خمسمائة خيال وقيل خمسة آلاف خيال ، فنزلوا إلى البلاد قاطبة وصاروا يفردون على كل بلد خيالين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربع خيالة بمائتى دينار ، فلما سمع أهل النواحى من الفلاحين بذلك الأمر ، أخلوا البلاد وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا وخرب بعض بلاد فى هذه الحركة .

** أشرفت القاهرة غير القاهرة ، وبرح عنها خلائق كثيرة من أهلها لاتدخل تحت الحصر إلى البلاد الشامية وورد عليها من أهل القرى والأعراب أمثال من خرج منها ، وكثرت الفقراء منهم فى القاهرة حتى صاروا أفواجا أفواجاً فى الطرقات ومات منهم خلائق كثيرة من شدة القحط . ابن تغريبردى . حوادث صـ ١٠٨ - ١٠٩ ، وأيضاً .. فأرض مصر اختفت من الخراب وخلت غالب القرى من أهلها – ابن تغريبردى حوادث صـ ١١٠ .

طالب السلطان قنصوة الغورى مالكى الإقطاعات بضرورة التعاون فى إعادة الفلاحين الهاربين ، بأسرع ما يمكن ، إلى أماكنهم القديمة ، ولكن الإقطاعيين لم يكن باستطاعتهم أن يوقفوا هرب الفلاحين من قراهم [٢٧] وصار شيوخ القرى بعد ذلك هم المكلفون بإرجاع الهاربين من الفلاحين إلى قراهم .[٢٨]

وكانت هناك أشكال أخرى فى النضال أكثر فاعلية ، وتتمثل في الصدام المباشر مع المماليك من الفلاحين الذين يحملون إلى العاصمة حبوب محاصيلهم لبيعها ، فكان المماليك يجبرونهم على بيع قمحهم بأسعار زهيدة حيث يأخذونه هم ويتاجرون فيه ، ولهذا السبب اندلعت المعارك فى بولاق – الميناء الرئيسى للقاهرة . [٢٩]

وأخيرا كانت الهبات الفلاحية العلنية المعروفة ، وواحدة منها قد حدثت فى١٤٦٢ م فى قرية طوطية القريبة من القاهرة ، واتخذت لنفسها نظرية ذات صيغة دينية* ، ملائمة لذلك العصر ، وابن تغربردى يسمى هؤلاء المتمردين بالملاحدة (زنادقة) ويشير إلى أن أحدهم قد ادعى النبوة وأن « سواد الناس قد انضموا إليه وأعطوه ثقتهم » [٣٠]

وقام الكاشف بالقبض على أربعة عشر ثائراً منهم . ثم بعد ذلك أرسل السلطان : الظاهر سيف ** الدين خوشقدم إلى هذه القرية كبير قضاة المالكية وأمير الخزانة ليتفحصا أسباب هذه النكبة [٣١] ولم يعرف ماذا كان مصير هذه الهبة بعد .

أما ابن إياس فيروى فى حوادث ١٤٨٥ ، عن الاضطرابات التى حدثت بين الجوعى البائسين سواء فى أقاليم الشرقية أو الغربية بسبب سوء المحاصيل والغلاء الفاحش للأسعار ، وبسبب فظاعات المماليك الذين يستلبون الناس جيادهم وبغالهم . [٣٢]

* ورد الخبر .. في قرية طوطية ... أن جماعة زنادقة وفيهم من ادعى الألوهية ومنهم من ادعى النبوة وانضم عليهم جماعة كثيرون من أوباش الناس ومالوا إلى معتقدهم ووقعت منهم أمور شنيعة . حوادث ص ٤١٩ .

** وأن الكاشف أمسك منهم نحو أربعة عشر نفرا فأرسل السلطان إليهم القاضي محيي الدين عبد القادر عبد الوارث .... والخازندار لينظر في حقيقة أمرهم ويفعل فيهم مقتضى الشرع حوادث ص ٤١٩

ومن الممكن أن تكون هذه الهبات صدى للحروب الفلاحية الكبيرة التى قادها : المشعشع فى العراق والتى تحتل مكاناً هاماً فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى العراق ، ومصادرنا تحتوى على بعض المعلومات عن هذه الحروب ؛ وأهم هذه المعلومات خاص بالتأريخ لسنة ٨٥٩ هـ الموافق ١٤٥٤ - ١٤٥٥ م حيث يروى ابن إياس عن حوادث هذا العام فيقول : ورد * إلينا خبر يعلن أن إنساناً يدعى المشعشع وهو ابن فلاح ... ارتعد من أفعاله والى دمشق » (٣٣)

وانتقلت أخبار المشعشع من العراق إلى سوريا ، فمن أخبار ابن إياس عن ٨٦٠ هـ (١٤٥٥ - ١٤٥٦ م) « لم ** يستطع أحد من العراق أن يؤدى فريضة الحج هذا العام خوفاً من المشعشع »(٣٤)

وكانت هذه الهبات تمتلك طبيعة الحركات الفلاحية فى العصور الوسطى فى الشرق العربى ، حيث كانت العقيدة الشيعية وتصوراتها عن مجئ المهدى المنتظر ، وإقامة العدالة المطلقة . (٣٥)

وكانت هذه الهبات من القوة لدرجة أن السلطان : إينال اضطر للتحالف مع حكام ولايتى : أقيون ، وقارقيون لكى ينجح فى قمعها . وبفضل تحالف هؤلاء الحكام الثلاثة فى ١٤٥٧ م تمت الهزيمة الساحقة لهذه الهبات التى كانت تتخفى فى إقليم البصرة ، وجزر الخليج الفارسى ، حيث نجد ابن تغربردى يغالى فى ذلك فيقول إنه كان لديهم ما يزيد عن ثلاثمائة مركب . (٣٦)

وبالرغم من ذلك ، ظلت هذه الحركات - فيما يبدو مستمرة على امتداد السنوات التالية إذ نجد ابن تغربردى ينوه عنها مرة ثانية فى ١٤٦٧ م ، وحتى إبن اياس نفسه يشير إليها فى ١٥١٣ م (٣٧) .

* وفيه جاءت الأخبار .. بأن قد ظهر شخص يقال له ابن الفلاح المشعشع ، وقد حصل منه غاية الفساد ... وأعيا أمره نائب الشام فانزعج السلطان لهذا الخبر» ابن إياس صـ ٢٥١ من الجزء رقم ٩٦ من مطبوعات الشعب : بدائع الزهور ... (وللأسف الشديد لم نجد هذا النص فى طبعة الهيئة العامة لهذا الكتاب فى المكان المحدد له . المترجم) .

** لم يحج فى هذه السنة أحد من العراق ، خوفا من المشعشع الذى ظهر منه الفساد وقد شاع خبره ، ابن إياس جـ٢ صـ ٣٢٩ طبعة الهيئة العامة .

والرعايا الفقراء ، المجبرين على دفع الضرائب بأنواعها للحكومة المملوكية ؛ انتظروا طويلا تخفيف هذه الضرائب على يد أعداء ظالميهم . ففى عهد السلطان قايتباى ، قام المماليك بغزوات على حدود آسيا الصغرى أثناء صراعهم مع أمير تركماني من سلالة دو لجادير يدعى شاه سوار ، ومواتنه التابعة . واستطاع شاه سوار أن يوجه عدة هزائم للمماليك ، واستولى على جزء من سوريا ، لكنهم بعد ذلك استطاعوا أن يهزموه تماما . ويصف لنا ابن إياس إحدى حوادث هذا الصراع الطويل بالمقطع التالى : « كان القتل نصيب كثير من الأمراء حيث تم انكسارهم ثلاث مرات وأوشك دحرهم أن يكون قريباً ، واهتزت كرامة السلطان أمام قياصرة الشرق الآخرين ، مما دفع الفلاحين لأن يتشوقوا للأتراك .. وكادت * السلطة أن تفلت من يد الشراكسة » (٣٨)

فى نهاية ١٥١٦ عشية غزو الجيش التركى لمصر ، رفض الفلاحون دفع الضرائب للماليك ، قائلين « نحن لن ندفع الخراج فى مثل هذه الظروف ، إذ أنتم (الشراكسة – المؤلفة) لم توضحوا لنا ما إذا كانت البلاد فى أيديكم أم فى أيدى بنى عثمان (الترك – المؤلفة) ونحن ** لانستطيع أن ندفع الخراج مرتين » (٣٩)

* وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن ، بعد ما ذهب عليه من أموال وأرواح ، وقُتل جماعة كثيرة من الأمراء ، وكُسر العسكر ثلاث مرات ونهبت بركهم ، وقد انتهت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرها ، حتى الفلاحين طمعوا فى الترك " وتبهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار ، وكادت أن تخرج المملكة من الجراكسة . إبن إياس : بدائع الزهور حـ٣ صـ ٧٨ طبعة الهيئة المصرية .

** وثبت عند الناس أن دولة الأتراك قد آلت إلى الانقراض ... وصار جماعة من الفلاحين إذا أتاهم قاصد يقولون : ما نعطى خراج حتى يتبين لنا إن كانت البلاد لكم أولابن عثمان ، فنبقى نوزن الخراج مرتين .. » ابن إياس : بدائع الزهور حـ ٥ صـ ١٢٣

هوامش الفصل السابع

١ - المقريزى (إغاثة) صـ ٤٥

٢ - ابن إياس ، صـ ٢٣٢ : وانظر A. Ю. Якубовский,

عن الريع المستخدم فى العراق فى القرن الثامن : مطبوعات الاستشراق السوفييتى ١٩٤٧ رقم ٤ صـ ١٧٢ (بالروسية)

٣ - قانون نامة ومصر صـ ١٣٠ - ١٣٢ .

4 - A . Poliak , Feudalism .... pp 69 - 70

٥ - قانون نامة ومصر صـ ١٠١ ، ١٢٢ .

٦ - المقريزى (خطط) ١ صـ ١٣٨ .

٧ - قانون نامة ومصر صـ ١٢٤ - ١٢٥ ،

وانظر A. Darrag , L ' Égypte sous le règne de Barsbay ... p . 62

٨ - ابن إياس صـ ٤٩

٩ - ابن الجيعان صـ ٣ - ٤

١٠ أنظر : E . Strauss , Prix et salaires à L'époque Mamlouke , RÉI , année 1949 , 1950 , p . 70 .

١١ - القلقشندى ٣ صـ ٤٥٣ - ٤٥٤ والمقريزى (إغاثة) صـ ٤٦ .

١٢ - كانت الوحدات النقدية الأساسية عند المماليك فى مصر ، هى الدينار الذهبى ، والدرهم الفضى ، الذى كان يتم صكهما فى القاهرة والإسكندرية ، وكان الذهب يستخرج من على حدود الدولة نفسها أما الفضة المستخدمة فى النقود فكانت تأتى من أوربا .

فى نهاية القرن الرابع عشر قل نقل الذهب إلى مصر ، ويبدو أن ذلك كان بسبب تزايد الطلب على المعادن الثمينة فى أوربا نفسها ، ومنذ هذا الوقت صارت مصر تصك كميات كبيرة من " الفلوس " - (نقود نحاسية) وكانت تختلف فى الوزن والحجم ، وإصدار الدراهم الفضية قل بشكل ملحوظ .

وإلى جانب هذا ، فإن السلاطين الشراكسة بدأوا بانتظام يقللون وزن الدنانير والدراهم ويختصرون ما تحتويه من ذهب أو فضة وذلك بزيادة كميات النحـــاس فيها

Ф. И. *Михалевский, Очерки истории денег и денежного обращения,* т. I, М., 1948, стр. 127—130;

والقلقشندى ٣ صـ ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، والمقريزى (خطط) ١ صـ ١٧٧ ، صـ ٢٨٢ ، وابن إياس ٢ صـ ٣٧ ، ١٠١ ، ١٥٧ ، ١٩٦ ، ٢١٠ ، ٣٣٩ ، وانظر

(A . Poliak. Feudalism ...... p . 66)

وفي زمن الناصر محمد صار الذهب المصرى لايمتلك الصلابة المطلوبة للنقود ، فصار الأهالى يفضلون النقود الأجنبية مرتفعة القيمة ، مثل القروش الأسبانية ، والنقود الألمانية وبشكل أخص الدوكات الفينيسية ، ومحاولات السلاطين : الناصر فرج ، والمؤيد شيخ ، وبارسباى، وجقمق ، إعادة القيمة الكاملة للنظام النقدى لم يتحقق لها النجاح ....، انظر

A . R Van Gennep , Le ducat vénitien en Égypte: son influence sur le monnayage de l'or dans ce pays au commencement du XV siecle - <<Revue numismatique >> t . I , Parism, 1897 .

و أيضاً A. S. Ehrenkretuz , Contribution to the knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages ,- BSOAS , vol . XVI , 1954 , pt 3, p . 514

و أيضاً : -- L . Sobhi, Geld und Kredit: Studien zur Wirtschafts - geschichte Aegyptens im Mittelalter ,- JESHO ,

vol . II , 1959, pt 3 , pp. 230 - 234 .

13 - E.Strauss, prix et salaires à l'époque Mamlouke ,p . 50

١٤ – ابن إياس ٤ صـ ٣٧٧ .

15 - Silvestre de Sacy . Sur la nature... , p . 185 .

١٦ – الظاهرى : صـ ١٢٩ .

١٧ – ابن إياس ٢ صـ ٣٤ .

١٨ – ابن إياس ١ صـ ٣١٥ ، ٢ صـ ١٧ ، ٣٢٣ ، ٣ صـ ١٣ ، ٣٢ ، وابن تغريردى (حوادث) صـ ٦٧٣ ، A . Darrag, l Égypte sous le règne de Barsbay ... pp . 87 - 88 .

١٩ – القلقشندى ٣ صـ ٤٤٩ – ٤٥٠ .

٢٠ – ابن تغريردى (نجوم) ٧ (إصدار بوبر) صـ ٦٢٤

وعن تعسف " الكاشفين " فى أداء وظائفهم نجد عند الظاهرى : << وغالباً ما كان " الكاشفون " يتوجهون ناحية البحر (إلى الشمال) : فواحد يتجه إلى الأقاليم الشرقية ، والآخر يتجه إلى الأقاليم الغربية ، وكان من عادات الكشّاف فى مناطق النيل ... أن ينتهكوا حقوق المواطنين ، فيعيشون فى القرى فى أبهة لانظير لها ، وسواء كانوا فى الجنوب أو الشمال من أقليم مصر ، تكون حصة الواحد منهم فى الليلة الواحدة تقدر بالآف من الدينارات .. (نفس المصدر صـ ١٣٠)

واحتفظت مدافن داوراق (من أقاليم حلب) بنقوش يستدل منها على محاولات الحكومة فى الحد من جور السلطات المحلية وذلك عن طريق تنظيم المداخيل . (نقش مؤرخ فى ١٤٨٦)

(CIA III , p.95) وفى نقش على المدرسة الشمسية فى طرابلس ويتناول ١٥٠٣ م ، يجرى الحديث عن اضطهاد قواد قلاع طرابلس للمسيحين القاطنين فى ضواحى طرابلس : العاملين فى أراضى الوقف المخصص للمسجد المكي ، وعلى ما يبدو فإن العمل هنا كان أجباريا بسبب توقفهم عن أداء الجزية (الضريبة المقررة) والتى كانت على الأرجح مساوية لقيمة الخراج .

CIA II, pp . 81 - 82

21 - A . Poliak, Feudalism ..., p . 25 ' A. Darrag, l'Égypte sous le r´gne de Bars-bay ... p. 62 .

ومن المهم ، أن نجد عند ابن الفرات فى (١٣٧٩) أخبارا شنيعة عن تحريم السلطان الصالح صلاح الدين حاجى " حماية " الفلاحين من جانب القائمين بالإشراف على ضياع الأمراء والأجناد المحاربين ، وعلى ما يبدو فإن الحديث هنا يدور عن جباية الابتزازات المقررة ، بواسطة هؤلاء الأشخاص (المشرفون) من فلاحى الأقاليم في إقطاعات هؤلاء الأمراء المنوه عنهم (٩ حـ٢ صـ ٤١٢) .

٢٢ – ابن تغربردى (نجوم) ٧ (إصدار بوبر) صـ ٥٦١

٢٣ – ابن إياس ٤ صـ ١٠٤ ، ٣ صـ ٦٠ ، ٤ صـ ٧٣ ، ٤٠٨

وهناك ابتزازات خاصة يتم جمعها لضمان حياة الفرق المأجورة والتى ظهرت فى مصر فى عهد السلاطين الشراكسة الأواخر انظر

(D´. Ayalon. Gunpowder and firearms in the Mamluk kingdom,p . 71)

وينبغى الانتباه إلى أن جنود المشاة من غير المماليك قد تم التنويه عنهم فى نقش على أحد المساجد فى دمشق متعلق بالربع الأخير من القرن الخامس عشر

" Décrets mamelouks " .. I , p. 24 .

٢٤ – انظر- D. Neustadt , The plaque and its effects upon the mamluk army JRAS, 1946, pt I - II , " Philipps , des letzten Grafen zu katzenellenbogen, Pilger-reise nach Aegypten und Palastine im jahre 1433 und 1434 - " Die Vorzeit , einTas-chenbuch fur das Jahr 1821" Marburg ,1820 , S . 58 , 60 , 62 ; J . Sauvaget , La poste aux chevaux dans lempire, des mamelouks , Paris , 1941 , p . 86

٢٥ – ابن تغربردى (حوادث) صـ ١٠٨ – ١٠٩

٢٦ – نفس المصدر صـ ١١٠ وانظر أيضاً (نجوم) ٧ (إصدار بوبر) صـ ٢١٩

وانظر أيضاً . A . Darrag , L'Égypte sous le règne de Barsbay . pp . 62 - 63

٢٧ – ابن إياس ٤ صـ ١٠٣ .

٢٨ – قانون نامة ومصر صـ ١٢٤ ، ١٢٥ .

٢٩ - ابن تغريبردى (حوادث) صـ ٨٨ - ٨٩ . وصارت بولاق المرفا الرئيسى للقاهرة منذ زمن المؤيد (١٤٦١) " وصارت تلعب دوراً مشابها للفسطاط " .. انظر "

A . Darrag , L'Égypte sous Le règne de Barsbay , . .. p . 85 .

٣٠ - ابن تغريبردى (حوادث) صـ ٤١٩ .

٣١ - نفس المصدر صـ ٤٢٠ .

٣٢ - ابن إياس ٢ صـ ٢٣٢ .

٣٣ - ابن إياس ٢ صـ ٤٥ .

٣٤ - ابن إياس ٢ صـ ٥٤ .

٣٥ - انظر :

В. В. Бартольд, *Новый источник по истории Тимуридов,* —

«Записки Института востоковедения АН СССР», т. V. М. — Л., 1935,

стр. 21—22; И. П. Петрушевский, *Движение сербедаров в Хорасане,* —

«Ученые записки Института востоковедения АН СССР», т. XIV, М., 1956, стр. 93 и сл.;

وانظر أيضاً :

И. П. Петрушевский, *Деревня и крестьяне Средневекового Ближнеего Востока в трудах ленинградских востоковедов,* — «Ученые записки Института востоковедения АН СССР», т. XXV, М., 1960, стр. 212—216;

وأيضاً :

A . Poliak, Les révoltes populaires en Égypte à L'époque des mamelouks et leurs causes économiques, REI, VIII, 1934 , p . 261,

وانظر أيضاً

A. Poliak , L'arabisation de L' Orient sémitique -RÉI , XII 1938. p. 62, - V. Minorsky, Mushasha, - EI, Erganzungsband, Lieferung IV , 1937 ,S. 174 - 177

٣٦ - ابن تغريبردى (حوادث) صـ ١٩٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، وابن تغريبردى (نجوم) ٧ (إصدار بوبر) صـ ٤٩٤ .

٣٧ - ابن إياس ٤ صـ ٢٥٥ ، وابن تغريبردى (حوادث) صـ ٥٤٩ .

٣٨ - ابن إياس ٢ صـ ١٣٩ .

٣٩ - ابن إياس ٢ صـ ٨٨ .

الفصل الثامن

البدو والعبيد

الفصل الثامن

البـدو والعبيـد

يتكون قسم رئيسى من سكان مصر ، من قبائل العرب البدويين الرعاة الرحل ، وهجرتهم إلى مصر ، إما من الصحراء العربية أو الصحراء الليبية لم تتوقف على مدى الأزمان الغابرة[1] وقد أبقى البدو على تنظيمهم القبلى ، القائم على أصل القبيلة والمعتمد على التفاوت فى درجاتها ، وكانت عملية تجنسهم وتأقلمهم مع الأهالى الأصليين ، العاملين بالفلاحة على امتداد وادى نهر النيل ، تتم ببطء وغالبا كان البدو يُخلّون بالعلاقات المسالمة بينهم وبين الفلاحين ، فيهاجمون قراهم ويفسدون محاصيلهم وطالما سعت الحكومات إلى القضاء على مثل هذه الأوضاع ، وحاولت جاهدة بالأساليب الإجبارية أحياناً أن تحول هذه القبائل المحاربة إلى سكان حضريين ففى ١٢٦٣ – ١٢٦٤م أرسل الظاهر بيبرس إلى قبائل الخفارة والسلايم فى مصر العليا من يناشدهم العمل بالزراعة [2] .

وكما قدمنا سابقاً ، فإن البدو كونوا فرقا من الخيالة فى جيش مصر ، وفى عهد صلاح الدين كانت فرق قبيلة واحدة وهى الجزام – يبلغ عددها سبعة آلاف رجل ،وكان هناك الكثير من فرسان قبيلة القنانات التى أتت من فلسطين الجنوبية بعد استيلاء الصليبين على عسقلان فى ١١٥٣ م ، واستوطنت دمياط وضواحيها [3] وفى عهد الصالح أيوب" اضطر بنو الفيوم فى ظروف حرجة إلى تقديم أربعمائة* فارس ، كان بينهم ١٦٧ فارسا من بنى عجلان ، ٣٣ فارسا من بنى سمالوس ، ٢٠٠ فارس من بنى كلاب [4] .»

وشيوخ البدو كانوا أصحاب نفوذ واسع إلى أبلغ الحدود ، فهم يحملون لقب الأمير ، وكان البدو العاملون فى الجيش يمنحون الإقطاعات التى تقع عادة فى

* والذى هو مقرر على عربان البلاد بالفيوم إذا رسم بخروجهم فى الخدمة لما يعرض من المهام أربعمائة فارس ، النصف من ذلك باسم بنى عجلان وبنى سمالوس ، مائتا فارس تفصيله:بنو عجلان خاصة من عشرة أسهم مائة وستة وستون . وثلثان بنو سمالوس عن سهمين ثلاثة وثلاثون فارساً والنصف الثانى باسم بنى كلاب .... النابلسى صـ ١٧٧ – ١٧٨

أطراف البلاد وهذا الوضع ظل معمولا به في عهدي السلالتين المملوكيتين [٥] ومن المعروف أن عدد إقطاعات البدو تزايد في عهد السلطان الشركسي الأول : الظاهر برقوق ، إذا إن فرق البدو قامت بدور فعال عندما كان يصارع من أجل السلطة[٦] وصار البدو والمتحولون إلى الاشتغال بالزراعة يدفعون نفس الضرائب التي يدفعها أهالي مصر الأصليين المشتغلين بالزراعة [٧] ويقول ابن مماتي ، إنه يوجد في أقاليم مصر الشرقية والغربية أراض ، تقوم بفلاحتها القبائل البدوية المحاربة ، وعلى الأرجح ، فإنه يقصد تلك القبائل التي تحضرت ، وتحولت إلى الزراعة وصارت مجبرة على دفع الخراج بمقدار ما تحوز من مساحات الأرض وليس بمقدار ما تعطيه هذه الأرض من إنتاج [٨] .

وكان البدو المالكون للإقطاعات شأنهم في ذلك شأن كل المقطعين ، مجبرين على دفع قسط من ريعهم للحكومة ، ؛ ففي ١١٧٢م بلغ العشر المدفوع من بدو الجزام مليون دينار[٩] .

أما البدو الرحل الذين لم ينضموا إلى الجيش ، فكانوا مجبرين على دفع مبلغ محدد يسمى الزكاة[١٠] . وعلى كل ، فإن وضع البدو بصورة عامة كان أقل قسوة من وضع الفلاحين .

فالمقريزى يشير مرة واحدة إلى مساهمة البدو في تشييد التحصينات الدفاعية [١١]، أما عملهم في السخرة ، فلم يتناوله أحد من المؤرخين .

وبالرغم من ذلك ، كان البدو هم القوة الأساسية في الهبة الشعبية الواسعةالنطاق في ذلك العهد والمعروفة بانتفاضه ١٢٥٣ م ، وهذه الانتفاضة ، بدأت في أسيوط بين البدو الذين كانوا يعملون لدى الأيوبيين وكان على رأسها الأمير حسن الدين شيخ قبيلة صليب المنحدرة من عرب الشمال ، والتي استقرت في مصر العليا في بداية القرن الثالث عشر[١٢] ويقول المقريزى إن البدو قد رفضوا العمل لدى المماليك ؛ لأنهم اعتبروهم « عبيدا سابقين » وصاروا يضعون العراقيل في وجوه جباة الضرائب المماليك ، ويقيمون العلاقات مع الناصر يوسف الأيوبي حاكم دمشق في ذلك الوقت ، حاثين إياه على الهجوم على مصر [١٣] ومن الممكن الزعم هنا بأن السبب الرئيسي لهذه الهبة يكمن في تكثيف استغلال البدو بسبب تغير السلالة الحاكمة .

وانضم البدو في البحيرة والجيزة والفيوم إلى فرقة الأمير : حسن الدين ، بل إن بدوا من أقاليم مصر الأخرى انضموا إلى هذه الانتفاضة ، ووفقا لما يقرره المقريزي . بلغ عدد فرسان البدو ١٢٠٠٠ فارساً ، أما المشاة فكان عددهم لا يقدر ، لكن ابن عبد الظاهر يقدر عدد الفرسان والمشاة (١٣٠٠٠) مشيرا إلى أنه قد عرف هذا من السلطان : المعز أيبك نفسه [١٤] وطبقا لما يرويه المقريزي ، فإن السلطان وجه إلى المتمردين خمسة آلاف مقاتل على رأسهم الأمير : أقطاي ، لكن ابن عبد الظاهر يقرر أن عدد المماليك كان لا يزيد على ألفي رجل فقط وكانوا تحت قيادة السلطان نفسه [١٥] .

وانهزم البدو في مصر العليا واستولى المماليك على الأسرى والمواشي واتجهوا بعد ذلك إلى الشمال حيث هزموا بدو الغربية والمنوفية ، أما الأمير حسن الدين نفسه فأوقعه المماليك في قبضتهم بالحيلة والغدر عند بلبيس مقر قيادة السلطان : المعز أيبك وأعطاه السلطان وعداً بالعفو عنه وعن أنصاره المستسلمين ومنحه إقطاعا بالرغم من أنه أعدم ٢٦٠٠ من أنصاره ، وأما عن حسن الدين نفسه فهناك روايات عن مقتله بيد السلطان نفسه ، ورواية أخرى تقول إنه ألقي به في السجن ، بقلعه الإسكندرية [١٦] .

وحالما حطم السلطان : المعز أيبك هبة البدو ، أمر بزيادة الضرائب المقررة عليهم، وبزيادة المخصصات الإضافية التي يقدمها البدو إلى موظفي السلطان .لقد صاروا(البدو-المؤلفة) أذلاء* وصار وضعهم ينحدر من سئ إلى أسوأ فتقلص عددهم [١٧] ورغم ذلك ، فإن هناك هبتين واسعتين ، قام بهما بدو مصر العليا في بداية القرن الرابع عشر ، وكانتا على ما يبدو نتيجة لسياسة التطويق الضرائبي ، كانت الهبة الأولى في ١٣٠١ - ١٣٠٢م - واشترك فيها البدو سواء كانوا رحلا أم مقيمين [١٨] .

يقول ابن دويدار - مؤرخ العهد المملوكي الأول - إن البدو قد استولوا عى كل

★ وأمر المعز بزيادة القطيعة على العرب وبزيادة القود (ما يأخذه السلطان من خيل وإبل وحيو ن - المترجم) المأخوذ منهم ومعاملتهم بالعسف والقهر ، فذلوا وقلوا حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال في وقتنا - المقريزي سلوك ١ هـ٢ صـ ٣٨٨

مصـر العليـا ، ولم يسـمـحوا للأمـراء والمحاربين بإمكانيـة تحصيـل مـداخيـلهم من إقطاعاتهم التي يحوزونها [١٩] ولهزيمة هذه الهبة ، اشتركت قوات كبيرة من المماليك برئاسة ، أربعة وعشرين أميراً من الأمراء المائة ، وكانت الخطة المعدة لهزيمة هذه الهبة محكمة لغاية ، فالمماليك توجهوا ناحية الجنوب على طرق مختلفة ، وظهروا فجأة في الصعيد من الغرب والشرق دون توقع ، كان ذهابهم من الجيزة وأطفيح ، ونتيجة لهذه المعارك ، قتل عشرة آلاف شخص من متمردى البدو ، ووقعت النساء في السبى ، وتم الاستيلاء على أعداد هائلة من قطعان الماشية ، وما يزيد على أربعة آلاف حصان ، وما يزيد على مائة ألف من الأغنام والجمال ، وفي رواية أخرى ما بين ١٢٦٠٠ إلى ٣٢٠٠٠ رأسا من الأغنام والجمال [٢٠] .

وكانت الهبة الثانية للبدو في ١٣١٣ - ١٣١٤ م وانهزمت أيضاً على يد المماليك ، وتم تقييد الكثير من البدو بالسلاسل وسوقهم إلى القاهرة ، حيث ألقى بهم في السجون ، وفيما بعد تم استخدامهم في إقامة السدود .

وما يستحق الانتباه هنا ، هو أن ما نعرفه عن هذه الهبة البدوية ، جاء من أحد المشتركين فيها ، ويسمى مقداد ★ بن شماس ، الذى تحول إلى جانب المماليك وصار يمتلك ثروة كبيرة ، ومعروف أن السلطان قد عفا عنه وأعطاه كمية من النقود والحبوب

وأقام ابن شماس هذا هو وأهل بيته في إقليم يزرع بالرى في (النحريرية) على قناة الاسكندرية حيث اشتغل بالزراعة [٢١] .

في ١٣٥٣م . نشبت هبة أخرى في صعيد مصر ، قامت بها قبيلة عرك بقيادة الشيخ ابن أحدب ، وفيما يبدو ، فإن الفلاحين اشتركوا في هذه الهبة ، ولكن فرق المماليك حطمت العصاة واستولت على عدد كبير من الأسرى ، وعدد من المواشى ، وتيسر لبعض البدو الهروب خارج الحدود المصرية في بلاد الزنج "وصار محرما على

★ وقبض على مقداد بن شماس وكان قد عظم ماله حتى بلغ عدد جواريه أربعمائه جارية وعدد أولاده ثمانون .. وقُتل عدد كبير من العربان ، وعاد فحبسه السلطان مقدار مدة ثم أخرج عنه ، وأنعم عليه بمال وغلال ، وكتب برد أهله وأولاده وعبيده إليه وأنزله بالنحريرية التى أنشأها على خليج الإسكندرية فأقام مقداد هناك وأنشأ البيوت والسواقى والدواليب وعمر تلك الجهات وبقى عقبه من بعده بها . المقريزى . سلوك ٢ جـ١ صـ ١٢٩

الفلاحين أن يركبوا الخيل وأن يحملوا الأسلحة " أما البدو فكان عليهم أن يعملوا إجباريا بالفلاحة [٢٢] .

ولم تتوقف هبات البدو بالرغم من ذلك طوال الأزمنة التالية ولكن هذه الهبات لم تحظ باهتمام المؤرخين كمثيلاتها : حيث لا نملك إلا القليل من معطيات بعض المؤرخين.

ففي سنة ١٣٧٩م ، استولى بدو يبلغ عددهم خمسة آلاف رجل على مدينة البحيرة الرئيسية(دمنهور) وبذل المماليك جهوداً حربية كبيرة ، كي يستعيدوها مرة أخرى. [٢٣] وفي بداية حكم المماليك الشراكسة في ١٣٨٩م ، حدثت اضطرابات واسعة في صعيد مصر ، قام بها بدو الصعيد بقيادة قبيلة الخفارة المنوه عنها سابقا. [٢٤] وفي ١٣٩٦ استولت الخفارة أيضاً مع قبيلة بني أحمد على مدينة أسوان لبعض الوقت [٢٥] وفي ١٤٣٨ – ١٤٣٩ تظهر مرة أخرى هبات قبيلة الخفارة [٢٦] ويتحدث ابن إياس ★عن هبات عرب البحيرة واستيلائهم على الحبوب في ١٤٠١ – ١٤٠٢ و ١٤٦٨ م ، [٢٧] ويشير ابن تغريردى إلى هبات بدو قبيلة لبيد في البحيرة في ١٤٦١ ، ١٤٦٢م ، [٢٨] وتشير أيضا كتابات المؤرخين لانتفاضات البدو في الصعيد في سنوات ١٤٤٨ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦٧ ، وفي ١٤٧١ – ١٤٧٢ تظهر مرة أخرى انتفاضات البدو في الشرقية وفي ١٤٧٥م [٢٩] تظهر في الجيزة والشرقية ، وفي الصعيد في ١٤٨٧م تظهر أيضاً انتفاضات لم تستطع المماليك المرسلة لإخمادها من قبل السلطان لفترات طويلة [٣٠]

★ ويقول ابن إياس .. وانكسر شيخهم ابن الأحدب ، وصار الأمير شيخو يقطع رأس كل من رآه من الفلاحين يقول دكيك (!) حتى بنى من رؤوس العربان مساطب ومواذن على شاطئ البحر ... ثم إن السلطان نادى في القاهرة بأن الفلاح لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا . – طبعة دار الشعب صـ ١٧٢ جـ٩٠ من سلسلة كتاب الشعب .

وردت عند ابن خلدون في العبر جـ٥ صـ ٤٥٠ كالآتي : وفي أثناء هذه الفتن كثر فساد العرب بالصعيد وعيثهم وانتهبوا الزروع والأموال وتولى كبر ذلك الأحدب ، وكثرت جموعه فخرج السلطان في العساكر سنة أربع وخمسين ، فهزم العرب واستلحم جموعهم وامتلأت أيدي العساكر بغنائمهم .. وأسر جماعة منهم فقتلوا ، وهرب الأحدب حتى استأمن بعد رجوع السلطان فأمنَّه ، على أن يمتنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح ويقبلوا على الفلاحة والله أعلم .

أن تقضى عليها .

فى سنة ١٤٩٨ م قامت قبائل ماران وجويلى فى البحيرة والغربية وبهبات ضد انتزاع الخراج منهم مرة أخرى ،

ويخبرنا ابن اياس أن السلطان الظاهر قنصوه توجه لإخضاع هولاء البدو وقتل الكثير من أهالى البحيرة على أيدى فرق المماليك من جراء ذلك [٣١] وشبيه بهذه الهبات والتمردات ما كان يحدث فى سوريا [٣٢]. وهبات البدو وتمرداتهم وانتفاضاتهم لم تتوقف حتى بدايات القرن السادس عشر [٣٣] فبعض من قبائل البدو عرضوا مساعداتهم على الغزاة الأتراك ، وسلموا للسلطان سليم الأول ، طومان[٣٤] باى آخر سلاطين المماليك الشراكسة .

●●●

وكان وجود العبودية ملمحاً مميزا فى البنية الاجتماعية فى مصر ، فى العهد الأيوبى والمملوكى شأنها فى ذلك شأن البلاد الأخرى فى بلاد الشرق فى العصور الوسطى . وكان المصدر الرئيسى لهؤلاء العبيد حتى نهاية القرن الثالث عشر هو الحروب الصليبية ؛ حيث كان العبيد يُجلبون من سوريا ويؤخذون بمثابة غنائم مباشرة من المعارك الحربية أو يتم شراؤهم من الأسواق . فمعروف أنه ، على سبيل المثال ، تم بيع الأسرى المسيحيين بعد معركة حطين فى دمشق نظير ثلاثة دنانير للعبد وأحياناً كان الأسير يباع بزوج من الصنادل [٣٥] وبعد الاستيلاء على القدس تحول إلى العبودية ستة عشر ألف أسير ، ووزع صلاح الدين الكثير منهم على أمرائه المحاربين[٣٦] وفى ١١٩٧ م حملت المراكب العائدة من قليقلة ٥٥٠ [٣٧] أسيراً . ويتحدث أبو شامة عن معركة مع الصليبيين فى غزة وعسقلان ١٢٤٤ م فيقول إنه – بعد المعركة – تم جلب كل الأسرى إلى القاهرة[٣٨] والكثير من الصليبيين ظل أسيراً فى مصر بعد معركة[٣٩] المنصورة وتم جلب ١٢٥٠ أسيراً إلى مصر نتيجة لإحدى الحملات التى توجهت إلى أنطاكية واستولت عليها تماماً[٤٠] ويحكى العينى وهو أحد مؤرخى العصر المملوكى المتأخر – عن العهد المملوكى فيقول إنه بعد الاستيلاء على عاصمة الإمارة وخاصة مدينة أنطاكية باع التجار المسلمون والمحاربون العبيد بمبلغ هزيل جدا[٤١]. ويقول هذا المؤرخ ويتطابق معه المقريزى – إن السلطان :" الظاهر بيبرس قد وزع على جيشه عددا من الأسرى العبيد[٤٢]. ومن الطبيعى أن يتناقص تدفق العبيد على مصر ، بعد إجلاء الصليبيين ، وتمكن بعض العبيد من الهرب من سوريا إلى أرمينيا الصغرى ، نتيجة للغزو المغولى ، ولكن عددهم كان قليلاً جداً [٤٣] .

وبعد الاستيلاء على جزيرة قبرص في١٤٢٦ م وقع في الأسر كثير من القبرصيين ، وتم بيعهم كعبيد في أسواق القاهرة (٤٤)

وعلى امتداد هذه الفترة الخاضعة للدراسة ، كان العبيد يجلبون من الدول المجاورة في أفريقيا وفي مقدمتها النوبة ، ومنذ الغزو العربي كان القياصرة النوبيون الذين أعلنوا خضوعهم إلى مصر قد أخذوا على عاتقهم أن يرسلوا ٣٦٥ عبداً في كل عام لحكام مصر ، وبشرط أن يكونوا من الرجال والنسوة الأصحاء (٤٥) .لكن هذا التعهد لم يكن ينفذ دائما بانتظام ، لأن بعض الحكام النوبيين أعلنوا استقلالهم وتعدوا على الحدود المصرية في ذلك الوقت . وكان السلاطين المصريون في مثل هذه الحالات يرسلون فرقا حربية إلى النوبة ، وقد سبق الكلام عن حملة طوران شاه في ١١٧٣ م التي كان أحد أهدافها ، إعادة تبعية النوبة إلى مصر ، ولم يكتف طوران شاه بتحقيق هدفه ، ولكنه جلب من المدينة النوبية "أبريم" ٧٠٠ فرداً كان من بينهم الأطفال والنساء ، وحولهم جميعاً إلى عبيد (٤٦) . وتحققت حملات مشابهة إلى النوبة في عهدي:الظاهر بيبرس وقلاوون (٤٧) :

وقائمة " المكوس التي تم إلغاؤها في عهد السلطان : الناصر محمد أي في ١٣١٥ – ١٣١٦م ، بالرغم من عدم دقتها تم التنويه فيها عن الضريبة التي كان يجب دفعها عن كل عبد أوأمة – ينزل في أي قصر ، أو في أي خان بمجرد هبوطه من المراكب النوبية (٤٨) .

وعلى الأرجح ، فإن العبيد الذين كانوا يصلون إلى مصر من النوبة ، لم يكونوا فقط تنفيذاً للمعاهدة المصرية النوبية أو كانوا يجلبون كغنائم حرب ، بل إنهم كانوا يصلون إلى مصر أيضاً عن طريق التجارة – خاصة تجار العبيد وهذا هو ما يقصده المقريزي في قوله عن دفع ضريبة محددة عن كل عبد ومن الممكن أن يكون الحديث الذي يجري عند ابن الفرات في أخباره عن ١٣٩٠ م وقوله إن السلطان الظاهر برقوق وجه إلى مصر العليا عددا من الأمراء بهدف إحضار العبيد والخيول ؛ كان متعلقابالصفقات التجارية مع النوبيين (٤٩) وتم جلب المماليك العبيد أيضاً من غرب أفريقيا ، ففي أخبار ابن تغريردي عن ١٤٥٤ م نجده يقول على سبيل المثال « ووصلت

إلى القاهرة قافلة من المغرب ، كان بها* عدد من البضائع تضمنت العبيد والخيول وأشياء أخرى كثيرة ، كى تباع للمصريين عن طيب خاطر(٥٠)» وهناك حقائق جديرة بالذكر تتعلق بالتنويه بالعبيد ، حيث نجد مؤلفى العهد المملوكى الأخير يستخدمون لفظ العبيد للدلالة على العبيد السود» (٥١) .

وهنا من الممكن القول ، بأن الدول الإفريقية ظلت تقوم بالدور الرئيسي - كمصدر لتوريد العبيد إلى مصر من القرن الرابع عشر حتى القرن الخامس عشر .

أما عن وجود العبودية التعاهدية** فى العهدين الأيوبى والمملوكى فلا توجد فى مصادرنا أية معلومات عنها - وفيما يبدو ، فإن هذا الشكل من العبودية كان غير شائع فى مصر شأنها فى ذلك شأن الدول المجاورة ؛ ولذا ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الظروف التى تمنع تماماً اقتناء المسيحيين خاصة القبط منهم للمسلمين كعبيد(٥٢) ".

كان البدو أحياناً يتحولون إلى عبيد . هذا ما نجده عند ابن إياس وهو يتحدث عن مصر العليـــا فى ١٤٨٧م ، ، بعد هزيمة قبـــائل البدو المتمردين المعروفين بالأحمديين (بنى أحمد) فيقول إن جميع العصاة قد هلكوا تقريباً ، لكن نساهم وأطفالهم ؛ تم أسرهم ونقلوا إلى القاهرة حيث بيعوا كعبيد سود زنجيين (٥٣).

وقد نوهنا ســـابقاً بمجمـــوعة من الفلاحين حولها السلطان : المؤيد شيخ إلى عبيد (٥٤) . وفيما يبدو فإن عدد العبيد ذى الأصل المحلى ، كان قليل الأهمية على امتداد الفترة محل البحث حيث كان أغلب العبيد يأتون من خارج البلاد .

والطبيب عبد اللطيف البغدادي ، هو الوحيد الذى يكتب عن فترة المجاعة المهلكة التى امتدت من ١٢٠٠ إلى ١٢٠٢ م حيث يقول عن هذه الحوادث بصفته شاهد عيان لقد كان الناس البؤساء يسعون لإنقاذ أنفسهم وأولادهم بعرض أنفسهم للبيع بكامل

* قدم إلى القاهرة ركب المغاربة وصحبتهم تقدمه هائلة من صاحب الغرب فأنزلهم السلطان بالميدان من تحت القلعة وكانوا جميعاً كثيرين للغاية ومعهم من أنواع المتجر كالرقيق والخيول والأقمشة وغير ذلك أشياء كثيرة ونفق سوقهم على المصريين وباعوا أحسن بيع . ابن . تغربردى ، حوادث صـــ ٢١٤ .

** العبودية نظير الدّين ـــــ المترجم.

رغبتهم ، فلقد توسلت إلى إحدى الأمهات أن أشترى ابنتها * وكثير من هؤلاء العبيد تم نقلهم الى العراق وخراسان والبلاد الأخرى (٥٥) .

وكان العبيد عادة يشتغلون كخدم فى قصر السلطان أو فى قصور الأمراء والتجار (٥٦) وعند رؤساء القبائل البدوية ؛ وهكذا استطاع البدوى الثرى - المنوه عنه سابقا مقداد بن شماس أن يمتلك أربعمائة أمة (٥٧) وكان العبيد، المتقنون لفنون الغناء ، والرقص يثمنون بسعر خاص . ولم يكن عددهم بالقليل حيث يقول المقريزى إن عرس بنت السلطان : الناصر محمد التى كانت تتزوج من ابن أحد الأمراء - كانت تغنى به عشرون فرقة تتكون من عبيد السلطان وعبيد الأمراء . (٥٨)

وفى زمن بناء القلعة فى عهد صلاح الدين - كانت هناك أعمال غاية فى القسوة (مثل قطع الرخام، وصقل المرمر ، وتسوية الأحجار الكبيرة ، وحفر الخنادق ... الخ

وكان الذين يقومون بها فقط ، هم كما يقول ابن جبير**« الأسرى الرومانيون الذين كان عددهم لا يعد ولا يحصى .» ويختتم(٥٩) ابن جبير كلامه بقوله : وممنوع أن يستخدم فى مثل هذه الأعمال ، العمال الآخرون" وهؤلاء العبيد هم الذين استخدموا فيما بعد ، فى بناء الحصون الدفاعية فى عكاعشية حصارها (٦٠) واستخدم صلاح الدين أيضا الأسرى فى تحصين القدس(٦١) وتم استخدامهم بعد ذلك فى أربعينيات القرن الثالث عشر فى بناء مدرسة فى القاهرة ، وإقامة قصر فى جزيرة الروضة. (٦٢) وساهم ما لا يقل عن ثلاثمائة من الأسرى فى بناء مستشفى القاهرة فى عهد السلطان قلاوون بين (١٢٨١ - ١٢٨٥م (٦٣)).

واستُخدم العمل العبودى أيضاً فى بناء الاقتصاد الزراعى ، فمعروف أنه فى زمن

* وسألتنى امرأة أن اشترى ابنتها كانت جميلة دون البلوغ، بخمسة دراهم فعرفتها أن ذلك حرام ، فقالت خذها هدية ، وكثير ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق عظيم ، ووصل سبيلهم إلى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك . البغدادى : الافادة والاعتبار صـ ٦٧ طبعة سلامة موسى .

** والمسخرون فى هذا البنيان (قلعة صلاح الدين - المترجم) والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر عجبا ... هم من الأسارى من الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم رحلة ابن جبير صـ ٥١ .

الحملة الصليبية الثالثة ، وعندما قُتل الامبراطور الألماني : فردريك الأول بارباروسه ، وصارت قواته المنهوكة تكابد الهزيمة على الأراضي السورية وقع عدد كبير من هذه القوات في الأسر وبيعوا كعبيد في أسواق حلب . حيث يخبرنا المؤرخ الحلبي للقرن

الثالث عشر : كامل الدين ، فيقول "لا يوجد في هذه الأقاليم فلاح ، ليس تحت تصرفه ثلاثة أو أربعة من الأسرى الألمانيين (٦٤) » .

والملاحظة غير المباشرة للمقريزي تؤكد الافتراض بأن هؤلاء العبيد من الأسرى هم الذين كانوا يعملون ، في هذه الفترة في اسطبلات السلاطين وأمرائهم(٦٥) وكما أشرنا فإنه في بداية الأربعينيات من القرن الرابع عشر تم بناء حظيرة كبيرة جداً بالقرب من القاهرة ، كانت تابعة للسلطان : الناصر محمد شخصيا ، حيث استورد لها الأغنام الأصيلة والثيران البلقاء والأوز والطيور والبهائم المختلفة التي صارت تجلب إليها من جميع أقاليم مصر ومن النوبة واليمن ومن البلا د الأخرى . وبعد موت السلطان تبين أن عدد النعاج من النوع الجيد في هذه الحظيرة بلغ ٣٠ ألف رأس ، ذلك خلاف إنتاجها الذي لا يحصى ولا يعد "وقلده * في ذلك باقي الأمراء ، حيث صار لكل أمير حظيرته ومرعاه بكل أقاليم مصر العليا والسفلى(٦٦)" ويكمل المقريزي : أن كل القائمين بالعمل على رعاية هذه الحيوانات كانوا من العبيد الأسرى المسيحيين (٦٧) وكان العبيد يقومون بالعمل في ضياع السلطان علاوة على الأعمال الأخرى(٦٨) ويعطينا ابن إياس إمكانية الافتراض بأن عمل العبيد استخدم أيضا في مزارع قصب السكر المملوكة لأعيان ووجهاء البلاد(٦٩) .

وكانت أوضاع العبيد القاسية سببا في محاولاتهم المتكررة في الهرب ويؤكد المقريزي هذا بقوله « كان هناك رجل يدعى "ابن البطوني ** تخصص في قنص

* وعني السلطان الناصر أيضاً بجمع الأغنام وأقام لها خولة ، وكان يبعث لها في كل سنة الأمير: آقبغا في عدة من المماليك السلطانية ليكتشف المراحات من قوص الى الجيزة ويأخذ منها ما يتميز من الأغنام ، وعمل لها السلطان حوشاً بقلعة الجبل وأقام لها خولة نصارى (من الأسرى) وعني أيضاً بالوز وأقام لها عدة من الخدام والجوارى وجعل لها جاير بحوش الغنم ، فبلغت عدة الأغنام التي تركها بعد موته نحو الثلاثين ألف سوى أتباعها ، فاقتدى الأمراء به وصارت لهم أغنام عظيمة جدا في عامة أرض مصر قبليها و بحريها . المقريزي سلوك ٢ جـ٢ صـ٥٣١

** وابن البطوني ، كان هذا الرجل يأخذ على ردّ العبيد والجوارى الأبقين ضريبة ، ويقيم من تحت يده رجالا على الطرقات لرد الهاربين المقريزي سلوك ٢ جـ٢ صـ ٥٣٧ ، ٥٣٨

العبيد الهاربين – فى بداية القرن الرابع عشر وكان تحت إمرة هذا الرجل أناس يطلقهم فى الشوارع (القاهرة المؤلفة) بهدف استرجاع العبيد الهاربين(٧٠) وكان مالكوا العبيد مجبرين على دفع ضريبة خاصة إلى الخزانة ، تم إلغاؤها فقط فى الإصلاح الضرائبى الذى كان فى عهد السلطان الناصر محمد .

وعن مقاومة العبيد ، يقرر المقريزى حقيقة اشتراكهم فى هبة (٧١) البدو ١٢٥٣م . وساهم العبيد السود العاملين فى قصر السلطان مع الموظفين الآخرين فى القصر فى هبة القاهرة١٢٦٠م م. بهدف إسقاط الحكومة السنية وتخصيص إقطاع من الأرض لكل المتمردين ؛ وكان الشيعى الذى يسمى قرنى على رأس هذه الهبة واستطاعت قوات السلطان القبض على جميع العصاة وإعدام الكثيرين منهم(٧٢) .

وفى منتصف القرن الخامس عشر ؛ اشتعلت فى إقليم الجيزة ، حيث مراعى السلطان ومزراع قصبه ، أوسع هبات★ العبيد السود انتشاراً ، ففيما يبدو كان

★ وردت هذه الهبة عند السخاوى فى كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك كالآتى :

وقعت فى هذه السنة حادثة غريبة جداً ، وهى أن جماعة كثيرين من العبيد اجتمعوا أيام الربيع فى بر الجيزة ونصّبوا منهم سلطانا ضربوا له الخيمة وفرشوها بالبسط ووضعوا فيها دكة إلى غير ذلك مما يجعل للملوك فى الحركات والسكنات وبسطوا جماعة ممن خالفهم من العبيد ، وولى سلطنهم واحدا منهم مملكة الشام وأخر مملكة حلب واتفق أن عبدا لملوك من مماليك السلطان هرب وخرج سيده فى طلبه ، فدل عليه . فلما وصل إليهم استوذن له فى الدخول على قاعدة الرؤساء فأذن له ودخل فرأى هيبة مهولة بحيث خاف ، فلما مثل بين يدى ذلك العبد قال له ما الذى تطلب أيها المملوك ، قال أطلب عبداً لى هنا ودخل فى عسكركم فقال لمن هو واقف فى خدمته احضروا لهذا عبده فأحضروه له وهو فى الحديد فقال له أهذا عبدك قال نعم قال فوسطوه قصحتين فتزايد خوف سيده واستأذن فى الرواح فقال له ذلك السلطان كم ثمن عبدك قال اشتريته بخمسة وعشرين ديناراً فرفع عند ذلك طرف مقعد جلوسه ؛ فاذا كوم ذهب فعُد له القدر الذى عينه وقال له ؛ خذ هذا القدر فاشتر لك به عبدا بدله فلما قبضها طلب أن يرسل معه من يوصله إلى موضع مأمنه فوجه معه شخصاً فأوصله إلى الخيام المنصوبة لأجل الربيع ثم فارقه ، وقدم ذلك المملوك فطلع إلى السلطان وأخبر بذلك فقال : أهل يشوشون على أحد من الرعية فقال لا ، فقال خلهم يقتل بعضهم بعضاً، ورأى أن فعلهم ذلك على وجه المزاح واستهون أمرهم . قلت ولولا ما فيه من القتل لكان أمراً سهلاً مع ما عندى من التوقف فى أمر سيد العبد ، لكن وهكذا حكىٰ العينى وقال : إنه شئ ما اتفق مثله قط ولا سمع ملك بمثله قط وسكت صـــ ١٢٦ . المترجم

المتمردون يهدفون إلى الاستيلاء على السلطة فى كل من مصر وسوريا ، ويخبرنا السخاوى ، معاصر هذه الهبة فى كتابه تحت ١٤٤٦ م بالآتى : حدث شئ فى غاية الغرابة هذا العام ، إذا إن عددا كبيراً من العبيد تجمع فى الربيع فى إقليم الجيزة واختاروا من بينهم سلطانا سموه الشاطر .. وهذا السلطان عين واحداً من العبيد أمرا على دمشق وآخر لحلب » وهؤلاء الثائرون امتلكوا ، فيما يبدو ، القدرة على تنظيم أنفسهم؛ حيث نجد السخاوى يعد ذلك يعدد قواتهم . (٧٣)

هوامش الفصل الثامن

١ – تستخدم المصادر مصطلح عرب للدلالة على القبائل العربية البدوية الآتية من الشواطئ المستعربة شأنها شأن القبائل الشرقية .

٢ – ابن عبد الظاهر صـ ٢٢٣ ، والمقريزى (سلوك) جـ ٢ صـ ٥٢٠ ووصف قبيلة الخفارة كان بمناسبة الحديث عن الظاهر برقوق .

٣ – المقريزى سلوك ١ جـ صـ ٤٧ ، ٧٥، وانظر أيضاً p . 449 "Extraits des historiens arabes"

٤ – النابلسى صـ ١٧٧ – ١٧٨

٥ – انظر على سبيل المثال : القلقشندى ٣ صـ ٤٥٧ ، ١٢ صـ ١١٢ – ١٣٥ ، ١٣ صـ ١٥٧ – ١٥٨ ، ١٩٨ – ١٩٩ ، وابن خلدون ٥ صـ ٥٠٣ ، وابن دقماق ٥ صـ ٢٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ .

٦ – ابن الفرات ٩ جـ ١ صـ ٢٢٣ .

7 - A. Poliak, les révoltes populaires en Egypte ... ,P. 258

وقانون نامة ومصر صـ ١٠٨ .

٨ – ابن مماتى صـ ١٥ .

٩ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ١ صـ ٤٧ ، وعن وظائف البدو عند المماليك انظر: ابن دويدار صـ ١١٤ – ١١٧ وابن خلدون ٥ صـ ٤٣٦ – ٤٣٧ .

١٠ – أحياناً ترد هذه الأتاوة فى المصادر بمصطلح : عداد أو قطعة .

١١ – المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ صـ ٤٨ – ٤٩ .

١٢ – ابن خلدون ٥ صـ ٣٧٥ والقلقشندى ٤ صـ ٦٨

١٣ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ صـ ٣٨٧

١٤ – ابن عبد الظاهر صـ ٨٠ – ٨١ والمقريزى سلوك ١ جـ ٢ صـ ٣٨٧ .

١٥ – » » صـ ٨١ » » » » » » صـ ٣٨٧ .

١٦ – » » صـ ٨١ » » » » » » صـ ٣٨٨ والقلقشندى ٤ صـ ٦٨ ، وابن خلدون ٥ صـ ٣٧٥ .

١٧ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ صـ ٣٨٨ ، وعن الضرائب من البدو انظر النويرى ٨ صـ ٢٠١ .

١٨ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ صـ ٩٢٠

١٩ – ابن دويدار صـ ٦٣ .

٢٠ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ صـ ٩٢١ – ٩٢٢ ، وأنونيم صـ ١٠٧ ، وابن دويدار صـ ٦٣ – ٦٤ ، وابن خلدون ٥ صـ ٤١٥، وابن إياس ١ صـ ١٥٨ – ١٥٩

٢١ – المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ صـ ١٢٩ ، وابن خلدون ٥ صـ ٤٣٧ .

٢٢ – ابن خلدون ٥ صـ ٤٥٠ ، وابن إياس ١ صـ ٢٠٠ ، وبولياك

A . N . Poliak,les révoltes populaires en Egypte ,..., P. 259 .

٢٣ – ابن إياس ١ صـ ٢٤٩ – ٢٥٠

٢٤ – ابن الفـرات ٩ حـ ٢ صـ ٤٤٠ – ٤٤١ ، وإقـامـة البـدو في مـصـر في ذلك العهد مكرس لها مبحث خاص لدى المقريزى : (El. Makrizi's Abhandlung uber die in Aegypten eingewanderten arabischen Stamme , hrsg , und abers von F.Wustenfeld, , Gottingen , 1817)

وغياب أسماء كثير من القبائل العربية فى هذا المبحث ، تغطيه المؤلفات المبكرة ، وبشكل خاص النابلسي الذى يستدل منه على عمليات التجنس المتواصلة

(انظر M. Awad, the assimilation of nomads in Egypt - " geographical review" New York , vol 44 , 1954 , No 2 , pp 240 - 252 .

٢٥ – ابن الفرات ٩ حـ٢ صـ ٤٤٠ – ٤٤١ .

٢٦ – ابن تغريبردى (نجوم) ٧ صـ ٥٦ – ٥٧ ، ٧٣ ، ٨١ – ٨٤

٢٧ – ابن إياس ١ صـ ٣٤٨ ، جـ ٢ صـ ٩٦ .

٢٨ – ابن تغريبردى نجوم ٧ (اصدار بوبر) صـ ٦٥٤ ، ٧١١ . •

٢٩ – ابن إياس ٢ صـ ٨١ ، ١١٢ ، وابن تغريبردى نجوم ٧ (اصدار بوبر) صـ ٥٤٦ ، ٧٥٣ – ٧٥٧ ، والسخاوى صـ ١٩٩ .

٣٠ – ابن إياس ٢ صـ ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٥٦ ، ٢٤٣ . .

٣١ – نفس المصدر صـ ٣٤٦ .

٣٢ – نفس المصدر صـ ٣٦٦ ، وعن البدو السوريين انظر :

A.S. Tritton, . The tribes of Syria in the fourteenth and fifteenth centuries. BSOAS,XII,1948 , pt 3 - 4 .

٣٣ – ابن إياس ٢ صـ ٣١٢ ، ٤ صـ ٥١ ، ٨٦ ، ٩٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

٤٣ – ابن إياس ٣ صـ ١١٤

٣٥ – أبو شامة ٢ صـ ٨٧ .

٣٦ – ابن الأثير ١٠ صـ ٣٦٣ – ٣٦٤ ، وأيضاً ابن خلدون صـ ٣١٠ ، وعماد الدين صـ٥٦ ، ٦٠ – ٦١ ، ٣٢٨ – ٣٣٠ ، ٤٤٥ .

37 . RHC,V, P . 153 .

38 . R H C , V , P, 195

وعن نزول قبائل من سوريا إلى القاهرة انظر : ابن تغريبردى (نجوم) ٦ صـ ٣٢٤ .

٣٩ – ابن تغريبردى (نجوم) ٦ صـ ٣٦٦ – ٣٦٧ .

٤٠ – ابن عبد الظاهر صـ ١٥١ ، وأبو الفدا ٢ صـ ٢٢٣ ، والمقريزى سلوك ، جـ٢ صـ ٤٧٢ .

41-RHC, II , pt I, p.234

42 - Ibid.,P . 234

والمقريزى سلوك ١ جـ٢ صـ ٥٤٨ وانظر أيضاً ابن إياس ١ صـ ١١٠ .

٤٣ – أنونم (بالروسية) صـ ١١٤ ، ١١٧ وأبو الفدا ٤ صـ ٣٧ ، ٤٩ ، ٧٨ ، ١١٩ .

وابن تغريبردى (نجوم) ٨ صـ ١٦٧ .

٤٤ – على سبيل المثال انظر المقريزى (خطط) ٢ صـ ١٤٩ S . Lane- Poole, A history of Egypt in the Middle Ages , London, 1936 , pp. 336 - 337 .

45 - Ma,coudi, les prairies d'or, texte et trad. par C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, t .III, Paris , 1864, P. 39 .

٤٦ – أبو صالح صـ ٢٦٦ – ٢٦٧ ، وابن خلدون ٥ صـ ٢٨٧ .

٤٧ – المقريزى (سلوك) ١ جـ٢ صـ٦٢٢ – ٦٢٣ ، جـ ٣ صـ ٧٢٧ ، وابن إياس ١ صـ ١٠٩ ، ١١٨ – ١١٩ ، وابن تغريبردى (نجوم) ٧ صـ ١٩٠ ، ٣٢٤ .

٤٨ – المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ صـ ١٥٢ .

٤٩ – ابن الفرات ٩ جـ ١ صـ ٢٢٠ – ٢٢١ .

٥٠ – ابن تغريبردى (حوادث) صـ ٢١٤ .

٥١ – انظر على سبيل المثال : المقريزى (سلوك) ١ جـ٣ صـ ٦٩٠ ، ٢ جـ٢ صـ ٤٠٩ ، ٤٢٣ ، ٤٨٢ ، وابن إياس ٢ صـ ١٨ ، ٢١ ، ١٠٦ ، ١٦٨ ، ٢٧٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، جـ ٤ صـ ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٥٨ ، ١٩٨ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٤٦٩ .

٥٢ – ابن إياس ٤ صـ ٢٩٧ ، وابن خلدون ٥ صـ ٤١٦ .

٥٣ – ابن إياس ٢ صـ ٢٤٣ .

٥٤ – انظر بدايات الفصل السابع فى هذا الكتاب .

٥٥ – عبد اللطيف صـ ٣٧٢ – ٣٧٣ .

٥٦ – وعن وضع هذا النوع من العبيد هناك مقالة هامة مكرسة لذلك ... انظر .

S. D . Goitein , Slaves and slavegirls in the Cairo Geniza records " Arabica ", 1962, IX fasc. 1

٥٧ – المقريزى (سلوك) ٢ جـ ١ صـ ١٢٩ .

٥٨ – نفس المصدر صـ ٢٤٩ .

٥٩ – ابن جبير صـ ٥٥ .

60 " Extraits des historiens arabes" P. 246 .

وأيضاً عماد الدين صـ ١١٧ – ١١٩ .

٦١ – عماد الدين صـ ٣٩٩ – ٤٠١

62 - " Extraits des historiens arabes" P. 441. -

٦٣ – المقريزى (خطط) ٤ صـ ٢٦١ .

64 - " Extraits des historiens arabes" P. 280 .

٦٥ – المقريزى (سلوك) ١ حـ ٢ صـ ٥٣٢ .

٦٦ – المقريزى (سلوك) ١ حـ ٢ صـ ٥٣١ – ٥٣٢ ، والمقريزى (خطط) ٣ صـ ٣٧٢ .

٦٧ – المقريزى (سلوك) ١ حـ٢ صـ ٥٢١

٦٨ – المقريزى (سلوك) ٢ حـ ٢ صـ ٤٧٣

٦٩ – ابن إياس ١ صـ ١٥٦ ، ١٦٩ ، ١٩٨

٧٠ – المقريزى (سلوك) ٢ حـ ٢ صـ ٥٢٧ – ٥٢٨ .

٧١ – المقريزى (سلوك) ١ حـ ٢ صـ ٢٨٧ .

٧٢ –المقريزى (سلوك) ١ حـ ٢صـ ٤٤٠ ، وانظر .

A. Pollak, Les révoltes populaires en Egypte........ P. 255 .

٧٣ – السخاوى صـ ١٢٦ – ١٢٧ ، وبولياك (المصدر أعلاه) صـ ٢٧٢ – ٢٧٣.

وهنا يقدم حقائق عن مساهمة العبيد فى معارك الشوارع بين أسيادهم المماليك فى القاهرة فى منتصف القرن الخامس عشر .

الفصل التاسع

الحياة المدينية

الفصل التاسع

الحيـــاة المدينيـــة

حدثت تغيرات جوهرية فى التركيب الاجتماعى للمدينة المصرية فى العهد الأيوبى والمملوكى ، وهى تبدو واضحة بالمقارنة بالعصر الفاطمى خاصة ، عندما كان دور الحكومة بارزاً فى التجارة والورش ، والحرف وخاصة فرعها الرئيسي : النسيج. (١)

فناصر خسرو يكتب عن الورش التابعة للخليفة ، المخصصة لإنتاج ما يسمى بالمقصب (الملون والأبيض) ذى الاثمان الغالية ، وكذلك عن الأقمــشة المطرزة بالذهب (البوكلامون) ذات الجودة العالية ، ويقول كان حق التصرف فى منتجات هذه الورش يخص الخليفة وحده (٢) ويتحدث ناصر خسرو أيضاً عن الأجور المرتفعة للمشتغلين بهذه الورش ، غير غافل عن الإقرار بتبعيتهم للخليفة بشكل ما(٣)، وكان هناك تقسيم للعمل فى هذه الورش بين الحرفيين المختلفين ، مما يعنى أن هذه الورش – من الناحية التقنية – كانت من طراز المانيفاكتورا : وعن هذا يخبرنا المقريزى حيث يقول إن هذه الورش كان بها شخص مختص بتفصيل الأقمشة بينما الآخرون يقومون بخياطة هذه الأقمشة المفصلة (٤).

هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال ، وجود أشكال للاستغلال الرأسمالى المبكر فى المدينة المصرية فى القرن الحادى★ عشر فهذه المانيفاكتورا ، من حيث الوضع الاقتصادى الاجتماعى كانت ظاهرة عرضية بلا أية آفاق تاريخية ؛ إذ إن الشروط الضرورية لتطورها وهى قبل كل شئ ، السوق الملائمة لقوة العمل ، كانت غائبة .

وبالرغم من وجود عدد من الدكاكين تخص السلطان ، على سبيل المثال – فى مدينة الفيوم ، كذلك عدد من الورش التابعة للسلطان فى العاصمة ، كانت تنتج الأسلحة والنسيج والمقاييس والموازيين فى العهد الأيوبى ، إلا أن دور الحكومة فى الاقتصاد المنزلى وفى الحرف تقلص فى هذا العهد بشكل محسوس (٥).

★ أى فى عصر الخلافة الفاطمية – المترجم .

فى ارتباط بما تقدم ، تأتى أهمية لبعض الأرقام من كتاب القاضى الفاضل ، التى يثبت بها أن دخل الديوان السلطانى فى ١١٩١ م كان أكثر من ٣٥٤٤٥٤ ديناراً بينما كان فى ١١٩٢ م (٣٥٤٠٤٤)[٦] ومادامت مداخيل الممتلكات الزراعية فى عهد صلاح الدين ، معروفة ، فإن الحديث هنا يدور عن الدخول ذات الطبيعة المدينية ، أو عن إيرادات بعض الأوقاف ، وهذا هو ما نستطيع أن نوافق عليه فى حقيقة الأمر[٧] .

ومع أن تحديد مدى نقصان نصيب السلطان غير ممكن ، لأن المعطيات المشابهة فى العهد الفاطمى غير موجودة وكانت جملتها بالمقارنة مع المعطيات المشابهة عن عهد صلاح الدين قليلة جداً[٨] كان هناك قسم من الحرفيين والتجار يشتغلون فى المشروعات الدينية ، وكانت الأوقاف شأنها شأن الملكية الخاصة تفتتح الدكاكين والخانات والأسواق [٩]، ومصادرنا لا تتضمن أية معلومات عن استخدام العمل العبيدى فى الإنتاج الحرفى باستثناء أعمال البناء .

وتطور العلاقات الاجتماعية فى المدينة المصرية فى عهد الأيوبيين ، كان يوازى التطور القانونى للحرف الحرة ، فإلغاء النظام الفاطمى بتنظيمه الحكومى القاسى لكافة فروع الاقتصاد ، مهد السبيل لنهوض النشاط العملى للمنتج المباشر لا فى الريف فحسب بل فى المدينة أيضاً .

وينوه عبد اللطيف البغدادى فى « وصفه لمصر» بالبنائين الذين استدعُوا لبناء القصور والخانات ، وبالخبازين والجزارين والحرفيين المنتجين : للحصر وأدوات الخياطة والأحذية وغيرها واعتبرهم بحق حرفيين أحراراً (١٠).

وظلت حرفة النسيج هى النوع الرئيسى بين الحرف ، وأبو صالح يتباهى بالأقمشة الشفافة المسماه بالتنيس والأقمشة الملونة المسماة بالدبيك ، والورق الذى كان ينتج فى الفيوم وفى دمياط[١١] . ويحدثنا المقريزى أيضا عن مدينة القاهرة فى زمن الأيوبيين فيعدد الحرف الآتية : المنتجين للأقمشة الكتانية والصوفية والورق ، والأوانى الفخارية ، والفؤوس، ودبغ الجلود ، وإعداد المواد الغذائية (كالسكر والملح والبوظة والخل والزيت المستخرج من السمسم) ، كذلك يحكى عن الحرف المتعلقة بإنتاج المعدات الحربية التى حققت تطورا كبيرا مثل صناعة الدروع الحربية وبناء الحصون وغيرها من الصناعات

التي كانت تصاحب الجيوش في * حملاتها[١٢] ويحدثنا أبو شامة وابن جبير عن أزدهار هذه الحرف في المدن السورية[١٣] والإقطاعيون الذين يعيشون في المدن[١٤] كانو هم المستهلك الأساس لهذه المنتجات الحرفية .

وتزايد الطلب على هذه المنتجات الحرفية من جانب الإقطاعيين ، أدى إلى إدخال أشكال إنتاجية جديدة ، خاصة في النسيج ، ففي القرن الثاني عشر ، تم اعتماد أسلوب الطبع في تخطيط الأقمشة وتزيينها وتوشيتها بدلا من الأسلوب ** الجوبولوني[١٥] المعقد . وشمل صلاح الدين برعايته حرفيي المدينة ففي ١١٧١ – ١١٧٢م) – منع تحصيل (الضرائب غير القانونية) في مصر ، وكانت تقدر في ذلك الوقت بمائتي ألف دينار كانت تجبى من التجار والحرفيين ، وعفا عن الضرائب المتأخرة عليهم في السنوات الماضية [١٦] .

وحدث ما يشبه هذا أيضاً في مناطق أخرى في الدولة الأيوبية حيث يخبرنا ابن جبير بالآتي " إن *** السلطان قد لمس المتاعب من العوائد المقررة وغيرها سواء كانت على كل ما يباع ويشترى في مصر أو الأقاليم الأخرى ، أو كانت على مياه النيل المستخدمة للشرب ، لذا فإنه قد ألغى كل هذه الأوضاع اللعينة وساد في عهده السلام والعدل [١٧] .

وفي عهد العزيز ابن صلاح الدين أعيدت بعض الضرائب الشهرية (القمرية) مرة أخرى ، وفي عهد الكامل تمت جباية الضرائب من غير المسلمين مرات عديدة ، بحجة حاجة القوات المرابطة لصد اقتحام الصليبيين لمصر [١٨] .

وبشكل عام ، كانت السياسة الضرائبية في عهد الأيوبيين تجاه الحرفيين والتجار معتدلة جداً .

* أنظر هوامش المترجم في هذا الفصل فيما بعد .

** الجوبلان هو نسج الصور أو الخطوط على النسيج وهو أكثر صعوبة من الطبع على النسيج. – المترجم

*** ونظر السلطان إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ، ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أوجل ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس – فضلا - عما سواه فمحا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن . ابن جبير ، صـ ٣١

وتتردد المعلومات التجارية الخارجية الواسعة لمصر ، فى العصور الوسطى ، بشكل واضح ووافٍ فى عديد من المؤلفات وخاصة فى كتاب مؤرخ التجارة اللبنانية : وحيدة ، وتظهر هذه المؤلفات والكتابات بوضوح ، أن مصر فى عهد الأيوبيين كانت مركزاً لتجارة الترانزيت .. من الجنوب الشرقي لآسيا ، حيث ترد التوابل (القرنفل- جوز الطيب ، - الفلفل - والقرفة) كان هذا الطريق التجارى من الشرق يمر عبر الخليج الفارسى ، ثم بعد الغزو السلجوقى ، صار على الأغلب يمر على عدن والبحر الأحمر ، حيث تفرغ البضائع فى ميناء عيزاب على الساحل الأفريقى ثم تشحن مرة أخرى عبر النيل إلى موانئ البحر المتوسط حيث حقق التجار الأوربيون فى موانئ البحر المتوسط أرباحا مذهلة ، خاصة فى ميناء الإسكندرية [١٩] .

وظلت الحكومات الأيوبية محتكرة لتجارة بعض السلع مثل (حجر الشب - والنطرون) [٢٠] . وكانت فى نفس الوقت تقوم بتشجيع أنشطة التجار ليس فقط المحليين منهم ، بل والأجانب أيضاً ، وكان تدفق البضائع الهندية ملحوظاً فابن جبير يشير إلى مدينة قفط ، وكانت واحدة من مراكز هذه التجارة " * أعداد هائلة من الواصلين والراحلين والحجاج والتجار من اليمن والهند والحبشة [٢١] وكان الدور البارز فى تجارة هذه التوابل تقوم به مجموعة من التجار المعروفين بالكارمية [٢٢]. على جزء من اليمن حتى مصر .

وتوقف فى عهد صلاح الدين ابتزاز أمراء المدن المقدسة للتجار والحجاج من الذاهبين إلى الحجاز ، وعن ذلك يقول ابن جبير " إن** السلطان صلاح الدين قد قضى على هذا الابتزاز اللعين وعوضهم بدلا منه بمكيات محددة من المواد الغذائية .. التى كانت تسمى إمداد المدينة ومكة بالمؤونة [٢٣] .

* هذه المدينة حفيلة بالأسواق ، متسعة المرافق - كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة (ابن جبير صـ ٤٠).

**ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التى أبقاها ذكراً جميلا للدين و لدنيا . إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين فكان الحجاج يلاقون من الضغط فى استيدائها عنتا مجحفاً و، ويسامون فيها خطة خسف باهظة ، فمحى هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها .. وتكفل بتوصيل ذلك إلى الحجاز لأن الرسم المذكور باسم ميرة مكة والمدينة . ابن جبير ، صـ ٣٠ ،

والملفات القديمة تدخل مدينة عيزاب ضمن المدن التجارية لمصر العليا (٢٤) .

وكان الجوخ والخشب والمعادن يأتون إلى مصر من أوروبا (٢٥) .

وبالرغم أن السلاطين المحاربيين كانوا يؤمنون برسالتهم لمقدسة في القضاء على الصليبيين إلا أنهم كانوا يستقبلون بترحاب بالغ مواطني هؤلاء الصليبيين الأوربيين الذين يجلبون الخشب اللازم لبناء السفن والقطران والقار والمعادن المختلفة والأسلحة وغير ذلك (٢٦) وبصرف النظر عن نداءات البابا الروماني بوقف التجارة مع غير المؤمنين ، فإن العلاقات التجارية مع أوروبا ظلت تتسع أكثر فأكثر. فمن المعروف أنه في بداية الحملات الصليبية ، كان يفد إلى الإسكندرية تجار من فينيسيا (البندقية) وجنوه وأمالفا وصقلية ، وفي القرن الثاني عشر أقام الأيوبيون علاقات تجارية مع روسيا والدانمرك وفلندا وبيزا وناربون ومارسيليا وكاتالونيا وانجلترا عن طريق ناربون (٢٧).

وحتى العمليات الحربية نفسها لم تؤد إلى تقلص العلاقات التجارية ، فبعد أن استولى الصليبيون على عكا في ١١٦٤ م وحتى نهاية القرن الثاني عشر ظلت مدينة عكا أكثر الموانى انتعاشا على السواحل السورية (٢٨) ويؤكد ابن جبير أن مدينة صور صارت أقل أهمية بكثير وأقل ازدحاما بالناس من ميناء عكا(٢٩) وينص كلماته " القوافل الذاهبة * من مصر إلى دمشق عبر المناطق الصليبية دون انقطاع ، لم تكن تتعرض للاضطهاد أكثر مما تتعرض له قوافل المسلمين الآتية من دمشق إلى عكا ، ولا يتم توقيف أحد من التجار المسيحيين أو اضطهاده بأى صورة كانت (٣٠).»

وكانت الرسوم التجارية في عهد صلاح الدين تجبى بانتظام من التجار الأوروبيين ، وكان تقدير الرسوم يتغير وفقا لنوع البضاعة ، فكانت الرسوم عن الخشب والجوخ بكل أنواعه ١٠٪ أما السبائك الذهبية فرسومها ٦٪ ورسوم السبائك

* واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ابن جبير صـ ٢٦٠

الفضية والنقود ٤٪ ، أما الفراء الفاخر والأحجار الكريمة التى كانت تأتى مع تجار جنوه فلم تفرض عليها أية رسوم (٣١).

وشمل صلاح الدين برعايته الخاصة التجار الفينيفيين أيضاً ، إذا إنهم كانوا أثناء الحملة الصليبية الرابعة ، قد تصدوا للصليبيين ومنعوهم من الهجوم على مصر (٣٢)

ووفقاً لما يقوله القاضى الفاضل فإن الرسوم التى تم جباتيها من التجار الأجانب فى الأسكندرية فى ١١٩١م بلغت ٢٨٦٣٣ ديناراً (٣٣).

ومهد هذا التطور الهائل فى حجم التجارة الخارجية السبيل لإقامة علاقات ودية بين السلطان : الكامل وفردريك الثانى جوجنشتاوفن ، بل إن خلفاء فردريك الثانى وهما ما نفرد وكونراد ظلا يواصلان سياسية سلفهما (٣٤)

كانت الدخول الآتية من رسوم تجارة مرور التوابل وأيضاً الضرائب و لرسوم التجارية الأخرى المجباة من الحرفيين تمثل المصدر الثانى لقوة الحكومة الإقطاعية المصرية إلى جانب الدخول الآتية من الزراعة في عهد صلاح الدين وخلفائه.

وفي عهد المماليك ، كما فى عهد الأيوبيين ، كان هناك قسم من الحرفيين يشتغلون فى الورش السلطانية أو فى ورش الأوقاف التابعة للهيئات الدينية (٣٥) .

ولم تتضمن مصادرنا للأسف أية إشارات إضافية عما نوه عنه المقريزى سابقاً أكثر من مرة : بزعمه أن انتقال أمراء الحقلة المحاربين إلى الاشتغال بالتجارة والحرف، أدى إلى بعض التطور فى الورش الحرفية الخاصة التابعة للماليك (٣٦) .

وفى عهد المماليك الأوائل حدث تطور هائل إلى أبعد الحدود فى الحرف الحرة مرتبطاً بنمو فى تقسيم العمل .

فالحياة الحرفية والتجارية فى القاهرة ، أعطت للأوربيين انطباعاً كبيراً ، حتى وهى فى مرحلة تدهورها أثناء القرن الخامس عشر ، فقد كتب التاجر الروسى الرحالة : فاسيلى ، المتجول عبر مصر وسوريا فى ١٤٦٥ - ١٤٦٦ م عن مدينة القاهرة : مدينة مصر عظيمة جداً ، ففيها أربعة عشر ألف شارع ، وفى شوارعها ثمانية عشر ألف قصر وكل شوارعها عامرة بالتجارة بصورة عظيمة جداً (٣٧) .

وتزايد عدد الأسواق المتخصصة بالمقارنة مع العهد الأيوبى ، فطبقاً لما يقوله المقريزى كانت هناك الأسواق ★ التالية : المغربلين ، الاسكافية ، الروائع – الحدادين – صانعى الأقفال – صانعي المهاميز والألجمة – صانعى الإبر – صانعى الخوذات الحربية – صانعى الشمع – السروجية – المبيضين – صانعى الزجاج – الصنادقية – دابغى الجلود – صانعى الجوخ – صانعى الطواقي – صانعى الفخار[٣٨]

« أما الحرفيون المشتغلون بإعداد الفراء وبيعه فقد تمركزوا فى سوق كبيرة للفراء ، الذى انتشر ارتداؤه بين★★ المماليك ، وبرز الاهتمام بإقتناء أنواع الفراء المختلفة مثل فراء السمّور والببر والثعلب والسنجاب والمقريزى يقول : إن أثمان هذا الفراء لم تكن ثابتة فقد تضاعفت وتزايدت لأن الناس من رجال الدولة من الأمراء والمماليك استعملوها بصورة واسعة[٣٩] وازدادت كذلك الأسواق المتخصصة فى بيع المواد الغذائية حيث كان عدد كبير منها موجودا فى باب الفتوح (باب النصر) .

وعنها يقول المقريزى " يتوجه اليها الناس من كل نواحى البلاد المختلفة لابتياع لحوم الخراف والثيران والماعز ، ولابتياع أنواع الخضر المختلفة[٤٠] . وينوه المقريزى مرة ثانية بالأسواق التى تبيع اللحوم والطيور والخضر وأيضاً بالأسواق التى تبيع النعاج والحلوى والفطائر [٤١] ..

★ عدد المقريزى أسماء كثير من الأسواق منها سوق القصبة ، وهو أعظم أسواق مصر ويحتوى على اثنى عشر حانوتا ، وسوق الفتوح (معمور من الجانبين بحوانيت اللحامين والخضريين والفحامين والشرايحية وسوق خان الرواسين وسوق حارة برجوان وبين القصرين والقفصات ((لبيع المصوغات) وأسواق اللجميين (الألجمة) والجوخيين الشرابشيين (يباع فيها الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء والوزراء وغيرهم وسوق الطويين (لبيع الحلوى) وسوق المهامزيين (لبيع المهاميز) وسوق السلاح (لبيع القسى والنشاب وغير ذلك) وسوق الدجاجين (الدجاج والعصافير وسوق الشماعين) والكتبيين والحريريين والبزازين (ثياب الكتان) وغير ذلك كثير – المترجم : انظر المقريزى خطط جـ ٢ صـ ٤٥٩ – ٤٨٢ .

★★ سوق الفرائيين : وكان قديماً يعرف بسوق الخروقيين ، ثم سكن فيه صناع الفراء وتجاره فعرف بهم وصار به من أنواع الفراء ما يجل أثمانها وتتضاعف قيمتها لكثرة استعمال رجال الدولة من الأمراء والمماليك لبس السمور والوشق والقماقم والسنجاب ، بعد أن كان ذلك فى الدولة التركية من أعز الأشياء التى لا يستطيع أحد أن يلبسها – المقريزى خطط جـ ٢ صـ ٤٧٥ – ٤٧٦ .

وتطور الحرف الحرة فى العهد الأيوبى المملوكى المبكر : مهد السبيل أمام الاستقرار النسبي لنظام نقدى ، فقد كان إصدار النقود قبل هذه الفترة قليلا للغاية ، ولكن صك النقود النحاسية (الفلوس) فى الفترة التالية تضاعف ، إذ إن أثمان سلع الضرورات الأولية تميز بثبات كبير فى هذه الفترة [٤٢] . .

وكان تطور الحرف الحرة تحت سيطرة الإقطاع فى المدينة المصرية ممكنا ، ولكن إلى حد معين ؛ فسكان المدن المشتغلين بهذه الحرف ، كانوا محاصريين بالإدارة السلطانية التى تستطيع أن تنقل الحرفيين من حى إلى أخر كما تشاء ، وحتى من مدينة إلى أخرى ، مجبرة إياهم على تنفيذ أعمال محددة وهكذا تم جمع كل الحرفيين فى القاهرة ، طبقا لأوامر السلطان قلاوون ، لبناء مستشفى[٤٣] بل إنه جلب المساحين من دمشق وحلب وحتى من المدن العراقية[٤٤] وذلك لشق قناة فى بولاق تم فيها استخدام العمل المأجور للحرفيين المتخصصين بنفس الشروط وفى نفس الوقت (تم استخدام الأسرى والمسجونين والعبيد والأهالى المجلوبين من أقاليم مصر الأخرى) بأسلوب قائم على الإجبار اللا إقتصادى ، والذى يحمل الطبيعة الإقطاعية بكل وضوح[٤٥] ..

وأحياناً كان موظفوا السلطان يمنعون إنتاج بعض أنواع المنتجات الحرفية ، فمثلاً فى ١٣٤٩ - ١٣٥٠ م أمر الوزير منجق صانعى الأحذية فى القاهرة بالا يقوموا بصناعة نوع معين من « التوفلى » راغبا فى إزاحة المنافسة عن الورشة التابعة للسلطان التى تنتج هذا النوع من الأحذية[٤٦] . .

ومصادرنا لم تعطنا القدرة على الافتراض - مثل بعض الباحثين[٤٧] . - بوجود ورش ذات أهمية كبيرة يمتلكها الأهالى من الحرفيين فى مصر فى العهدين الأيوبى والمملوكى ، شبيهة بالورش التى كانت فى أوروبا الغربية ، التى تقوم على التنظيم والإدارة الذاتية .

ولكن يبدو أنه كانت هناك وحدات للحرفيين غاية فى البساطة فى أماكن سكناهم يقوم عليها رؤساء يسمون شيوخ الحرفة ، ليس من سلطتهم الإشراف على ترتيب النشاط الإنتاجى[٤٨] . ولكن هؤلاء الشيوخ المنوه عنهم سابقاً يعتبرون مندوبيين عن

الحكومة فى الإشراف العام على الحرف المدنية والتجارية ، فقد كان بعضهم يتم تعيينه من قبل الحكومة ، شأنهم فى ذلك شأن المحتسبين ومساعديهم الذين كان لهم الحق فى الإشراف على المدن الهامة (٤٩) .

وابتداء من الغزو المغولى لبغداد ، بدأ دور مصر كمركز لتجارة الترانزيت بين آسيا وأفريقيا وأوروبا يزداد أهمية ، فقد وطدت مصر فى عهد المماليك الأوائل علاقاتها التجارية الخارجية ، على سبيل المثال ، مع كل من أراجون وبيزنطة ، وأقامت علاقات جديدة خاصة مع قبيلة القرن الذهبى (٥٠)

وبشكل خاص كان انتعاش العلاقات التجارية مع الفينيسيين سببا فى إزاحة تجار جنوه من أسواق مصر ابتداء من القرن الرابع عشر ، وصار التجار الفينيسيون يصدرون إلى مصر من موانئهم على البحر الأسود الجلود والفراء والشمع من روسيا ، وأيضا العبيد والبضائع الأخرى (٥١)

ومن وسط أفريقيا والمغرب كانوا يجلبون الوبر والصوف والعاج والصمغ العربى ، علاوة على العبيد السود أما الحرير والمسك الصينى فكان يرد من الصين ، وظلت التجارة الرئيسية هى تجارة التوابل الواردة من الهند ، وكان القائمون بها هم من يعرفون بالكارمية * الذى بلغ نشاطهم التجارى أوج ازدهاره خاصة فى عهد السلاطين الأتراك .

وكانت أماكن إقامتهم الرئيسية توجد فى قوص والقاهرة ، وتحت أيديهم أسطول كبير وثرواتهم صارت فى ذلك الوقت ملكا لهم(٥٢) ، لذلك فإنهم قاموا بالأعمال الربوية وكان كل نشاطهم التجارى تحت إشراف وإدارة خاصة تسمى « ديوان المتجر » (٥٣) والكارمية أحياناً كانوا يقومون للمماليك بمثابة سفراء لهم فى اليمن (٥٤) .

وفيما يبدو ، كان الأمراء المماليك الكبار مشاركين لهم فى تجارة الترانزيت(٥٥) .

* وتسميهم المصادر التاريخية بتجار الكارم انظر فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم من سلسلة تاريخ المصريين الهيئة المصرية العامة للكتاب –المترجم .

وما حدث في بداية القرن الخامس عشر أدى إلى خسائر غير قليلة في مدن المماليك .

وواصل وجود المحلات والأسواق نقصانه على الدوام ؛ وذلك بسبب الصراع القائم بين السلطان : الناصر فرج والأمراء المتمردين ، الذى امتد من ١٤٠١ إلى ١٤٠٥ م وانتهي بمقتل السلطان (٥٦) .

أما دمشق فصارت مدينة مخربة تماماً بعد غزو تيمور ، وعرف بذلك كثير من الخياطين وصانعي الأسلحة والبنائين والحرفيين الآخرين الفارين إلى سمرقند ، ولكنهم رغم ذلك لم يستطيعوا العودة لاستعادة مكانتهم السابقة(٥٧) . وقام قراصنة أوروبا الغربية في ١٤٠٣م بنهب مدينة الإسكندرية ، وفي السنوات التالية تحقق لهم الهجوم المدمر على المواني السورية .

وقام البدو أيضاً بغاراتهم على المدن الجنوبية (٥٨) وفي ذلك الوقت ، حدث تطور هام في الملكية الشخصية للأرض الزراعية ، وأدى إلى تقلص حاد في مداخيل الخزانة من العوائد الآتية من السكان المشتغلين بالزراعة ، مما جعل المدينة هي المصدر الرئيسي للإيرادات الحكومية .

وصارت السياسة الضرائبية لسلاطين المماليك الشراكسة تجاه سكان المدن قاسية للغاية إذا ما قورنت بالعهد الأيوبي أو بعصور المماليك الأوائل ، فبالنسبة للماليك الأوائل ، خاصة في عهد السلاطين : لاجين وقلاوون وبيبرس ، كان المعروف أنه تم إلغاء عدد من المكوس ، وأن السلطان الناصر محمد قدسن إصلاحاً ضرائبياً عظيم الأهمية ، بلغ من الشمول قدراً يجعله لا يقارن إلا بالإصلاح الضرائبي الذى أقامه صلاح الدين (٥٩) .

ومن المعروف أيضاً أن إلغاء" المكوس الوحيد " ، الذى يستحق الاعتبار في عصر المماليك الأواخر كان في أثناء حكم السلطان : الظاهر برقوق في ١٣٩٠ م ،، عند توليه العرش للمرة الثانية ، غير أن السلطان الناصر فرج سرعان ما أعاد هذه المكوس الملغاه وزاد في قيمتها في ١٤٠٠م . (٦٠) م بحجة إمداد الفرق المحاربة في سوريا ضد تيمور ، وظل الوضع هكذا طوال حياة المقريزى ، أى منذ نهاية القرن الرابع عشر

حتى منتصف القرن الخامس عشر .

وكانت هناك صعوبات عديدة في مواجهة أي مشروع مديني ، تكمن في التطويق الضرائبي الكامل ، وصار الوضع فيما بعد يتطور من سيئ إلى أسوأ .

وكانت الضرورة الدائمة لتقوية الحملات الحربية في مواجهة تهديدات الغزو المغولي سبباً في نمو واتساع هذا التطويق الضرائبي ففي ١٤٨٦م . ، أمر السلطان ، قايتباي بإحضار التجار الأغنياء من أسواق القاهرة ، وبرغم احتجاجهم - أجبرهم على دفع ١٢٠٠٠ دينار لإمداد القوات المحاربة .

وفي ١٤٩٢ م تم جباية الضرائب في مدينة القاهرة من الحمامات والطواحين والمخابز وأملاك الوقف وغير ذلك مقدماً عن موعدها بشهرين .

وفي نفس السنة ، تم جباية الضرائب في دمشق مقدما بخمسة شهور ، من كافة العقارات المدينية ، ولحق التطويق الضرائبي المستشفيات التابعة للأوقاف في مدينتي الإسكندرية ودمياط ، وفي ١٤٩٦م تم فرض ضريبة موحدة في كل البلاد ، تجبى كل خمسة شهور ، علاوة على ضرورة جمع مبلغ محدد من كل مسيحي أو يهودي أو تاجر أوروبي(٦١) .

وفي ١٤٩٨م تم جباية الضرائب عدة مرات من الحرفيين والتجار ، وكان ذلك في عهد السلطان : الناصر محمد (٦٢) أما في عهد الأشرف جنبلاط في ١٥٠١ م فتم مصادرة مبالغ نقدية من اليهود والمسيحيين والتجار للمرة الثانية (٦٣) وفي ١٥٠٤ - ١٥٠٥م تم جباية الضرائب المستحقة على الأملاك المدينية لثمانية شهور مرة واحدة مقدماً، طبقاً لأوامر السلطان : قنصوه الغوري (٦٤) وفي ١٥١٤م تم جباية ٢٠ دينارا من كل السكان في مدن : دمشق وحلب وحماه وصفد وطرابلس بحجة حاجة الجيوش المحاربة (٦٥) وفي السنة التالية تم جباية الضرائب ذاتها لنفس الغرض ... إلخ (٦٦)

والسكان غير المسلمين في المدن ... - علاوة على ما يعانونه من القيود القاسية المتبعة إزاءهم ؛ طبقاً لإعلان المراسيم الخاصة بهم ، والمخالفة تماما لما يدعى وصية عمر " تجاه غير المسلمين ، كان القابضون على زمام الأمور يقومون بفرض ابتزازات إضافية عليهم (٦٧) مما أدى إلى احتجاج سفراء الدول الأجنبية واحتجاج نجاشي

الحبشة المسيحية ، ولكن تلك الاحتجاجات لم تؤد إلى أى نتائج إيجابية (٦٨) وازدادت حالة السكان المدنيين الكادحين بؤساً بسبب الفظاعات التى ارتكبها المماليك الجلب * ومن الممكن أن نقدم هنا واحداً من الأمثلة العديدة التى رواها ابن إياس ، وكان قريب العهد بالسلطان : قنصوه الغورى " أعلن ** السلطان بأنه لا يوجد كائن من كان ، سواء كان من الرعية أو التجار ، يستطيع أن يتجاسر على توجيه إساءة لأحد المماليك السلطانية ، فلو أن أحدا منهم لمس لجام حصان أحد المماليك العابرين فسوف تقطع يده وبعد هذا الإعلان ، ظهر المماليك فى أسواق القاهرة يخطفون حاجاتهم ولا يستطيع أحد أن يمنعهم ... وصار الناس بعد ذلك فى غاية الكرب والكآبة (٦٩).

وكل هذه الظروف ، إلى جانب انتشار تزييف النقود ؛ أدت إلى الخراب الاقتصادى (٧٠) فى القرن الخامس عشر ، وصدام الشرائح الدنيا فى المجتمع المدنى بممثلى الإدارة الحكومية صار أكثر حدة ففى سنة ١٤٤٩ – ١٤٥٠م ، وعلى سبيل المثال : قام سكان القاهرة بضرب موظفى السلطان بالحجارة ، وعلى رأسهم المحتسب نفسه ؛ وكان ذلك بسبب غلاء أسعار الخبز ، ويذكر ابن إياس أن الناس قد انتزعوا من هذا المحتسب خاتمه الغالى الثمن وشاله الفاخر(٧١) . وفى ١٤٨١م قتل سكان حلب قائد قلعة المدينة وقاضيها(٧٢) . وفى عام ١٤٨٩ م قام فقراء مدينة القاهرة بالهجوم على القاضى : أحمد شهاب الدين ، الذى أعطى السلطان قايتباى فتوى بحقه فى جباية الضرائب على الملكية المدينية قبل موعدها بشهرين ، واضطر هذا القاضى إلى الهروب إلى مكة وبقى فيها هناك طالما لم يهدأ الناس(٧٣) . ، وفى ١٥٠٦م قام سكان دمشق بطرد نائب السلطان من المدينة(٧٤) . وفى نفس السنة وقعت اضطرابات فى كاراك موجهة ضد حاكم المدينة (٧٥) وفى ١٥١٥ م . صار ينتزع من عابرى الطريق فى سوريا باستخدام القوات ابتزازات جديدة (٧٦) .

* ويسميهم ابن إياس : المماليك الجلبان – المترجم .

** ثم إن السلطان أشهر المناداة فى القاهرة بأن لا سوقيا ولا تاجرا يبهدل مماليك السلطان ولا يمسك لأحد منهم لجام فرسه ، ومن فعل ذلك قطعت يده ، ولا يقل حياه عليهم .. وصارت المماليك بعد ذلك يدخلون إلى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين ولا يقدر أحد أن يمنعهم من ذلك ، وصار الناس معهم من بعد ذلك فى غاية الضنك والقهر ، إبن إياس جـ ٤ الهيئة المصرية صـ ٤٦٥

وسعت الحكومة المصرية إلى وضع النموذج الفاطمي بملامحه الرئيسية فى التجارة الداخلية والخارجية موضع التنفيذ ، وقام السلطان : الناصر محمد بمحاولة فاشلة لتغيير التجارة الحرة فى السكر[٧٧] وفى ١٤٢٣ م . تم إعلان احتكار السلطان بارسيباى لزراعة قصب السكر وبيع السكر ، ولكن – تحت تأثير المماليك مالكى المزارع – تم إلغاء هى الاحتكارفى ١٤٢٧ م غير أنه أعيد مرة ثانية فى ١٤٢٩ فى كل من مصر وسورية ، وظل معمولا به حتى نهاية السلالة المملوكية [٧٨].

وفى ١٤٢٨ م أدت سياسة احتكار التوابل إلى تدمير قوة الكارمية ، وقامت الحكومات باستدعاء سفن الأسطول الفينيسي للتظاهر بالقرب من الإسكندرية واستدعاء سفن الأسطول الأسباني للتظاهر أمام الشواطئ السورية ، غير أن تجارة التوابل ظلت تمارس بشكل استثنائي بواسطة السلطان ، وباع السلطان إينال ،– على سبيل المثال – باكو الفلفل بمائة دوكات ، أما خليفته : المؤيد شهاب الدين أحمد فباعه بخمسة وثمانين دوكات فى ١٤٦٢ م وفى ١٤٨٠ باعه السلطان قايتباى بمائة دوكات بينما كان ثمنه فى السوق ٥٠ دوكا وتم القبض على التجار الأوروبيين الذي رفضوا شراء التوابل وألقى بهم فى السجن ، أو تم احتجازهم فى منازلهم ولم يسمح لهم بمغادرتها ، أو الإفراج عنهم إلا بعد موافقتهم علي شروط السلطان[٧٩] .

ومنذ تم اكتشاف الطريق البحرى حول أفريقيا ، صار التجار الفينيسيون – المشترون الرئيسيون للتوابل – يتوجهون نحوه ومنه إلى لشبونة ، وفى كل عام يرسلون إلى مصر سفنا أقل [٨٠] وبذا أدت سياسة السلاطين المماليك الأواخر إلى إضعاف العلاقات التجارية مع بلاد الشرق والغرب – ويكتب إبن إياس عن ١٥١٦ م ما يلى وصار حسين *حاكم جده يجمع الرسوم من التجار الهنود مما دفعهم إلى الامتناع عن الذهاب إلى هذا الميناء ، وسرعان ما تحول إلى الخراب وصار من الصعب على التجار

* وكان حسين نائب جده يأخذ العشر من تجار الهند ، المثل عشرة أمثال فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأرز، وأخرب البندر وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج . ابن إياس ، حـ ٥ صـ ٩٠ .

أن يأتوا ببضائعهم إلى مصر من بلاد الفرنج مثل الكتان والخشب والجلود ، فتدهورت أحوال الإسكندرية ودمياط والموانئ الأخرى ووصلت إلى الكساد ، إذ إن التجار الفرنج رفضوا أن يمروا على هذه الموانئ بسبب القيود العديدة (٨١) .

وأمام حالة الخراب الاقتصادى ، والغضب الشعبى المتزايد ، قام جيش تركيا العثمانية بهزيمة الشيخ إسماعيل حليف مصر فى سوريا، وعبر الحدود السورية متقدماً إلى مصر ، حيث جرت المعركة الحاسمة ، – كما ذكرنا سابقاً – فى مرج دابق شمالى حلب فى ٢٤ أغسطس ١٥١٦ م ، وفى أثناء هذه المعركة ، انتقل اثنان من زعماء المماليك وهما خيربك جانبرد الغزالى إلى جانب الترك ، بكامل قواتهما ، وقاتلا مع الترك بفرقتيهما من المماليك الجلب والقرانيص ، وبذاعم الخلاف فى صفوف المماليك ؛ علاوة على التفوق المؤكد – للجيش التركى – فى معداته العسكرية وخاصة مدفعية الميدان ؛ ولهذا تحقق للعثمانين هزيمة الجيش المصرى هزيمة ساحقة ، وتم قتل السلطان ؛ وأسر الخليفة العباسى المتوكل الثالث ، وتقرر نهائياً مصير المماليك الشراكسة .

وعلى هذا النحو يتضح أن القضاء علي الملكية الحكومية للأرض ، وإقرار شكل أكثر تقدماً للملكية الإقطاعية للأرض – وهو الإقطاع – كان هو المحتوى الأساسى لتاريخ مصر الداخلى فى عهد الأيوبيين والمماليك الأوائل .

وتغيير شكل ملكية الأرض أدى إلى ظهور طبقة قوية من الأستقراطية الحربية الزراعية مهدت السبيل إلى تخفيض معدل استغلال الفلاحين وتطوير القوى المنتجة للبلاد .

ومحاولات السلاطين المصريين لإعادة الملكية الحكومية للأرض ، بمعنى استغلال الفلاحين مباشرة بواسطة الإدارات الحكومية ، لم يتحقق لها النجاح .

وتوطيد طبقة الإقطاعيين وتزايد استهلاكاتها وحاجاتها ، كان الدافع فى ذلك العهد – إلى تطور الحرف والتجارة المدينيين .

غير أن التطور الواسع فى العلاقات التجارية النقدية ، كان سببا فى تكثيف استغلال الفلاحين ، فنظام الاسترقاق الإقطاعى ابتداء من القرن الخامس عشر مارس

أقسى الأشكال ، وملاك الأراضي والإقطاعيين قاوموا بكافة الأساليب ، منذ ذلك الحين الإجراءات الحكومية لتحسين علاقاتهم مع الفلاحين ، كل هذا أدى إلى إنهاك الاقتصاد الفلاحي وتشديد القيود الضرائبية على أهالي المدن ، وهذا بدوره أدى إلى جانب سياسة الاحتكار الحكومي ، إلى تدهور الحياة المدينية .

والأزمة الاقتصادية المرافقة لتزايد الصراعات بين الإقطاعيين أدت إلى تسريع الصراع الطبقي المتمثل بشكل خاص في الهبات الفلاحية ، مما مهد السبيل لتركيا العثمانية لغزو مصر .

غير أن عملية تعميق العلاقات الإقطاعية إلى أبعد الحدود استمرت في عهد السيادة التركية العثمانية ، والدليل على ذلك يتمثل في قانون نامه ومصر ، والذي هو عبارة عن مجموعة من القوانين التركية وضعت ١٥٣٢ م .

ومفهوم الإقطاع كأرقى أشكال ملكية الأرض تطورا في ذلك العهد ، لم يطبقه الأتراك العثمانيون ، بل ظلوا محتفظين بأقصى ما بلغته ظروف التطور المصري في النصف الأول من القرن السادس عشر .

هوامش الفصل التسع

١ - " لقد أحصيت في هذه المدينة التي تسمى القاهرة ، مالا يقل عن عشرة آلاف من المحلات ، التي تخص كلها السلطان ، والكثير من هذه المحلات يسلم في كل شهر عشرة دنانير مغربية ولا يوجد بينهما ما يدفع أقل من ديناريين ، فالعنابر المتراصة بجوار بعضها من الحمامات والمباني العامة الأخرى لايمكن عدها . وهي كلها ملكية خاصة السلطان ، إذ أنه لايمكن لأي شخص أن يمتلك مبنى أو عقارا ثابتا مالم يكن قد قام بتشييده بنفسه .

ولقد سمعت أن لدى السلطان في القاهرة ومصر ثمانية آلاف منزل : وهي تسلم له في كل شهر ما عليها من أداء واجب » (ناصر خسرو : سفر نامة صـ ١٠٧ وانظر أيضاً :

Б. Н. Заходер, *История Восточного Средневековья*:

تاريخ العصور الوسطى : (الخلافة والشرق الأوسط) بالروسية إصدار ١٩٤٤ صـ ٦٦ - ٦٧ .

٢ - « أما تلك الأقمشة التي يتم نسجها في الورش السلطانية ، فلا تباع ولا تهدى لأحد » ناصر خسرو : سفر نامة صـ ٩٥ .

٣ - والمقصب والبوكلامون وهي الأقمشة التي تحاك للسلطان ، فإن الخزانة هي التي كانت تقوم بدفع القيمة الكاملة لأولئك الناس الذين يعملون برغبتهم عند السلطان ، وهذا لم يكن له نظير في البلاد الأخرى ، حيث الديوان والسلطان يجبرون الحرفيين على الأعمال الصعبة (نفس المصدر السابق صـ ٩٧) .

٤ - المقريزي (خطط) ٢ صـ ٢٦١ .

٥ - النابلسي صـ ٢٨ ، وابن مماتي صـ ١٩ ، والمقريزي (خطط) ٢ صـ ٢٤٢ - ٢٤٣ .

٦ - المقريزي (خطط) ١ صـ ١٤١ .

٧ - ابن جبير صـ ٤٣ .

٨ - انظر الفصل الخامس من الكتاب (قائمة الدخول) .

٩ - ابن مماتي صـ ١٤ - ١٥ .

١٠ - عبد اللطيف صـ ١٩٩ ، ٢٦٥ ، ٣٧٠ ، ٤٠٩ .

١١ - أبو صالح صـ ٦٦ ، والنابلسي صـ ٢٦ ، ٣٠ .

١٢ - المقريزي (سلوك) ١ هـ ٣ صـ ٨٩٧ ، وابن تغريبردي (نجوم) ٧ صـ ١٥٤

وانظر G . Wiet, V . Elisséeff , Ph . Wolff , L,évolution des techniques dans le monde musulman au Moyen Age .- << Cahiers d ' histoire mondiale >> . Neuchâtel , vol . 6, 1960 No.1 , p . 42 -

١٣ - أبو شامة ٢ صـ ١٣ ، وابن جبير صـ ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٣٦ .

١٤ – عن الرعاية الكاملة من جانب الإقطاع للورش المدينية والتجارة ، نستشهد بالنقطة التالية من ابن خلكان حيث يكتب عن الأمير الكردى المعروف ، أبو المنصور جهار كاس : « وشيد هو فى القاهرة أسواقاً كبيرة مسقوفة منتشرة فى البلد ، والتى يقال عنها إنه لم ير لها نظير فى أى بلد آخر فى ارتفاعها وجمالها ومتانة بنيانها (٢ صـ ٧١ ، وانظر أيضاً المقريزى سلوك ١ حـ ١ صـ ١٣٩) .

١٥ –انظر С. Б. Певзнер, *Некоторые вопросы изучения средневековых египетских тканей*, — «Сообщения государственного Эрмитажа», XIII, Л., 1958, стр. 62;

أيضا .. لنفس . المؤلف . *О росте производительности труда в текстильном производстве Египта конца XII—XV вв.* (по материалам техники украшения тканей). Доклад на XXV Международном конгрессе востоковедов, М., 1960.

١٦ – أبو شامة ١ صـ٧ ، ١٧٤ ، وابن إياس ١ صـ ٧٠

١٧ – ابن جبير صـ ٦٢ : أوامر عن إلغاء أو تخفيض « الضرائب غير القانونية »

التى كان يتم جمعها من المدن السورية بعد إخضاعها مباشرة ، وأيضاً فإن ، حكام الجزيرة بعدما صاروا تابعين لصلاح الدين قد قللوا من تحصيل الابتزازات المباشرة من الأهالى ، وشبيه بهذه الأوامـر أيضـاً صـدر فى مـكة ١١٧٨ / ١١٧٩ م (انظر أبو شامة ١ صـ ٢٣٦ ، ٢ صـ ٤٧ ، ٦٩ ، والمقريزى (سلوك) ١ حـ ١ صـ ٩١ ، والمقريزى (خطط) ٣ صـ ٢٧٩)

١٨ – المقريزى (سلوك) ١ حـ ١ صـ ٨٥

<< Extraits des histori 'ens arabes >> pp . 401 - 402

١٩ – " وماركو بولو " وصف هذا الطريق وصفاً جيداً ، ففى البداية يقول عن عدن « من مدن وبلاد كثيرة تأتى إليها السفن محملة بالبضائع من الهند ، وكثير من التجار يأتون إلى هنا ومراكبهم الكبيرة مليئة بالبضائع إلى حد فائق ، فيقومون بنقل البضائع منها إلى مراكب صغيرة تستطيع أن تصل إلى الشواطئ الأفريقية بعد سبعة أيام ، ومن هناك يتم تحميل هذه البضائع على الجمال لكى تصل إلى النهر فى حدود ثلاثين يوماً (نهر النيل – المؤلفة) وهناك يتسلم التجار الفلفل والتوابل والبضائع الأخرى : وغير طريق الإسكندرية لايوجد – (كتاب ماركو بولو طبعة ١٩٥٦ صـ ٢٠٧ بالروسية)

٢٠ – انظر على سبيل المثال : ابن مماتى صـ ٢٤ .

٢١ – ابن جبير صـ ٧٢ ، ٧٦ .

٢٢ – انظر E. Ashtor , The karimi merchants - JRAS 1956 , pt 1 - 2; S.Goitein . New light on the begilnnings of the karimi merchants - JESHO . vol . 1 , 1958 , pt 2 .

٢٣ – ابن جبير صـ ٦١ – ٦٢ ، والمقريزى خطط ٣ صـ ٣٧٩ « ويصل التاجر ثم يتوجه فى الطريق ... ويتاجر براً وبحراً وعلى متن مراكبه سرا وجهرا ، ولا يجرؤ أحد أن يعتدى عليه أو على ممتلكاته أو يقوم بتفتيش المخبأ لديه أو يسأله عما ينقل أو يفرغ ، أو يستوقفه فى الطريق .. » هكذا يقول أبو شامة (١ صـ ٢٠٥ وانظر أيضاً صـ ١٠٨ .

٢٤ – ابن جبير صـ ٧٠ – ٧١ ، ٧٨ .

٢٥ – ابن مماتى صـ ٢٣ .

٢٦ – انظر، W . Heyd ,Histoire du commerce du Levant au moyen age , t . I , Leipzig 1923 , p . 386 .

27 . Ibid ., pp . 420 - 422 .

٢٨ – ابن جبير صـ ٣٥٥ .

٢٩ – ابن جبير صـ ٢٥٧ .

٣٠ – ابن جبير صـ ٣٣٥ .

31 -W . Heyd , Histoire du commerce du levant ... , t . I , p . 418 .

٣٢ – ومعروف أن الفينيسيين كانوا قد منحوا امتيازات ، فى وضع فندقين تحت تصرفهم بالإسكندرية ، ملحق بهما مخازن لبضائعهم والعاملون به يقومون بخدمتهم .

وللفينيسيين أنفسهم الحق فى تحديد ساعات فتح وإغلاق منازلهم ، ومسموح لهم أيضاً أن يقيموا الكنائس ، والحمامات والأفران ، وأمور جاليتهم تدار بقنصل له ثلاثة من المساعدين ، وأفرادها معفيون من الجزية مهما طالت إقامتهم بمصر .

وفى حالة موت أحد من الرعايا الفينيسيين فإن ممتلكاته تنتقل إلى القنصلية .. انظر

٣٣ – المقريزى (خطط) ١ صـ ١٧٦ .. Libid , pp . 419 - 420

٣٤ – انظر W . Heyd, Histoire du commerce du Levant .. t.I,p .417

٣٥ – ابن الفرات ٨ صـ ٩ ، وأنونم صـ ١٧١ .

٣٦ – وعلى ما يبدو ، فإن دور المماليك فى امتلاك المنازل كان ضئيلاً ، فقد كانت أغلب الشوارع والحارات والميادين تسمى بأسماء أمراء المماليك وموظفيهم الكبار برغم أنهم لايملكون منازل هناك ، وسكان المنازل كانوا يسكنون بالأجر ، فالمقريزى يكتب عن أحد الأمراء فيقول : أنه كان يمتلك منزلا به أربعمائة حجرة ، يتسلم عن كل حجرة منها درهمين شهريا . (المقريزى خطط) ٣ صـ ٢٢٥ – ٢٢٦) .

37 – «Хожение гостя Василья (1465—1466 гг.)», — «Православный палестинский сборник», т. II, вып. III, СПб., 1884, стр. 8.

٣٨ – المقريزى (خطط) ٢ صـ ١٩٨ – ٢٠٢ ، ٢٤٢ ، ٣ صـ ٢٥ ، ٢٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ .

٣٩ – المقريزى (خطط) ٢ صـ ١٦٨ .

٤٠ – المقريزى (خطط) ١ صـ ١٥٤ .

٤١ – المقـــريزى (خطط) ١ صـ ١٧٤ ، ٢ صـ ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٣ صـ ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٤ صـ ٨٠ ، ٢٩٤ .

٤٢ – وعن وضع النظام النقدى المصرى والأسعار فى العصور الوسطى ، هناك مقالة هامة مكرسة لذلك لاوين كريتس ، أستور (انظر قائمة المراجع) .

٤٣ – المقريزى (خطط ٤ صـ ٢٦١ .

٤٤ – المقريزى (خطط) ٣ صـ ٢٧١ .

٤٥ – المقـــريزى (خطط) ٣ صـ ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ٢١٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦٦ ، ٣٧٢ ، ٤ صـ ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ٤٣٦ .

٤٦ – المقريزى (خطط) ٤ صـ ١٢٧ – ١٢٨ .

٤٧ – ويرينر ينسب الطوائف الحرفية للفترة الأيوبية خاصة انظر

W . M. Brinner , The significance of the harafish and their << sultan >> - JESHO , vol . 6 , 1963, pt2 , pp . 214 - 215 .

٤٨ – ويكان ما نوه عنه ابن الفرات فى ١٣٨٨ – ١٣٨٩ يعنى بكافة الاحتمالات رؤساء هذه الوحدات حيث يقول : رؤساء المعدين للمصـــابيع والحرف الكثيرة الأخرى (٩ حـ ١ صـ ٢٦ ، ٤٦ ، حـ ٢ صـ ٣٢٨) ، وعن الوحدات الإقليمية السورية المشابهة فى التنظيم الحرفى

انظر N.S. Elisséeff , Corporation de Damas sous Nur aldin, - << Arabica >> 1956, t . III. fasc . I .

٤٩ – المقريزى (خطط) ٢ صـ ٢٤٢ – ٢٤٣ ، وعن وظيفة المحتسب فى المدن السورية انظر :

N . A. Ziadeh Town administration in Syria under the early Mamluks,- <<proceedings of the twenty - second congress of orientalists >> IV Leiden , 1957 . pp . 222 - 224 .

٥٠ – انظر على سبيل المثال

A . S. Atiya , Egypt and Aragon . Embassies and diplomatic correspondence between 1300 and 1330 , Leipzig , 1938 ., F .Dolger. Der Vertrag des Sultans Qalaun von Agypten mit dem kaiser Michael VIII . Palaiologos (1281) << Serta monacen sia >> , Leiden 1952 .

وأمين على الخولى : العلاقات بين النيل والفولجا من القرن ١٣: القرن ١٥ ومصادرنا لاتعطى إمكانية تحديد نسبة التصدير والاستيراد، غير أنه من المهم أن نشير إلى ميل نظام المدفوعات بين

أوربا والشرق لصالح الشرق بشكل كامل فى ذلك الوقت . انظر: Ф. И. Михалевский,
Очерки истории денег и денежного хозяйства, т. I, М., 1948, стр. 131).
قصة تاريخ النقود والاقتصاد النقدى إصدار ١٩٤٨ صـ ١٣١ (بالروسية) .

٥١ – انظر . A . Darrag , L'Égypte sous le règne de Barsbay .., p . 319

٥٢ – انظر W. Fischel, The spice trade in mamluk Egypt , JESHO , vol .I 1958 , pt II , p .169

٥٣ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ صـ ٩٥٥ ، ٢ جـ ١ صـ ٢٣ ، ٢٤٩ ، جـ٢ صـ ٤٨٥ – ٤٨٦ .

٥٤ – انظر المرجع (٥٢) صـ ١٧٢ .

٥٥ – المقريزى (سلوك) ١ جـ ٣ صـ ٨٤٤ ، وابن تغريردى (نجوم) ٧ صـ ٢٢٧ ، ٣٨٥ ، ٨ صـ ٧٩ ، وارتفاع الأسعار التعسفى فى بيع السلع الأوروبية نظير مبالغ كبيرة محلية كان ينفذ طبقاً لأوامر الإدارات السلطانية ، وكانت هذه الظاهرة نادرة فى عهد المماليك الأوائل .

وفى المصادر نجد مصطلح « طرح » الذى يعنى العقاب فى مثل هذه الأعمال الاستبدادية ، وهكذا فبسبب طرح اللحم والفول والسكر من رؤساء الملكيات الخاصة للناصر محمد تم إعدام الأمير ناشـوف – المقريزى (سلوك) ٢ جـ ٢ صـ ٣٦٠ – ٣٦١ ، ٤٠٩ ، ٤٤٤ ، ٤٦١ ، ٤٨٨ ، أنونم صـ ٢٠٣ – ٢٠٤ .

٥٦ – المقريزى (خطط) ٣ صـ ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦٨ ، ٣٠٢،٣٢٠ .

٥٧ – ابن عرب شاه عجائب المقدور فى أخبار تيمور .. القاهرة ١٨٨٧ صـ١١٤ ، ١١٥ .

٥٨ – المقريزى (خطط) صـ ٣٢١ (وللأسف لا يوجد رقم المجلد ..)

٥٩ – المقريزى (خطط) ـ ٦٢ وابن عبد الظاهر صـ ١٩٣ ، ٢١٨ ، والمقريزى (سلوك) ١ جـ ٢ صـ ٤٩٩ ، ٢ جـ ٢ صـ ٣٨٤ ، وأبو الفدا ٤ صـ ٧٨ ، وابن خلدون ٥ صـ ٣٩٤ وابن إياس ١ صـ ٩٦ ، ١٢٠ – ١٢١ ، ١٢٨ .

٦٠ – ابن تغريردى (نجوم) ١٢ صـ ١١٠ – ١١٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ .

٦١ – ابن إياس ٢ صـ ٢٤٥ – ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٥ .

٦٢ – ابن إياس ٢ صـ ٣٤٣ .

٦٣ – ابن إياس ٢ صـ ٣٧٣ .

٦٤ – ابن إياس ٤ صـ ٧٣ .

٦٥ – ابن إياس ٤ صـ ٤٠٨ .

٦٦ – ابن إياس ١ صـ ٣١٩ ، ٢ ـــ ١٧٣ ، ٢٥٧ ، ٣ صـ ١٣ ، ٦٠ ، ٤ صـ ١٦ ، ٢٠ ، ٢٤٤

، ٢٤٨ ... الخ ، وابن تغريردى (حوادث) صـ ٣٢٩ ، ٣٠٠ ، ٤٠٩ .

٦٧ – واضطهادات مشابهة تحتل أماكن فى ١٣٥١ – ١٣٥٢ ، ١٣٥٤ ، ١٣٦٥ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٤٥ – ١٤٤٧ ، ١٤٥٠ – ١٤٥١ ، ١٤٦١ – ١٤٦٣ ، ١٤٨٣ .

انظر على سبيل المثال : ابن تغريردى (حوادث) صـ ٢٧٤ وابن تغريردى (نجوم) ٧ (إصدار بوبر) صـ ١٨٦ ، ٧٢١ ، وابن إياس ٤ صـ ٢٩٧ ، والسخاوى صـ ٧٢ – ٧٣ ، ١٢٣ – ١٢٤ وأيضاً . A. Darrag , L'Égypte sous le règne de Barsbay ... pp .14o - 145 , M . Caudefroy -Demombynes , La Syrie ... p . CXVII, n.1 M .Perlmann , Notes on anti - christian propaganda in the Mamluk empire , pp . 851 , 861 ; R . Gottheil ,Dhimmis and Moslems in Egypt , (S . l) , (S . a .) , pp . 366 - 368 .

٦٨ – انظر على سبيل المثال : .A Atiya , The crusade in the later Middle Ages , London , 1938 pp . 275 - 277 .

٦٩ – ابن إياس ٤ صـ ٤٦٥ .

٧٠ – ابن اياس ٤ صـ ١٣٧ ، ١٣٨ ، والمقريزى يكتب أنه لما جاءت بداية القرن الخامس عشر سرعان ما تزايد إصدار " الفلوس " ولقد كان دخل ابن البلد (أبناء المدن) حوالى ثلاثمائة درهم فى الشهر ، مما يعنى عشرة دراهم فى اليوم ، وقد كان يستطيع أن يشترى بدرهمين ثلاثة أرطال من لحم الضأن وبدرهم ما يلزمهم لإعداد الطعام ، وبهذه الصورة كان من الممكن أن تأكل الأسرة كلها بأربعة دراهم ، أما فى الزمن الحالى – يلاحظ المقريزى – فالمواطن لايحصل فى اليوم إلا على عشرة " فلوس " وفى هذا الوقت فإن ثلاثة أرطال من اللحم صارت تساوى سبعة وعشرين " فلوسا " وما يلزمها للإعداد يساوى عشرة " فلوس " ، وفى مثل هذه الأحوال فإن ابن البلد لايضمن غذاء أسرته ، بصرف النظر عن الملابس وعلف الحيوان وغير ذلك (إغاثة الأمة صـ ٨٦) والسخاوى

٧١ – ابن إياس ٢ صـ ٣١ ، ٣٢ .

٧٢ – ابن إياس ٢ صـ ٢٠٢ .

٧٣ – ابن إياس ٢ صـ ٢٥٨ .

٧٤ – ابن إياس ٤ صـ ٨٨ .

٧٥ – ابن إياس ٤ صـ ٩٤ .

٧٦ – ابن إياس ٤ صـ ٤٤٨ .

٧٧ – المقريزى خطط ١ صـ ٣٢٩ ، ٢ صـ ١٧٣ ، وانظر .

A . Darrag, l'Égypte sous le règne de Barsbay ... p .66;

٧٨ – انظر M . Sobernheim , Das Zuckermonopol unter Sultan Bars bai << Zeitschrift fur Assyriologie und verwandte Gebiete >> . XXVII, Lepzig . 1912 . S. 75 .

٧٩ – انظر

W . Heyd, Histoire du commerce du Levant ... t . II , p. 492 ; L . Sobhy , Ein Brief des Mamluken - Sultans Qaitbey an dem Dogen Von venedig aus dem Jahre 1478 - << Der Islam >> Bd XXXII , H. 3, Berlin , 1957 , S . 325 - 329 .

٨٠ – انظر P. Reinaud, Traités de commerce entre la république de Venise et les derniers sultans mameloucs d' Égypte, - JA , t . IV , 1829 p . 23

٨١ – ابن إياس ٣ صـ ٦٠ .

مختارات من

كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار

لتقى الدين أحمد بن على المقريزى

عن الفاطميين الأواخر*

ولما مات العاضد لدين الله في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة ، احتاط الطواشي قراقوش على أهل العاضد وأولاده - فكانت عدة الأشراف في القصور مائة وثلاثين ، والأطفال خمسة وسبعين - وجعلهم في مكان أفرد لهم خارج القصر وجمع عمومته وعشيرته بالقصر واحترز عليهم ، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا وليكون ذلك أسرع لانقراضهم .

وتسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس ، وكانت عظيمة الوصف ، واستعرض من فيه من الجواري والعبيد ، فأطلق من كان حراً ، ووهب واستخدم باقيهم وأطلق البيع في كل جديد وعتيق ، فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين .

وأخلى القصور من سكانها ، وأغلق أبوابها ، ثم ملكها أمراءه ، وضرب الألواح على ما كان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع ، وأقطع خواصه منها ، وباع بعضها ثم قسم القصور : فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه ؛ وأسكن أباه نجم الدين أيوب بن شادي في قصر اللؤلؤة على الخليج ، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب إلى الدولة الفاطمية ، فكان الرجل إذا استحسن داراً أخرج منها سكانها ونزل بها .

قال القاضي الفاضل ، وفي ثالث عشرينه (يعني ربيع الآخر سنة سبع وستين) (١٥ ديسمبر ١١٧١م - المؤلفة) كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ، فقيل إن الموجود فيه مائه صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر جمة الخطر ، وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش.

وأخليت أمكنة من القصر الغربي ، سكن بها الأمير موسك ، والأمير أبو الهيجاء السمنى وغيره من الغز[1] وملئت المناظر المصونة عن الناظر ، والمتنزهات التي لم يخطر ابتذالها في الخاطر فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ، ووارث الأرض ومورثها ,وقال ابن عبد الظاهر عن القصر لما أخذه صلاح الدين وأخرج من به :

كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ,وليس فيهم فحل إلا الخليفة ، وأهله وأولاده .

فلم يزالوا في الاعتقال بدار الأفضل من حارة برجوان ، إلى أن انتقل الكامل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل .

★ المقريزى خطط : جـ ٢ ص ٢٨٤

١ - يعتقد المقريزى أن الغز هم من الأمراء الكرديين والأتراك ، أقرباء لصلاح الدين .المؤلفة

فنقل معه ولد العاضد واخوته وأولاد عمه واعتقلهم بالقلعة ، وبها مات العاضد واستمر البقية حتى انقرضت الدولة الأيوبية .

وملك الأتراك إلى أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

عن الأسطول*

فلما كان زوال الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، اعتنى أيضاً بأمر الأسطول وأفرد له ديواناً عرف بديوان الأسطول وعين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها ... وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشنان وطنبدى .

وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب ، فأقام فى مباشرته وعمالته صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ، وتقرر ديوان الأسطول الذى ينفق فى رجاله نصف وربع دينار ، بعد ما كان نصف وثمن دينار .

فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، استمر الحال فى الأسطول قليلا ، ثم قل الاهتمام ، وصار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة .

فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه ، طلب له الرجال ، وقُبض عليهم من الطرقات وقيدوا فى السلاسل نهاراً ، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم شئ قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شئ كما يفعل بالأسرى من العدو فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال ، وإذا قيل للرجل فى مصر " يا أسطولى غضب غضباً شديداً . بعد ما كان خدام الأسطول يقال لهم " المجاهدون فى سبيل الله ، والغزاة فى أعداء الله " ويتبرك بدعائهم الناس .

عن المحتسب**

قال ابن الطويرا(١) : وأما الحسبة فإن من تسند إليه لا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين لأنها خدمة دينية ، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع (أعمال الدولة)(٢) كنواب الحكم ، وله الجلوس بجامعي القاهرة ومصر يوما بعد يوم

★ جـ ٣ – ص ١٢ ، ١٣

★★ جـ ٢ ص ٢٢٧ و ٢٢٨

١ – مورخ مصرى ، عاش على الأرجح فى منتصف القرن الثانى عشر – المؤلفة :

أنظر: A.R. Guest, Alist of writers books and other outhoritis mentioned by El Ma-qrizi in his Khitat JRAS. 1902 p.117

(٢) يعنى جميع أقاليمها

ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزّاره ، وكذلك الطباخون ، ويتتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقة فيها ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر من وسق السلامة ، وكذلك مع الحمالين على البهائم .

ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية – ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلوا كل دلو أربعون رطلاً – وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهي رزق ، وينذرون معلمي المكاتب بألا يضربوا الصبيان ضربا مبرحاً ولا في مقتل وكذلك معلمو العوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس ، ويقفون على من يكون سيئ المعاملة فينبهونه بالروع والأدب ، وينظرون المكاييل والموازين وللمحتسب النظر في دار العيار ، ويخلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر (انتهى) – يقصد ما قاله بن الطوير .(المترجم)

وكان للعيار مكان يعرف بدار العيار ، تعير فيه الموازين بأسرها وجميع الصنج وكان ينفق على هذه الدار من الديوان السلطاني فيما تحتاج إليه .. الأصناف كالنحاس والحديد والخشب والزجاج وغير ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشارفين ونحوهم .

ويحضر المحتسب أو نائبه إلى هذه الدار ليعيرا المعمول فيها بحضوره ، فإن صح ذلك أمضاه ، وإلا أمر بإعادة عمله حتى يصح .

وكان بهذه الدار أمثلة يصنع بها العيار ، فلا تباع الصنج والموازين والأكيال إلا بهذه الدار ، ويحضر جميع الباعة إلى هذه الدار باستدعاء المحتسب لهم ، ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، فتعير في وقت قليل ، فإن وجد فيها الناقص استهلك ، وأخذ من صاحبه لهذه الدار ، وألزم بشراء نظيره مما هو محرر بهذه الدار والقيام بثمنه ثم سومح الناس وصار يلزم من يظهر في ميزانه أو صنجه خلل بإصلاح ما فيها من فساد فقط والقيام بأجرته فقط .

ومازالت هذه الدار باقية جميع الدولة الفاطمية ، فلما استولى صلاح الدين على السلطنة ، أقر هذه الدار وجعلها وقفا على سور القاهرة مع ما كان جاريا في أوقاف السور من الرباع والنواحي الجارية في ديوان الأسوار ، وما زالت هذه الدار باقية .

عن السلطان بيبرس★

" بيبرس " الملك الظاهر ركن الدين البندقداري : أحد المماليك البحرية الذين اختص بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب وأسكنهم قلعة الروضة .

كان أولا من مماليك الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري ، فلما سخط عليه الملك الصالح أخذ مماليكه – ومنهم الأمير بيبرس هذا – وذلك في سنة أربع وأربعين وستمائة (١) وقدمه على طائفة من الجمدارية (٢) .

ومازال يترقى في الخدم إلى أن قتل المعز أيبك التركماني ، الفارس أقطاي الجمدار، في شعبان سنة اثنين وخمسين وستمائة ، وكانت البحرية قد انحازت إليه فركبوا في نحو السبعمائة ، فلما ألقيت اليهم رأس أقطاي تفرقوا ، واتفقوا على الخروج إلى الشام – وكانت أعيانهم يومئذ بيبرس البندقداري ، قلاوون الألفي ، وسنقر الأشقر ، وبيسري ، وبرامق وتنكز – فساروا إلى الملك الناصر صاحب الشام .

ولم يزل بيبرس ببلاد الشام إلى أن قتل المعز أيبك(٣) ، وقام من بعده ابنه المنصور على وقبض عليه نائبه الأمير سيف الدين قطز ، وجلس على تخت المملكة ، وتلقب بالملك المظفر ، فقدم عليه بيبرس ، فأمره المظفر قطز .

ولما خرج قطز إلى ملاقاة التتار ، وكان من نصرته عليهم ما كان ، رحل إلى دمشق ، فوشى إليه بأن الأمير بيبرس قد تنكر له وتغير عليه وأنه عازم على القيام بالحرب فأسرع قطز بالخروج من دمشق إلى جهة مصر ، وهو مضمر لبيبرس السوء ، وعلم بذلك خواصه ، فبلغ ذلك بيبرس ، فاستوحش من قطز ، وأخذ كل منهما يحترس من الآخر على نفسه ، وينتظر الفرصة ، فبادر بيبرس وواعد الأمير سيف الرشيدي والأمير سيف الدين بيدغان الركني – والمعروف باسم الموت – والأمير سيف الدين بليان

★ المقريزي خطط : جـ ٢ ص ٢٠٤ – ٢٠٧

١ – يعني في ١٢٤٦ – ١٢٤٧ م .

٢ – الجمدارية نوع من المماليك مستخدم لخدمة السلطان (المؤلفة) .

٣ – الحديث هنا يدور عن محاولة مماليك صالح نجم الدين أيوب بقيادة الأمير أكتاي أن يقتلوا السلطان المعز أيبك ، وفشلت المؤامرة ، مما أجبرهم على الهرب إلى سوريا ، وعادوا من هناك بعد موت أيبك وحاكم سوريا ناصر – وهو ناصر يوسف حفيد صلاح الدين الذي قد صارت تحت سلطته كل من حلب ودمشق في نفس هذه السنة .

الهاروني والأمير بدر الدين أنص الأصبهاني فلما قربوا في مسيرهم من القصر بين الصالحية والسعيدية عند القرين ، وانحرف قطز عن الدرب للصيد ، فلما قضى منه وطره وعاد – والأمير بيبرس يسايره هو وأصحابه ، طلب منه بيبرس امرأة من سبي التتار ، فأنعم عليه بها فتقدم ليقبل يده ، فكانت هذه إشارة بينه وبين أصحابه – فعندما رأوا بيبرس قد قبض على يد السلطان المظفر قطز بادر، الأمير بكتوت الجوكندار(١) وضربه بسيف على عاتقة أبانه ، واختطفه الأمير أنص وألقاه عن فرسه إلى الأرض ، ورماه بهادر المغربي بسهم فقتل ، وذلك يوم السبت خامس عشر من ذي القعدة سنة ثمان وخمس وستمائة (٢٤ أكتوبر ١٢١٠ – المؤلفة) ومضوا إلى الدهليز للمشورة فوقع الاتفاق على يد الأمير بيبرس ، فتقدم إليه أقطاى المستعرب الجمدار المعروف بالأتابك – وبايعه وحلف له ، ثم بقية الأمراء وتلقب بالملك الظاهر وذلك بمنزلة القصير ، فلما تمت البيعة وحلف الأمراء كلهم ، قال له الأمير أقطاى المستعرب : "يا خوند لا يتم لك أمر إلا بعد دخولك إلى القاهرة وطلوعك إلى القلعة " .

فركب من وقته ومعه الأمير قلاوون والأمير بلبان الرشيدي بيلبك الخازندار وجماعة ،، يريدون قلعة الجبل. فلقيهم في طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبي ، نائب الغيبة عن المظفر قطز ، وقد خرج لتلقيه ، فأخبروه بما جرى وحلفوه ، فتقدمهم إلى القلعة ، ووقف على بابها حتى وصلوا في الليل ، فدخلوا إليها وكانت القاهرة قد زينت لقدوم السلطان الملك المظفر قطز ، وفرح الناس بكسر التتار وعودة السلطان ، فما راعهم وقد طلع النهار، الا والمشاعلي ينادي: معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر

١ – الجوكاندار هو الأمير الحامل للجوكان وهي عبارة عن ست خشبات بنهايات معقوفة ، للعب بالكرة وقذفها إلى أعلى كما نشاهد في كرة " البولو " وهذه اللعبة كانت واسعةً الانتشار في العصور الوسطى في الشرق الإسلامي بما فيه مصر انظر.

"تاريخ لعبة البولو"

مذكرات الفرع الشرقي لجمعية الآثار الروسية :

C TT 5 , X Iv 1801 cmp 108-113 :

وأنظر أيضاً D Ayalon , Notes of the furusiyya excercies and

games in the mamluk sultan - studies in Islamic history and civilization ed.u Heyd, Jerusalem, 1961 ,pp, 53 - 55 .

وادعوا لسطانكم الملك الظاهر بيبرس فدخل على الناس من ذلك غم شديد ، ووجل عظيم خوفا من عود البحرية إلى ما كانوا عليه من الجور والفساد وظلم الناس .

ووصل إلى السلطان الإمام أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسي من بغداد في تاسع رجب (٩ يولية ١٢٦١ - المؤلفة) فتلقاه السلطان في عساكره .

وبالغ في إكرامه ، وأنزله بالقلعة وحضر سائر الأمراء والمقدمين ، والقضاة وأهل العلم والمشايخ بقاعة الأعمدة من القلعة بين يدى أبي العباس ، فتأدب السلطان الظاهر ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسي .

وحضر العُربان الذين قدموا من العراق وخادم من طواشية بغداد وشهدوا بأن العباس أحمد ولد الخليفة الظاهر ابن الخليفة الناصر ، وشهد معهم بالاستفاضة الأمير جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر ، وعلم الدين بن رشيق ..

وبايعه الظاهر على كتاب الله وسنة نبيه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها ، فلما تمت البيعة ، قلد المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر أمر البلاد الإسلامية ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . وبايع الناس المستنصر على طبقاتهم وكتب إلى الأطراف بأخذ البيعة له وإقامة الخطبة باسمه على المقابر ونقشت السكة في ديار مصر باسمه واسم الملك الظاهر معا .

فلما كانت الجمعة سابع عشر رجب (١٧ يولية ١٢٦١ - المؤلفة) خطب الخليفة بالناس في جامع القلعة .

وركب السلطان في يوم الاثنين رابع شعبان (٤ يولية ١٢٦١ - المؤلفة) إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير ظاهر القاهرة ، وأفيضت عليه الخلع الخليفية ، وهي جبة سوداء ، وعمامة بنفسجية ، وطوق من ذهب - وقُلد سيف عربي ، وجلس مجلسا عاماً حضره الخليفة والوزير وسائر القضاة والأمراء والشهود ، وصعد القاضي ابن لقمان كاتب السر منبراً نصب له ، وقرأ تقليد السلطان المملكة وهو بخطه من إنشائه ،

ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق ، ودخل من باب النصر وشق القاهرة ، وقد زينت له ، وحمل الصاحب بهاء الدين بن حنا التقليد على رأسه قدام السلطان ، والأمراء مشاة بين يديه ، وكان يوماً مشهوداً .

وأخذ السلطان فى تجهيز الخليفة ليسير إلى بغداد ، فرتب له الطواشى بهاء الدين الصالحى شرابياً ، والأمير سابق الدين بوريا الصيرفى أتابكا ....

وعين له خزانة وسلا حخاناه ، ومماليك عدتهم نحو الأربعين منهم سلا حدارية وجمدارية و ... وإماما ومؤذناً وسائر أرباب الوظائف واستخدم له خمسمائة فارس ، وكتب لمن قدم معه من العراق بإقطاعات، وأذن له فى الركوب والحركة حيث اختار .

وحضر الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، أخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب الجزيرة ، وأخوهما المظفر فأكرمهم السلطان وأقرهم على ما بأيديهم ، وكتب لهم تقاليد وجهزهم فى خدمة الخليفة .

وسار الخليفة فى مارس شوال والسلطان فى خدمته إلى دمشق . فنزل السلطان فى القلعة ونزل الخليفة فى القرية الناصرية بجبل الصالحية ، وبلغت نفقة السلطان على الخليفة ألف ألف وستين ألف دينار .

وخرج من دمشق فى الثالث عشر ذى القعدة (١٩ أكتوبر ١٢٦١ – المؤلفة) ومعه الأمير بلبان الرشيدى ، والأمير سنقر الرومى ، وطائفة من العسكر وأوصاهما السلطان أن يكونا فى خدمة الخليفة حتى يصل إلى الفرات ، فإذا عبر الفرات أقاما بمن معهما من العسكر بالبر الغربى من جهات حلب لانتظار ما يتجدد من أمر الخليفة بحيث إن احتاج لهم ساروا إليه .

فسار إلى الرحبة ، وتركه أولاد صاحب الموصل وانصرفوا إلى بلادهم ، وسار إلى مشهد على ، فوجدوا الإمام الحاكم بأمر الله قد جمع سبعمائة فارس من التركمان ، وهو على عانة ، ففارقة التركمان وصار الحاكم إلى المستنصر طائعا له ، فأكرمه وأنزله معه وسار إلى عانة ورحلا إلى الحديثة ، وخرجا منها إلى هيت .

وكانت له حروب مع التتار فى ثالث محرم سنة ستين وستمائة ، قُتل فيها أكثر أصحابه وفر الحاكم وجماعة من الأجناد ، وفُقد المستنصر فلم يوقف له على خبر، فحضر الحاكم إلى قلعة الجبل ، وبايعه السلطان والناس ، واستمر بديار مصر فى مناظر الكبش وهو جد الخلفاء الموجودين اليوم .

وفي سنة ست وستين (١٢٦٧ / ١٢٦٨ م - المؤلفة) قرر الظاهر بمصر أربعة قضاة وهم : شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي فاستمر الأمر على ذلك إلى اليوم ، وحدث غلاء شديد بمصر ، وعدمت الغلة . فجمع السلطان الفقراء وعدهم ، وأخذ لنفسه خمسمائة فقير يمونهم ، ولابنه السعيد بركة خان خمسمائة فقير ، والنائب بيلبك الخازندار ثلثمائة فقير ، وفرق الباقي على سائر الأمراء ورسم لكل إنسان في اليوم برطلي خبز فلم ير بعد ذلك أحداً من الفقراء يسأل .

وفي ثالث شوال سنة اثنين وستين أركب السلطان ابنه السعيد بركة بشعار السلطنة ومشى قدامه ، وشق القاهرة والكل مشاة ، بين يديه من باب النصر حتى قلعة الجبل وزينت البلد .

وفيها رتب السلطان لعب القبق بميدان العيد خارج باب النصر ، وختن الملك السعيد ومعه ألف وستمائة وخمسة وأربعون صبياً من أولاد الناس سوى أولاد الأمراء والأجناد ، وأمر لكل صغير منهم بكسوة على قدره ومائة درهم ورأس من الغنم ، فكان مهماً عظيماً ... وفي سنة أربع وستين افتتح قلعة صفد وجهز العساكر إلى سيس وتقدمهم الأمير قلاوون الألفي ، فحصر مدينة ابناس وعدة قلاع .

وفي سنة خمس وستين أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر ، وفتح يافا والسقيف وأنطاكية .

وفي سنة ٦٧ (١٢٦٨ - ١٢٦٩ - المؤلفة) سار على غزة إلى الكرك ومنها إلى المدينة النبوية وغسل الكعبة بماء الورد بيده ، ورجع إلى دمشق فأراق جميع الخمور ، وقدم إلى مصر في سنة ثمان وستين .

وفي سنة إحدى وسبعين خرج من دمشق سائقا إلى مصر .. فوصل إلى قلعة الجبل وعاد إلى دمشق وكانت مدة غيبته أحد عشر يوماً ، ولم يعلم بغيبته من في دمشق حتى حضر ثم خرج سائقا من دمشق يريد كبس التتار ، فخاض الفرات وقدامه قلاوون وبيسرى وأوقع بالتتار على حين غفلة ، وقتل منهم شيئاً كثيراً ، وساق خلفهم بيسرى إلى سروج وتسلم السلطان البيرة .

ووقع بمصر في سنة اثنين وسبعين وباء ؛ هلك به خلق كثير ...

وفى سنة أربع وسبعين تزوج السعيد ابن السلطان بابنة الأمير قلاوون ، وخرج العسكر إلى بلاد النوبة فواقع ملكهم وقتل منهم كثيرا وفر باقيهم

وفى سنة خمسة وسبعين ، سار السلطان لحرب التتار، فواقعهم على الألبستين وقد انضم إليهم الروم ، فانهزموا وقتل منهم كثير ، وتسلم السلطان قيسارية ، ونزل فيها بدار السلطان ، ثم خرج إلى دمشق فوعك بها من إسهال وحمى ، مات منها يوم الخميس تاسع عشر من محرم سنة ست وسبعين وستمائة وعمره من نحو سبع وخمسين سنة ، ومدة ملكه سبع عشر سنة وشهران .

وكان ملكاً جليلاً عسوفا عجولا ، كثير المصادمات لرعيته ودواوينه ، سريع الحركة، فارسا مقداماً ، وترك من الذكور ثلاثة : السعيد محمد بركة خان وملك بعده ، وسلامش وملك أيضاً ، والمسعود وخضر، ومن البنات سبع بنات ، كان طويلا مليح الشكل .

وفتح الله علي يديه مما كان مع الفرنج قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ، ويافا والشقيف وأنطاكية وبقراص والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا ، وصافيتا ومرقية وحلبا ، وناصف الفرنج علي المرقب وبانياس وانطرسوس ، وأخذ من صاحب سيس دربساك ودركوس وتلميش وكفردين ورعبان ومرزيان وكينوك وأدنة والمصيصة .. وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الإسكندرية ومنار رشيد ، وردم فم بحر دمياط، ووعر طريقه وعمر الثوانى وقلعة دمشق وقلعة الصبيبة وقلعة بعلبك وقلعة الصلت وقلعة صرخد وقلعة عجلان وقلعة بصرى وقلعة شيزار وقلعة حمص .

وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية خارج القاهرة وحفر خليج الإسكندرية القديم وباشره بنفسه وعمر هناك قرية سماها الظاهرية ، وحفر بحر أشموم طناح على يد الأمير بلبان الرشيدى وجدد الجامع الأزهر وأعاد اليه الخطبة ، وعمر بلد السعيدية من الشرقية بديار مصر وعمر القصر الأبلق بدمشق وغير ذلك .

ولما مات كتم موته الأمير بدر الدين بيليك الخازندار عن العسكر وجعله فى تابوت وعلقه ببيت من قلعة دمشق ، وأظهر أنه مريض ، ورتب الأطباء يحضرون على العامة ، وأخذ العساكر والخزائن ومعه محفة محمولة فى الموكب محترمة ، وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض ، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان ، وسار إلى أن وصل إلى قلعة الجبل بمصر ، وأشيع موته رحمه الله تعالى .

★ عن القوات المملوكية

اعلم أنه قد كان بقلعة الجبل مكان معد لديوان الجيش ، وأدركت منه بقية إلى أثناء دولة الظاهر برقوق : وكان ناظر الجيش وسائر كتاب الجيش لا يبرحون فى أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش ، وكانت لهذا الديوان عوايد قد تغير أكثرها ، و نُسى غالب رسومه .

وكانت جيوش الدولة التركية بديوان مصر على قسمين ، منهم من هو بحضرة السلطان ، ومنهم من هو فى أقطار المملكة وبلادها ، وسكان بادية كالعرب والترجمان وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان ، وغالبهم من المماليك المبتاعين وهم طبقات : أكابرهم من له امرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس ، ومن هذا القبيل تكون أكابر النواب ، وربما زاد بعدهم بالعشرة فوارس والعشرين ، ثم أمراء الطبلخانة ، ومعظمهم من تكون له إمرة أربعين فارساً ، وقد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك إلى السبعين ، ولا تكون الطبلخانة لأقل من أربعين ثم أمراء العشروات ممن تكون له إمرة عشرة ، وربما كان فيهم من له عشرون فارساً ولا يعدون فى أمراء المشراوات ، ثم جند الحلقة ، وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان ، كما أن مناشير الأمراء من السلطان ، وأما أجناد الأجناد فمنا شيرهم من أمرائهم . وكان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الإقطاع ولأجناده الثلثان ، فلا يمكن للأمير ولا مباشروه أن يشاركوا أحدا من الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم .. وكان الأمير لا يخرج أحدا من

★ والعنوان عند المقريزى ذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوايدها جـ ٣ صـ ٥٢ - ٦٠ دار التحرير للطبع والنشر- القاهرة .المترجم .

من أجناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضى إخراجه ، فحينئذ يخرجه نائب السلطان ، ويقيم عند الأمير عوضه ، وكان لكل أربعين جنديا من جند الحلقة مقدم عليهم ، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر لقتال ، فكانت مواقف الأربعين مع مقدمهم ، وترتيبهم فى موقفهم إليه .

ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المئين ، المقدمين من السلطان ، مائتى ألف دينار جيشية ، وربما زاد على ذلك ، وأما غيرهم فدون ذلك يعبر أقلها إلى ثمانين ألف دينار وما حولها .

وأما الطبلخانة فمن ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار .

وأما العشروات فأعلاها سبعة آلاف دينار إلى ما دونها

وأما إقطاعات أجناد الحلقة فأعلاها ألف وخمسمائة دينار ، وهذا القدر وما حوله إقطاعات أعيان مقدمى الحلقة ثم بعد ذلك الأجناد بابات ، حتى يكون أدناهم مائتين وخمسين ديناراً .

وأما إقطاعات جند الأمراء فإنها على ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص .

وأما إقطاعات الشام فإنها لا تقارب هذا ، بل تكون على الثلثين من ذكرنا ، ما خلا نائب السلطنة بدمشق ، فإنه يقارب إقطاعه على إقطاعات أكابر أمراء مصر المقربين ، وجميع جند الأمراء تعرض بديوان الجيش ، ويثبت اسم الجندى وحليته ، ولا يستبدل أميره به غيره إلا بتنزيل من عوض به وعرضه .

وكانت للأمراء على السلطان فى كل سنة ملابس ، ينعم بها عليهم ، ولهم فى ذلك حظ وافر وينعم على أمر المئين بخيول مسرجة ملجمة ، ومن عداهم بخيول عرى ، ويميز خاصتهم على عامتهم ، وكان لجميع الأمراء من المئين الطبلخانة والعشروات على السلطان والرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله كلها ، والخبز ، والشعير لعليق الخيل ، والزيت ، ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة فى كل سنة ، وكذلك لجميع مماليك السلطان ، وذوى الوظائف من الجند .

وكانت العادة إذا نشأ لأحد الأمراء ولد أطلق له دنانير ولحم وخبز وعليق حتى

يتأهل للإقطاع في جملة الحلقة ، ثم منهم من ينتقل إلى إمرة عشرة ، أو إلى إمرة طبلخانة بحسب الحظ .

واتفق للأميرين طرنطاى وكتبغا أن كلا منهما زوج ولده بابنة الآخر ، وعمل لذلك المهم العظيم – ثم سأل الأمير طرنطاى – الأمير بيلبك الأيدمرى والأمير طيبرس ، أن يسألا السلطان الملك المنصور قلاوون في الإنعام على ولده وولد الأمير كتبغا بإقطاعيين في الحلقة .

فقال لهما والله لو رأيتهما في مصاف القتال يضربان بالسيف ، أو كانا في زحف قدامي؛ استقبح أن أعطى لهما أخبازاً في الحلقة خشية أن يقال أعطى الصبيان الأخباز ، ولم يجب سؤالهما هذا ، وهم من قد عرفت .

لكن كان الأمير العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله إذا مات الجندى أعطى إقطاعه لولده ، فإذا كان صغيراً رتب معه من يلى أمره حتى يكبر ، فكان أجناده يقولون : الإقطاعات أملاكنا ،، يرثها أولادنا الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها وبه اقتدي كثير من ملوك مصر في ذلك .

وللأمراء المقدمين حوائص ذهب في وقت الركوب إلى الميدان ، ولكل أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحلوى في شهر رمضان ، ولسائرهم الأضحية : في عيد الأضحى على مقادير رتبهم ، ولهم البرسيم لتربيع دوابهم ، ويكون في تلك المدة بدل العليق المرتب لهم .

وكانت الخيول السطانية تفرق على الأمراء مرتين في كل سنة : مرة عندما يخرج السلطان إلى مرابط خيوله في الربيع عند اكتمال تربيعها ، ومرة عند لعبه بالأكرة في الميدان ، ولخاصة السلطان المقربين زيادة كثيرة من ذلك ، بحيث يصل إلى بعضهم السبعمائة فرس ، ويفرق السلطان أيضاً الخيول على المماليك السلطانية في أوقات أخر ، وربما يعطى بعض مقدمي الحلقة ، ومن نفق له فرس من المماليك ، يحضر من لحمه والشهادة بأنه نفق ، فيعطى بدله ، ولخاصة السلطان المقربين إنعام من الإنعامات ، كالعقارات ، والأبنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها زيادة عن مائة ألف دينار ووقع هذا في الأيام الناصرية مرارا .

ولهم أيضاً كساوى القماش المنوع ، ولهم عند سفرهم إلى الصيد وغيره العلوفات والأنزال . وكانت لهم آداب لايخلون بها : منها أنهم إذا دخلوا إلى الخدمة بالديوان أو القصر وقف كل أمير في مكانه المعروف به ، ولا يجسر أحد منهم ولا من المماليك أن يحدث رفيقه في الخدمة بكلمة واحدة ، ولا يلتفت إلى نحوه أيضاً ، ولا يجسر أحد منهم ولا من المماليك ، أن يجتمع بصاحبه في نزهة ولا في رمي النشاب ولا غير ذلك ، ومن بلغ السلطان عنه أنه اجتمع بآخر نفاه أو قبض عليه .

واختلف زى الأمراء والعساكر في الدولة التركية . وصار زيهم إذا دخلوا إلى الخدمة بالأقبية التترية والكلاوات فوقها ، ثم القباء الاسلامي فوقها ، وعليه تشد المنطقة والسيف ويتميز الأمراء والمقدمون وأعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك ، وتكون أكمامها أكثر من القباء التحتاني ، بلا تفاوت كبير في قصر الكم والطول ، وعلى رؤسهم كلهم كلوتات صغار غالبها من الصوف الملطى الأحمر ، فوقها عمائم صغار ثم زادوا في قدر الكلوتات وما يلف فوقها في أيام الأخير يلبغة الخاصكي ، القائم بدولة الأشرف شعبان بن حسين وعرفت بالكلوتات الطرخانية ، وصاروا يسمون تلك الصغيرة ناصرية .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق بالغوافي كبر الكلوتات ، وعملوا في شدتها عوجاً ، وقيل لها كلوتات جركسية . وهم على ذلك إلى اليوم .

ومن زيهم لعب المهماز على الأخفاف ، ويعمل المنديل في الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن ومعظم حوائص المماليك فضة ، وفيهم من كان يعملها من الذهب ، وربما عملت باليشم .

وكانت حوائص أمراء المئين الأكابر التي تخرج إليهم مع الخلع السلطانية من خزانة الخاص ، يرصع ذهبها بالجواهر وكان معظم العسكر يلبس طرز ، ولا يكفت مهمازه بالذهب ولا يلبس الطراز إلا من له إقطاع في الحلقة . وأما من هو بالجامكية أو من أفراد الأمراء فلا يكفت مهمازه بالذهب ولا يلبس طرازا .

وكانت العساكر من الأمراء وغيرهم تلبس المنوع من الكمخا والخطاى والكبخى والمخمل والإسكندراني ، والشرب ، ومن النصافي والأصواف الملونة . ثم بطل لبس

الحرير فى الظاهر برقوق ، واقتصرو إلى اليوم على لبس الصوف الملون فى الشتاء ، ولبس المصافى المصقول فى الصيف .

وكانت العادة أن السلطان يتولى بنفسة استخدام الجند . فإذا وقـف قـدامه من يطلب الإقطاع المحلول ، ووقع اختياره على أحد ، أمر ناظر الجيش بالكتابة له ، فيكتب ورقة مختصرة تسمى « المثال » ، مضمونها حيِّز فلانا كذا ، ثم يكتب فوقـه اسـم المستقر له ، ويناولها السلطان ، فيكتب عليها بخطه « يكتب » ، ويعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ، ثم يعاد « المثال » إلى ديوان الجيش فيحفظها شاهداً عندهم .

ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع مباشرى ديوان الإقطاع ، وهم كتاب ديوان الجـيش ، فيرسمون علاماتهم عليها ، ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات ، فيكتب المنشور ويعلم عليه السلطان كما تقدم ذكره . ثم يكمل المنشور بخطوط كتاب ديوان الجيش ، بعد المقابلة على حجة أصله . وأما البلاد الشامية فليس للنائب بالمملكة مدخل فى تأمير أمير عوض أمير مات ، بل إذا مات أمير .. سواء كان كبيراً أو صغيراً طولع السلطان بموته ، فأمره عوضه : إما من فى حضرته ، ويخرجه إلى مكان الخدمة ، أو ممن هو فى مكان الخدمـة ، أو ينقل من بلد آخر من يقع اختيارة عليه .. وأما جند الحلقة . فإنهم إذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه ، « وكتب المثال » على نحو من ترتيب السلطان ثم كتب المربعة وجهزهـا مع البريـد إلى حـضرة السلطان فيقابل عليها فى ديوان الإقطاع ، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها ، فتكتب المربعة من ديوان الإقطاع ثم يكتب عليها المنشور كما تقدم فى الجند الذين بالحضـرة ، وإن لم يمضها السلطان أخرج الإقطاع لمن يريد . ومن مات من الأمراء والجند قبل استكمال مدة الخدمة ، حوسب ورثته على حكم الاستحقاق ، ثم إما يرتجع منهم أو يطلق لهم ، على قدر حصول العناية بهم .

وإقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء ، ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها ، ولم يزل الحال على ذلك ، حتى راك الملك الناصر محمد بن قلاوون البلاد – فأبطل عدة جـهات من المكوس ، وصارت الإقطاعات كلها بلادا .

والذى استقر عليه الحال فى إقطاعات الديار المصرية - ممارتبة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى الروك الناصرى ، وهو عدة الجيوش المنصورة فى الديار المصرية - أربعة وعشرون ألف فارس .

النجمية .. وزينت البلد ابتهاجا بها .

وفيه ضربت النوب الثلاث بالباب الناصرى على الرسم النووى فى كل يوم .

فأما دمشق فالنوب المضروبة بها خمس على رسم قديم ، لأن الأتابكة لها قواعد ورسوم مستقرة بينهم فى ديارهم .

وفى حادى عشر ركب السلطان بالخلع ، وشق بين القصرين والقاهرة ، ولما بلغ باب زويلة نزع الخلع ، وأعادها إلى داره ، ثم شمر للعب الأكرة . ولم يزل الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب حتى انقضت أيامهم ، وقام من بعدهم مماليكهم الأتراك ، فجروا فى ذلك عادة ملوك بنى أيوب .

ذكر العوايد التى كانت بقصبة القاهرة*

اعلم أن قصبة القاهرة ما برحت محترمة ، بحيث إنه كان فى الدولة الفاطمية إذا قدم رسول متملك الروم ينزل من باب الفتوح ، ويقبل الأرض وهو ماش ، إلى أن يصل إلى النصر . وكذلك كان يفعل كل من غضب عليه الخليفة ، فإنه يخرج إلى باب الفتوح ، ويكشف رأسه ويستغيث بعفو أمير المؤمنين حتى يؤذن له بالمصير إلى القصر .

وكان لها عوايد : مثلها أن السلطان من ملوك بنى أيوب ، ومن قام بعدهم من ملوك الترك لابد إذا استقر فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها راكباً والوزير بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه ، منذ يدخل إلى القاهرة من باب الفتوح أو من باب النصر ، حتى يخرج من باب زويلة . فإذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء وبقية العساكر .

* المقريزى خطط جـ ٢ ص ٤٨٢ - ٤٨٣

ومنها أنه لايمر بقصبة القاهرة حمل تبن ولا حمل حطب ، ولا يسوق أحد فرس بها ، ولا يمر بها سقاء إلا وروايته مغطاة .

ومن رسم أرباب الحوانيت أن يعدوا عند كل حانوت زيرا مملوء بالماء ، مخافة أن يحدث الحريق في مكان فيطفأ بسرعة ، ويلزم صاحب كل حانوت أن يعلق على حانوته قنديلا طول الليل يسرج إلى الصباح .

ويقام في القصبة قوم يكنسون الأزبال والأتربة ونحوها ، ويرشون كل يوم ، ويجعل في القصبة طول الليل عدة من الخفراء يطوفون بها لحراسة الحوانيت وغيرها ، ويتعاهد كل قليل بقطع ماعساه تربى من الأوساخ في الطرقات حتى لا تعلوا الشوارع.

وأول من ركب بخلع الخليفة في القاهرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف أيوب . قال القاضي الفاضل في متجددات سبع وستين وخمسمائة بتاسع من شهر رجب ، وصلت الخلع التى كانت نفذت إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من الخليفة ببغداد ، وهي جبة سوداء وطوق ذهب ، فلبسه نور الدين بدمشق إظهارا لشعارها ، وسيرها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها .

وكانت انفذت له خلعة ذكر أنه استقصرها واستنزراها واستصغرها دون قدره .

واستقر السلطان صلاح الدين بداره ، وباتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك برأس الطابية . فلما كان العاشر منه ، خرج قاضي القضاة والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمته ، واستقر المسير بالخلعة - وهو من الأصحاب .

قائمة التقويم التاريخي

- الأيوبيين -

- مصر -

الناصر صلاح الدين يوسف	١١٦٩ – ١١٩٣
العزيز عماد الدين عثمان	١١٩٣ – ١١٩٨
المنصور محمد أبو الفتح بن العزيز بن الناصر	١١٩٨ –١٢٠٠
العادل سيف الدين أبو بكر *	١٢٠٠ – ١٢١٨
الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب *	١٢١٨ – ١٢٣٨
العادل الثانى سيف الدين أبو بكر *	١٢٣٨ – ١٢٤٠
الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل *	١٢٤٠ – ١٢٤٩
المعظم توران شاه بن محمد بن أيوب أبى بكر *	١٢٤٩ – ١٢٥٠

. دمشق .

العادل نور الدين على	١١٨٦ – ١١٩٦
العادل سيف الدين أبو بكر	١١٩٦ – ١٢١٨
المعظم شرف الدين عيسى	١٢١٨ – ١٢٢٧
الناصر صلاح الدين داود	١٢٢٧ – ١٢٢٨
الأشرف موسى	١٢٢٨ – ١٢٣٧
الصالح إسماعيل	١٢٣٧ –
الكامل محمد	١٢٣٧ –

* أسماء السلاطين الذين حكموا أيضاً فى دمشق

هذه القائمة موجودة بالكتاب : فقط روجعت على كتاب نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين لعبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى . تحقيق محمد كمال الدين عز الدين على . الناشر مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ١٩٨٧ والمؤلفة أكتفت بكتابة الأسماء بإيجاز ولكن رأينا كتابة الأسماء بالكامل لمزيد من الإفادة – المترجم .

العادل الثانى سيف الدين أبو بكر	١٢٣٨ – ١٢٤٠
الصالح نجم الدين أيوب	١٢٤٠ –
الصالح اسماعيل (للمرة الثانية)	١٢٤٠ – ١٢٤٥
الصالح نجم الدين أيوب (للمرة الثانية)	١٢٤٥ – ١٢٤٩
المعظم توران شاة	١٢٤٩ – ١٢٥٠
الناصر صلاح الدين يوسف (الحلبى)	١٢٥٠ – ١٢٦٠

، حلب ،

الظاهر غياث الدين غازى	١١٨٦ – ١٢١٦
العزيز غياث الدين محمد	١٢١٦ – ١٢٣٦
الناصر صلاح الدين يوسف (كان سلطان دمشق)	١٢٣٦ – ١٢٦٠

، الجزيرة ،

الأوحد نجم الدين أيوب	١٢٠٠ – ١٢١٠
الأشرف مظفر الدين موسى (دمشقى)	١٢١٠ – ١٢٣٠
المظفر غازى	١٢٣٠ – ١٢٤٥

، حلب ،

المظفر الأول تقى الدين عمر	١١٧٨ – ١١٩١
المنصور الأول محمد	١١٩١ – ١٢٢٠
الناصر قليج أرسلان	١٢٢٠ – ١٢٢٩
المظفر الثانى تقى الدين محمد	١٢٢٩ – ١٢٤٤
المنصور الثانى محمد نور الدين على	١٢٤٤ – ١٢٨٤
المظفر الثالث محمود	١٢٨٤ – ١٢٩٨

• نواب المماليك •

المؤيد أبو الفدا إسماعيل	١٣١٠ – ١٣٣١
الأفضل محمد	١٣٣١ – ١٣٤١

• حمص •

محمد بن شيركوه	١١٧٨ – ١١٨٥
المجاهد شيركوه	١١٨٥ – ١٢٣٩
المنصور إبراهيم	١٢٣٩ – ١٢٤٥
الأشرف مظفر الدين موسى	١٢٤٥ – ١٢٦٢

• اليمن •

المعظم توران شاه بن أيوب	١١٧٣ – ١١٨١
سيف الإسلام توغداجن بن أيوب	١١٨١ – ١١٩٦
معز الدين بن إسماعيل	١١٩٦ – ١٢٠١
الناصر أيوب	١٢٠١ – ١٢١٤
المظفر سليمان	١٢١٤ – ١٢١٥
المسعود صالح الدين يوسف	١٢١٥ – ١٢٢٨

• المماليك البحرية أو التركية •

شجرة الدر (عصمت الدين أم خليل)	١٢٥٠ –
المعز عز الدين أيبك التركماني	١٢٥٠ – ١٢٥٧
المنصور نور الدين على بن أيبك	١٢٥٧ – ١٢٥٩
المظفر سيف الدين قطز أبو الفتح التركي	١٢٥٩ – ١٢٦٠
الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري	١٢٦٠ – ١٢٧٧
السعيد ناصر الدين بركة خان (بن الظاهر)	١٢٧٧ – ١٢٧٩

العادل بدر الدين سالامش (بن بيبرس)	١٢٧٩ –
المنصور سيف الدين قلاوون (أبو الفتح)	١٢٧٩ – ١٢٩٠
الأشرف صلاح الدين خليل (بن قلاوون)	١٢٩٠ – ١٢٩٣
الناصر سيف الدين محمد بن قلاوون (للمرة الأولى)	١٢٩٣ – ١٢٩٤
العادل زين الدين كتبغا (أبو الفتح)	١٢٩٤ – ١٢٩٦
المنصور حسام الدين لاجين (أبو الفتح)	١٢٩٦ – ١٢٩٩
الناصر سيف الدين محمد بن قلاوون (للمرة الثانية)	١٢٩٩ – ١٣٠٩
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى	١٣٠٩ – ١٣١٠
الناصر سيف الدين محمد بن قلاوون (للمرة الثالثة)	١٣١٠ – ١٣٤١
المنصور سيف الدين أبو بكر (بن قلاوون)	١٣٤١ –
الأشرف علاء الدين كجك (بن قلاوون)	١٣٤١ – ١٣٤٢
الناصر شهاب الدين أحمد (بن قلاوون)	١٣٤٢ –
الصالح عماد الدين إسماعيل (بن قلاوون)	١٣٤٢ – ١٣٤٥
الكامل سيف الدين شعبان (بن قلاوون)	١٣٤٥ – ١٣٤٦
المظفر سيف الدين حاجى (بن قلاوون)	١٣٤٦ – ١٣٤٧
الناصر سيف الدين حسن بن محمد (بن قلاوون للمرة الأولى)	١٣٤٧ – ١٣٥١
الصالح صلاح الدين صالح بن محمد (بن قلاوون)	١٣٥١ – ١٣٥٤
الناصر سيف الدين حسن بن محمد (بن قلاوون للمرة الثانية)	١٣٥٤ – ١٣٦١
المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون	١٣٦١ – ١٣٦٣
الأشرف ناصر الدين شعبان ... (بن قلاوون)	١٣٦٣ – ١٣٧٧
المنصور علاء الدين على ... (بن قلاوون)	١٣٧٧ – ١٣٨١
الصالح صلاح الدين حاجى ... (بن قلاوون)	١٣٨١ – ١٣٨٢
الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق (من السلالة الشركسية)	١٣٨٢ – ١٣٨٩
الصالح صلاح الدين حاجى للمرة الثانية	١٣٨٩ – ١٣٩٠

المماليك البرجية أو الشراكسة

الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق *	١٣٨٢ – ١٣٩٩
الناصر سيف الدين فرج الظاهر برقوق (بن الظاهر برقوق)	١٣٩٩ – ١٤٠٥
المنصور عز الدين أبو العز بن الظاهر برقوق	١٤٠٥ – ١٤٠٦
الناصر سيف الدين فرج للمرة الثانية	١٤٠٦ – ١٤١٢
العادل المستعين بالله بن المتوكل بن المعتضد (خليفة عباسى)	١٤١٢ –
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى	١٤١٢ – ١٤٢١
المظفر شهاب الدين أحمد (بن المؤيد)	١٤٢١ –
الظاهر سيف الدين ططر الظاهرى	١٤٢١ –
الصالح ناصر الدين محمد أبو السعادات (بن الظاهر)	١٤٢١ – ١٤٢٢
الأشرف سيف الدين أبو النصر بارسباى	١٤٢٢ – ١٤٣٨
العزيز جمال الدين يوسف (بن بارسباى)	١٤٣٨ –
الظاهر سيف الدين جقمق (أبو سعيد)	١٤٣٨ – ١٤٥٣
المنصور فخر الدين عثمان (بن الظاهر)	١٤٥٣ –
الأشرف سيف الدين إينال (أبو النصر)	١٤٥٣ – ١٤٦١
المؤيد شهاب الدين أحمد (ابن إينال)	١٤٦١ –
الظاهر سيف الدين خوشقدم (المؤيدى)	١٤٦١ – ١٤٦٧
الظاهر سيف الدين يلْباى (المؤيدى)	١٤٦٧ –
الظاهر تمر بغا	١٤٦٧ – ١٤٦٨
الأشرف سيف الدين قايتباى	١٤٦٨ – ١٤٩٦
الناصر محمد بن قايتباى	١٤٩٦ – ١٤٩٨
الظاهر قنصوة قايتباى (خال الناصر)	١٤٩٨ – ١٤٩٩
الأشرف جان بلاط قايتباى (ابن الظاهر)	١٤٩٩ – ١٥٠١
الأشرف قنصوه الغورى	١٥٠١ – ١٥١٦
الأشرف طومانباى	١٥١٦ – ١٥١٧

* لاحظ الانقطاع الذى حدث فى حكم المماليك الشراكسة من ١٣٨٩ – ١٣٩٠ م .

الخلفاء العباسيين فى مصر

المستنصر أحمد العباسى	١٢٦١
الحاكم بأمر الله أحمد العباسى (الأول)	١٢٦١ – ١٣٠٢
المستكفى بالله أبو الربيع سليمان (الأول)	١٣٠٢ – ١٣٤٠
الواثق بالله إبراهيم (ابن الحاكم بأمر الله) (الأول)	١٣٤٠ –
الحاكم بأمر الله أحمد (ابن المستكفى) (الثانى)	١٣٤٠ – ١٣٥٢
المعتضد بالله أبو بكر (ابن المستكفى)	١٣٥٢ – ١٣٦٢
المتوكل على الله محمد (بن المعتضد) (الأول)	١٣٦٢ – ١٣٧٧
المستعصم بالله يحيى زكريا (للمرة الأولى)	١٣٧٧ –
المتوكل على الله محمد بن المعتضد (للمرة الثانية)	١٣٧٧ – ١٣٨٣
الواثق أبو الحفص عمر (الثانى)	١٣٨٣ – ١٣٨٦
المستعصم بالله يحيى زكريا (للمرة الثانية)	١٣٨٦ – ١٣٨٩
المتوكل على الله محمد بن المعتضد (للمرة الثالثة)	١٣٨٩ – ١٤٠٦
المستعين بالله أبو الفضل	١٤٠٦ – ١٤١٤
المعتضد بالله أبو الفتح داود (الثانى)	١٤١٤ – ١٤٤١
المستكفى بالله أبو الربيع سليمان (الثانى)	١٤٤١ – ١٤٥١
القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة	١٤٥١ – ١٤٥٥
المستنجد بالله أبو المحاسن يوسف	١٤٥٥ – ١٤٧٩
المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز (الثانى)	١٤٧٩ – ١٤٩٧
المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب	١٤٩٧ – ١٤٩٨
المتوكل على الله محمد (الثالث)	١٤٩٨ – ١٥١٦
المستمسك أبو الصبر يعقوب (للمرة الثانية)	١٥١٦ – ١٥٢١
المتوكل على الله (الثالث) (للمرة الثانية)	١٥٢١ – ١٥٣٨

БИБЛИОГРАФИЯ

Источники

[Abd-Allatif], *Relation de l'Egypte,* par Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad... le tout traduit et enrichi de notes historiques et critiques par M. Silvestre de Sacy, Paris, 1810.

Abu Salih, *Churches and monasteries of Egypt and some neighbouring countries,* transl. by B. T. A. Evetts, Oxford, 1895.

Ascensus Barcoch. A latin biography of the Mamluk sultan Barquq of Egypt (d. 1399), written by B. de Mignanelli in 1416 ed. by W. Fischel, — «Arabica», 1959, t. VI, fasc. 1—2.

Beiträge zur Geschichte der Mamlukensultane in den Jahren 690—741 der Hiğra nach arabischen Handschriften hrsg. von K. V. Zetterstéen, Leiden, 1919.

Berchem Max van, *Le château de Bâniâs et ses inscriptions,* — JA, t. XII, 1888.

Berchem Max van, *Epigraphie des Assasins de Syrie,* — JA, t. IX, 1897.

Berchem Max van, *Notes sur les Croisades,* — JA, t. XIX, 1902.

«Les Croisades d'après le dictionnaire géographique de Yâkoût, trad. par H. Derenbourg», — «Centenaire de l'école des langues orientales vivantes, 1795—1895», Paris, 1895.

«Décrets Mamelouks de Syrie», publ. par J. Sauvaget, — «Bulletin d'études orientales», t. II—III, Le Caire, 1932—1933.

«Extraits des historiens arabes, relatifs aux guerres des Croisades...», ed. par M. Reinaud, Paris, 1829.

[Ibn Abd al-Zahir], Al-Rawd al-Zahir fi Sirat al-Malik al-Zahir, by al-Qadi Muhi al-din b. Abd al-Zahir, — в кн.: S. F. Sadeque, *Baybars I of Egypt,* Dacca, 1956.

Ibn-el Athiri *Chronicon quod perfectissimum inscribitur...,* edidit Carolus Johannes Tornberg, vol. XI—XII, Lugduni Batavorum, 1851—1853.

Ibn-Batutah, *Voyage à travers l'Afrique septentrionale et l'Egypte au commencement du XIV siècle,* texte arabe accompagné d'une traduction par C. Defremery et B. R. Sanguinetti, t. I, Paris, 1853.

Ibn Challikani vitae illustrium virorum, ed. F. Wüstenfeld, Göttingae, 1835—1850.

[Ibn ad-Dawadar], *Die Chronik* des Ibn ad-Dawadari. Neunter Teil. Der Bericht über den Sultan al-Malik an-Nasir Muhammad Ibn Qalaun, hrsg. von H. R. Roemer, Kairo, 1960.

[Ibn Doukmak], *Description de l'Egypte* par Ibn Doukmak..., publ. par Vollers, Le Caire, 1893.
Ibn al-Furat, *The history*, ed. by C. K. Zurayk and N. Izzedin, vol. VII—IX, Beirut, 1936—1942.
[Ibn il Giân], *Kitab il Tuhfa il saniya bi Asmâ il bilâd il Maṣriya* par Charaf il din Yahya ibn Il Makarr ibn Il Gî'ân, publ. par B. Moritz. Le Caire, 1898.
[Ibn Iyas], *An account of the Ottoman conquest of Egypt in the year a. h. 922 (a. d. 1516)*, transl. from the 3-d vol. of the arabic chronicle of Muhammed ibn Ahmed ibn Iyas..., par W. Salmon, London, 1921.
Ibn Iyas al-Hanafi, *Journal d'un bourgeois du Caire*, trad. et annoté par G. Wiet, t. I—II, Paris, 1955—1960.
Ibn Jobair, *Voyages*, traduits et annotés par M. Gaudefroy-Demombynes, pt. I—III, Paris, 1949—1956.
[Ibn Taghrî Birdî], Abu'l Mahâsin ibn Taghrî Birdî's *Annals entitled an-Nujum az-Zâhira fi Muluk Miṣr wal-Kahira (vol. VII)*, ed. by W. Popper, — «University of California publications in semitic philology», vol. 7, Berkeley, 1926—1929.
[Ibn Taghrî Birdî], Extracts from Abu' l-Mahâsin ibn Taghrî Birdî's *Chronicle, entitled Hawâdith al-Duhûr fi Madâ' l-Ayyâm wa-l Shuhûr*, vol. I—III, ed. W. Popper, — «University of California publications in semitic philology», vol. 8, Berkeley, 1930—1932.
[Ibn Taghrî Birdî], *History of Egypt 1382—1469 A. D.* (Part IV, 1422—1438 A. D.), transl. from the arabic annals of Abu' l-Mahâsin ibn Taghrî Birdî by W. Popper, — «University of California publications in semitic philology», vol. 18. Berkeley — Los Angeles, 1958.
Imad ed-din el-Katib el-Isfahani, *Conquête de la Syrie et de la Palestine par Salah ed-din*, publié... par C. de Landberg, texte arabe, vol I, Leyde, 1888
Les inscriptions de Saladin, ed. par G. Wiet, — «Syria», Paris, 1922, t. III.
[Jean de Phanidjôit], *Un document copte du XIII^e siècle. Martyre de Jean de Phanidjôit*, publ. par. E. Amélineau — JA, t. IX, 1887.
[Kanunname Mißr], *Des osmanischen Reichs Staatsverwaltung*, dargestellt von J. von Hammer, Bd II, Kanunnamei Mißr, Wien, 1815.
[Makrizi], *Chronicle of Ahmad ibn Ali al-Makrizi, entitled Kitab al-Suluk li-marifat duwal al-muluk*, ed. by M. Ziada, vol. I—II, Cairo, 1934—1942.
[Makrizi], *Histoire d'Egypte* de Makrizi, trad... par E. Blochet, Paris, 1908.
[Makrizi], *Histoire des sultans Mamlouks de l'Egypte*. Ecrite en arabe par Taki-ed-din-Ahmed-Makrizi, trad. en franc. et accompagnee des notes philologiques, historiques, géographiques par Quatremère, vol. I—II, Paris, 1837—1845.
[Makrizi], *Le traité des famines de Makrizi*, trad. française de G. Wiet, — JESHO, V, 1962, pt 1.
[Maqrizi] *El-Maqrizi's Abhandlung über die in Aegypten eingewanderten arabischen Stämme*, hrsg. und übers. von F. Wüstenfeld, Göttingen, 1847.
Maqrizi, *El-Mawâiz wa'l-Itibar fi Dhikr el-Khitat wa' l-Athâr*, texte arabe édité par G. Wiet, Le Caire, 1911, vol. I, fasc. 1—2; 1913, vol. II, fasc. 1.

«Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum», vol. I—III, publ. par Berchem, Max Van, Paris, 1903—1930.

«Quelques aspects de l'administration égyptienne médiévale vus par un de ses fonctionnaires», trad. par Cl. Cahen, — «Bulletin de la Faculte des lettres de Strasbourg», Strasbourg, 1948, № 4.

«Recueil des historiens des Croisades. Historiens orientaux», vol. I—V, Paris, 1872—1906.

«Scandal in the egyptian treasury. A portion of the Luma'al quwanin of Uthman ibn Ibrahim al-Nabulusi», trad. by Ch. A. Owen, — «Journal of Near Eastern Studies», Chicago, vol. XIV, 1955, № 2.

«Traités de commerce entre la république de Venise et les derniers sultans mamelouсs d'Égypte», traduits de l'italien et accompagnés d'éclaircissemens par P. Reinaud, — JA, t. IV, 1829.

«Le voyage d'outremer (Égypte, Mont Sinay, Palestine) de Jean Thenaud gardien du couvent des cordéliers d'Anqoulême suivi de la relation de l'ambassade de Domenico Trevisan, auprès du soudan d'Egypte (1512)», publié et annoté par Ch. Schefer, Paris, 1884.

«Zoubdat Kachf el-Mamâlik, *Tableau politique et administratif de l'Egypte, de la Syrie et du Hidjâz sous la domination des sultans Mamloûks du XIII[e] au XV[e] siècle par Khalil ed Dâhiry*, texte arabe publié par P. Ravaisse, Paris, 1894.

ابن فضل الله العمرى. مسالك الابصار فى ممالك الامصار. ج ١، القاهرة، ١٩٢٤/١٣٤٢.

ابو العباس احمد القلقشندى. كتاب صبح الأعشى فى كتابة الانشا. القاهرة، ١٣٣٧ — ١٩١٩/١٣٣١—١٩١٣.

اسمعيل بن على ابو الفدا. المختصر فى تاريخ البشر. اسطانبول، ١٢٨٦.

بهاء الدين بن شداد. كتاب سيرة صلاح الدين. القاهرة، ١٣١٧.

تقى الدين أحمد بن على المقريزى. كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات فى مصر. القاهرة، ١٩٤٠.

تقى الدين أحمد بن على المقريزى. كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار. القاهرة، ١٣٢٦ — ١٣٢٤.

جلال الدين السيوطى. كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، القاهرة، ١٢٩٩.

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى. النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، القاهرة، ١٣٧٥—١٣٤٨/١٩٥٦—١٩٢٩.

شرف الدين أبو المكارم بن أبو سعيد بن مماتى. كتاب قوانين الدواوين. القاهرة، ١٨٧١.

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى. نهاية الارب فى فنون الأدب. القاهرة، ١٣٧٤—١٣٤٢/١٩٥٥—١٩٢٣.

عبد الرحمن بن اسمعيل ابو شامة. كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، القاهرة، ١٢٨٨—١٢٨٧.

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. كتاب العبر. ج ٥، بولاق، ١٢٨٤.

محمد بن أحمد بن اياس الحنفي. كتاب تاريخ مصر المشهور بدائع الزهور فى وقائع الدهور. ج ٣—١، بولاق، ١٣١٢—١٣١١؛ ج ٤، اسطانبول، ١٩٣١.

محمد بن عبد الرحمن السخاوى. كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك. بولاق، ١٨٩٦.

Тизенгаузен В., *Сборник материалов, относящихся к истории Золотой Орды*, т. I, СПб., 1884.

Усама ибн Мункыз, *Книга назидания*, пер. М. А. Салье. М., 1958.

Использованная литература

Амин аль-Холи, *Связи между Нилом и Волгой в XIII—XIV вв.*, М., 1962.

Банк А. В., *Восточный сосуд с греческой надписью (К истории культурных взаимоотношений Византии и Египта в XIII—XIV вв.)*, — «Византийский временник», 1952, т. V.

Бартольд В., *Халиф и султан*, — «Мир ислама», СПб., т. I, 1912, № 2 и 3.

Беляев Е. А., *Мусульманское сектантство*, М., 1957.

Вернадский Г. В., *Золотая Орда, Египет и Византия в их взаимоотношениях в царствование Михаила Палеолога* (Сборник статей по археологии и византиноведению, издаваемый семинарием имени Н. П. Кондакова, Прага, 1927).

«Всемирная история», т. III, М., 1957.

Егоров Д. Н., *Крестовые походы*. Лекции, читанные на Московских женских Высших курсах в 1914/1915 г., ч. I—II, М., 1914—1916.

Заборов М. А., *Крестовые походы*, М., 1956.

Заходер Б. Н., *История Восточного Средневековья (Халифат и Ближний Восток)*, М., 1944.

«История стран зарубежного Востока в средние века», М., 1957.

Крачковский И. Ю., *Избранные сочинения*, т. IV, М.—Л., 1957.

Певзнер С. Б., *Икта в Египте в конце XIII—XIV вв.*, — сб. «Памяти академика И. Ю. Крачковского», Л., 1958.

Певзнер С. Б., *Китайские мотивы на памятниках художественного ремесла средневекового Египта*, — «Труды Государственного Эрмитажа. Культура и искусство античного мира и Востока», т. II, Л., 1958.

Певзнер С. Б., *Некоторые вопросы изучения средневековых египетских тканей*, — «Сообщения Государственного Эрмитажа», XIII, Л., 1958.

Певзнер С. Б., *О росте производительности труда в текстильном производстве Египта конца XII—XV вв. (по материалам техники украшения тканей)*. Доклад на XXV Международном конгрессе востоковедов, М., 1960.

Семенова Л. А., *К истории мамлюкского города*, — сб. «О генезисе капитализма в странах Востока (XV—XIX вв.), М., 1962.

Стасюлевич М. М. *История Средних веков в ее писателях и исследованиях новейших ученых*, т. III, СПб., 1865.

Тизенгаузен В. Ф., *Заметка о сношениях Египта с Сербией и Болгарией в XIV веке*, — «Записки Восточного отделения Русского археологического общества», т. IV, СПб., 1889, вып. 1—2.

Успенский Ф., *Византийские историки о монголах и египетских мамлюках*, — «Византийский временник», т. XXIV, Л., 1926.

Abbot N., *The monasteries of the Fayyum*, Chicago, 1937.

Ali Bahgat, *Les manufactures d'étoffe en Egypte au moyen âge*, Le Caire, 1904.

Amari, *Questions philosophiques adressées aux savants musulmans, par l'empereur Frédéric II*, — JA, t. I, 1853.

Ashtor E., *Le coût de la vie dans l'Egypte médiévale*, — JESHO, vol. III, 1960, pt 1.

Ashtor E., *Le coût de la vie dans la Syrie médiévale*, — «Arabica», 1961, t. VIII, fasc. 1.

Ashtor E., *L'évolution des prix dans le Proche-Orient à la basse-époque*, — JESHO, vol. IV, 1961, pt 1.

Ashtor E., *The Karimi merchants*, — JRAS, 1956, pt 1—2.

Ashtor E., *Matériaux pour l'histoire des prix dans l'Egypte médiévale*, — JESHO, vol. 6, 1963, pt 2.

Ashtor E., *Some unpublished sources for the Bahri period*, — «Studies in islamic history and civilization», ed. by U. Heyd, Jerusalem, 1961.

Ashtor-Strauss E., *L'administration urbaine en Syrie médiévale*, — «Rivista degli Studi Orientali», Roma, 1956.

Ashtor-Strauss E., *Quelques indications sur les revenus dans l'orient musulman au haut moyen âge*, — JESHO, vol. II, 1959, pt 3.

Atiya A. S., *Egypt and Aragon. Embassies and diplomatic correspondence between 1300 and 1330*, Leipzig, 1938.

Ayalon D. (Neustadt), *The Circassians in the mamluk kingdom*, — JAOS, vol. 69, 1949, № 3.

Ayalon D., *L'esclavage du mamelouk*, Jerusalem, 1951.

Ayalon D., *Gunpowder and firearms in the mamluk kingdom*, London, 1956.

Ayalon D., *Notes on the furusiyya exercises and games in the Mamluk sultanate*, — «Studies in islamic history and civilization», ed. by U. Heyd, Jerusalem, 1961.

Ayalon D., *Le regiment Bahriya dans l'armée mamelouke*, REI, 1952.

Ayalon D., *Studies on the structure of the mamluk army*, — BSOAS, vol. XV, 1953, pt 2, 3; vol. XVI, pt 1.

Ayalon D., *Studies on the transfer of the Abbasid caliphate from Bagdad to Cairo*, — «Arabica», 1960, t. VII, fasc. 1.

Ayalon D., *The system of payment in mamluk military society*, JESHO, vol. I, 1957, pt 1.

Becker C. H., *Islamstudien*, Bd I, Leipzig, 1924.

Brinner W. M., *The significance of the harafish and their «sultan»*, — JESHO, vol. VI, 1963, pt 2.

Björkman W., *Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Agypten*, Hamburg, 1928.

Butcher E. L., *The story of the church of Egypt*, London, 1897.

Cahen Cl., *Contrubition à l'étude des impôts dans l'Egypte médiévale,* — JESHO, vol. V, 1962, pt 3.
Cahen Cl., *L'évolution de l'iqta' du IXe au XIIIe siècle: contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales,* — Annales (Économies. Sociétés. Civilisations), 8e année, Paris, 1953, № 1.
Cahen Cl., *Mouvements populaires et autonomisme urbain dans* l'Asie musulmane du Moyen Âge, — «Arabica», 1958, t. V, 1959, t. VI
Cahen Cl., *Notes pour l'histoire de la Himaya Melanges Louis Massignon,* I, Damas, 1956.
Cahen Cl., *Le régime des impôts dans le Fayyum Ayyubide,* — «Arabica», 1956, t. III, fasc. 1.
Cahen Cl., *Un traité financier inédit d'époque Fatimide-Ayybide,* — JESHO, vol. V, 1962, pt 2.
Davis E. J., *The invasion of Egypt in A. D. 1240 (A. H. 647) by Louis IX of France (St. Louis) and a history of the contemporary sultans of Egypt,* London, 1897.
Defrémery C., *Nouvelles recherches sur les Ismaeliens ou Bathiniens de Syrie...,* — JA, t. III, 1854, t. V, 1855.
Dölger F., *Der Vertrag des Sultans Qalaun von Ägypten mit dem Kaiser Michael VIII. Palaiologos (1281),* — «Serta monacensia», Leiden, 1952.
Ehrenkreutz A. S., *Contributions to the knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages,* — BSOAS, vol XVI, 1954 pt 3.
Ehrenkreutz A. S., *The crisis of dinar in the Egypt of Saladin,* — JAOS, vol. 76, 1956, pt 3.
Ehrenkreutz A. S., *The place of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea in the Middle Ages,* — JAOS, vol. 75, 1955, pt 1—2.
Ehrenkreutz A. S., *The standard of fineless of gold coins circulating in Egypt at the time of the crusades,* — JAOS, vol. 74, 1954, pt 3.
Ehrenkreutz A. S., *Studies in the monetary history of the Near East in the Middle Ages,* — JESHO, vol. II, 1959, pt 2.
Ehrenkreutz A. S., *The technical manual on the Ayyubid mint in Cairo,* — BSOAS, vol. XV, 1953, pt 1.
Elisséeff N. S., *Corporation de Damas sous Nur al-Din. Matériaux pour une topographie économique de Damas au XIIe siècle,* — «Arabica», 1956, t. III, fasc. 1.
Fischel W., *The spice trade in mamluk Egypt,* — JESHO, vol. I, 1958, pt 2.
Gaudefroy-Demombynes M., *La Syrie à l'époque des mamelouks d'après les auteurs arabes,* Paris, 1923.
Gennep A. R. van, *Le ducat vénitien en Egypte: son influence sur la monnayage de l'or dans ce pays au commencement du XV siècle,* — «Revue numismatique», t. I, Paris, 1897.
Gibb H. A. R., *The arabic sources for the life of Saladin,* — «Speculum», Cambridge (USA), vol. XXV, 1950, № 1.
Gibb H. A. R., *Al-Barq al-Shami: The history of Saladin by the Katib Imad ad-Din al-Isfahani,* — «Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes», Vienne, t. LII, 1953, № 1—2.
Gibb H. A. R., *Notes on the arabic materials for the history of the early Crusades,* — BSOS, vol. VII, 1935, pt 4.
Gibb H. A. R., *Studies on the civilization of Islam,* London, 1962.

Goitein S. D., *New light on the beginnings of the Karim merchants,* — JESHO, vol. I, 1958, pt 2.

Gottheil R., *Dhimmis and moslems in Egypt,* [S. l.], [S. a.].

Gottschalk H. L., *Al-Malik al-Kamil von Egypten und seine Zeit; eine Studie zur Geschichte Vorderasiens und Egyptens in der ersten Hälfte des 7/13 Jahrhunderts,* Wiesbaden, 1958.

Guest A. R., *The Delta in the Middle Ages,* — JRAS, 1912.

Guest A. R., *A list of writers, books and other authorities mentioned by el-Maqrizi in his Khitat,* — JRAS, 1902.

Guyard S., *Un grand maître des assasins au temps de Saladin,* — JA, t. IX, 1877.

Hanotaux G., *Histoire de la nation egyptienne,* vol. IV, Paris, 1931.

Hartmann R., *Die Herrschaft von al-Karak,* — «Der Islam», Bd II, Berlin, 1911.

Hartmann R., *Die Geographische Nachrichten über Palaestina und Syrien in Khalil ez-Zahiris Zubda,* Kirchlein, 1907.

Hartmann R., *Politische Geographie des Mamlukenreichs,* — ZDMG Bd 70, 1916; Bd 71, 1917.

Helbig A., *Al-Qadi al-Fadil, der Wezir Saladin's,* Berlin, 1909.

Heyd W., *Histoire du commerce du Levant au moyen âge,* t. I—II, Leipzig, 1923.

Lane-Poole S., *A history of Egypt in the Middle Ages,* London, 1936.

Lane-Poole S., *Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem,* New York — London, 1898.

Laoust H., *Le hanbalisme sous les Mamlouks Bahrides (658—784/1260—1382),* — REI, t. XXVIII, 1960.

Leverer C., *Die Verrechnung und Verwaltung von Steuern im islamischen Ägypten,* — ZDMG, Bd 103 (28), 1953.

Lewis B., *The Ismailites and the assasins,* — «A history of the Crusades», vol. I, Philadelphia, 1955.

Lewis B., *Saladin and the assasins,* — BSOAS, vol. XV, 1953, pt 1.

Lewis B., *The sources for the history of the Syrian assasins,* — «Speculum», vol. XXVII, Cambridge (USA), 1952, № 4.

Maspero J. et Wiet G., *Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte, première série,* — «Mémoires de l'institut français d'archéologie orientale du Caire», t. 36, Le Caire, 1914.

Minorsky V., *Studies in Caucasian history,* London, 1953.

Mostafa M., *Beiträge zur Geschichte Ägyptens zur Zeit der türkischen Eroberung,* — ZDMG, Bd 89, 1935.

Muir W., *The mameluke or slave dinasty of Egypt, 1260—1517,* London, 1896.

Neustadt D., *The plague and its effects upon the Mamluk army,* JRAS, pt 1—2, 1946.

Niemeyer W., *Ägypten zur Zeit der Mamluken,* Berlin, 1936.

Perlmann M., *Notes on anti-christian propaganda in the Mamluk empire,* — BSOAS, vol. X, 1942, pt 4.

Pollak A. N., *The Ayybid feudalism,* — JRAS, 1939, pt III.

Poliak A. N., *Le caractère colonial de l'Etat mamelouk dans ses rapports avec la Horde d'Or,* — REI, t. IX, 1935.

Pollak A. N., *La féodalité islamique,* — REI, t. X, 1936.

Pollak A. N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250—1900,* London, 1939.

Poliak A. N., *The influence of Chingiz-Khān's Yāsa upon the general organisation of the Mamluk state,* — BSOAS, vol. X. 1942, pt 4.
Poliak A. N., *Les révoltes populaires en Egypte à l'époque des mamelouks et leurs causes économiques,* — REI, t. VIII, 1934.
Poliak A. N., *Some notes on the feudal system of the Mamluks,* — JRAS, 1937, pt 1.
Popper W., *The Cairo Nilometer. Studies in Ibn Taghri Birdi's chronicles of Egypt,* — «University of California publications in semitic philology», vol. 12, Berkeley — Los Angeles, 1951.
Popper W., *Egypt and Syria under the Circassian sultans, 1382 — 1468 a. d. Systematic notes to Ibn Taghri Birdi's Chronicles of Egypt* — «University of California publications in semitic philology», vol. 15, Berkeley — Los Angeles, 1955.
Quatremère E., *Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur contrées voisines,* t. I—II, Paris, 1811.
Reinaud P., *Notice sur la vie de Saladin,* Paris, 1824.
Salibi K. S., *The Banu Jamaa. A dynasty of Shafiite jurists in the Mamluk period,* — «Studia islamica», Paris, t. IX, 1958.
Salibi K. S., *The Buhturids of the Garb. Mediaeval lords of Beirut and of southern Lebanon,* — «Arabica», 1961, t. VIII, fasc. 1.
Salibi K. S., *The maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk rule,* — «Arabica», 1957, t. IV, fasc. 3.
Sauvaget J., *Noms et surnoms de mamelouks,* — JA, CCXXXVIII, 1950.
Sauvaget J., *La poste aux chevaux dans l'émpire des mamelouks,* Paris, 1941.
Schacht J., *Über den Hellenismus in Baghdad und Cairo im 11 Jahrhundert,* — ZDMG, Bd 90, 1936.
Schimmel A., *Einsetzungsurkunden mamlukiscen Emire,* — «Die Welt des Orients», Stuttgart, 1949, H. 4.
Schimmel A., *Kalif und Kadi in Spätmittelalterischen Aegypten,* — «Die Welt des Islams», Berlin—Leipzig—Leide, Bd 24, 1943.
Schregle G., *Die Sultanin von Ägypten Šağarat ad-Durr in den arabischen Geschichtsschreibung und Literatur,* Wiesbaden, 1961.
Severianus, *Les coptes dans l'Égypte musulmane,* — «Etudes méditerranéennes», Paris, 1959, № 6.
Silvestre de Sacy A. J., *Sur la nature et les révolutions du droit de propriété territoriale en Egypte,* — «Bibliothèque des arabisants français», première série, Le Caire, 1923.
Sobernheim M., *Das Zuckermonopol unter Sultan Barsbai,* — «Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete», Leipzig, XXVII, 1912.
Sobhi L., *Geld und Kredit. Studien zur Wirtschaftsgeschichte Aegyptens im Mittelalter,* — JESHO, vol. II, 1959, pt 3.
Sourdel-Thomine J., *Le peuplement de la région des «villes mortes» (Syrie du Nord) à l'époque Ayyubide,* — «Arabica», 1954, t. I, fasc. 2.
Stern S. M., *Petitions from the Ayyubid period,* — BSOAS, vol. XXVII, 1964, pt 1.
Strauss E., *L'inquisition dans l'Etat mamlouk,* — «Rivista degli Studi Orientali», vol. XXV, Roma, 1950.
Strauss E., *Prix et salaires à l'époque Mamlouke,* — REI, année 1949, 1950.
Tibawi A. L., *Origin and character of al-madrasah,* — BSOAS, vol. XXV, 1961, pt 2.

Weil G., *Geschichte der Chalifen*, vol. 4—5, Stuttgart, 1860—1862.

Wiet G., *La grande peste noire en Syrie et en Egypte*, — «Études d'orientalisme dédiées a la mémoire de Lévi-Provençal», t. I, Paris, 1962.

Wiet G., Elisseeff V., Wolff Ph., *L'évolution des techniques dans le monde musulman au Moyen Âge*, — «Cahiers d'histoire mondiale», Neuchatel, vol. 6, 1960, № 1.

Wilken F., *Über die venetianischen Consuln zu Alexandrien im 15-ten und 16-ten Jahrhunderte*, Berlin, 1832.

Ziadeh N. A., *Town administration in Syria under the early Mamluks*, — «Proceedings of the twenty-second congress of orientalists», IV, Leiden, 1957.

Ziadeh N. A., *Urban life in Syria under the early Mamluks*, Beirut 1953.

سعيد عبد الفتاح عاشور. مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩.

على ابراهيم حسن. دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٤٨.

على بيومى. قيامة الدولة الايوبية فى مصر. القاهرة، ١٩٥٢.

فاروق انيس جرار. اسطول صلاح الدين الايوّبى. «الابحاث»، بيروت، ١٩٦٠، ج ١٣، جزأ.

محمد سرور. دولة بنى قلاون فى مصر. القاهرة، ١٩٤٧.

نظير حسان سعداوى. جيش مصر فى ايام صلاح الدين. القاهرة، ١٩٥٩.

دليل قائمة مراجع المترجم ★

١ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ .. دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٢ .

٢ - ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور . محمد بن أحمد بن إياس الحنفي . الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٤ وطبعة دار الشعب القاهرة ١٩٦١ .

٣ - ابن تغربردى : (نجوم) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغربردى مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ .

٤ - ابن تغربردى : (حوادث) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور . المؤلف السابق إصدار بيروت ١٩٣٠ .

٥ - ابن جبير : رحلات ابن جبير .

٦ - ابن خلدون : العبر - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون القاهرة بولاق ١٣٤٤ هـ .

٧ - ابن شداد : سيرة صلاح الدين - بهاء الدين بن شداد مكتبة ومطبعة محمد على صبيح . القاهرة ١٣٤٦ هـ .

٨ - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - القاضي محي الدين بن عبد الظاهر القاهرة ١٣٤٦ هـ .

٩ - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات المطبعة الأمريكانية ؟ - بيروت ١٩٦٧ .

١٠ - ابن مماتي : قوانين الدواوين . شرف الدين أبو المكارم بن أبو سعيد بن مماتي مطبعة مصر ١٩٤٣ .

١١ - ابن منقذ : الاعتبار. أسامة بن منقذ مطبعة برنستون - الولايات المتحدة ١٣٣٠ هـ .

★آثرنا استخدام المختصرات أعلاه في هوامشنا كيلا نثقل على القارئ بأسماء الكتب الطويلة وكذا أسماء المؤلفين . وفي هذا الدليل يوضع أمام كل مختصر إسم الكتاب بالكامل وإسم المؤلف والطبعة وذلك منعاً للتكرار .

١٢ - أبو شامة : الروضين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة ، حـ ١ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ ، حـ ٢ المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢ .

١٣ - البغدادى : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بدار مصر - عبد اللطيف البغدادى ، مطبعة وادى النيل ١٢٨٦ هـ .

١٤ - السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، المطبعة الأميرية بولاق ١٨٩٦ .

١٥ - الظاهرى : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، خليل الظاهرى ، باريس المطبعة الجمهورية .

١٦ - المقريزى خطط : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، تقى الدين بن أحمد بن على المقريزى ، دار التحرير للطبع والنشر .

١٧ - المقريزى سلوك : السلوك لمعرفة دول الملوك تقى الدين بن أحمد بن على المقريزى تحقيق محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٤٢ طبعة ثانية .

١٨ - المقريزى إغاثه : إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات فى مصر تقى الدين بن أحمد بن على المقريزى - القاهرة ١٩٥٠ .

١٩ - النابلسى ، تاريخ الفيوم ، أبو عثمان النابلسى الصفدى القاهرة ١٨٩٩ .

20 -Churches and Monasteries and some Neighbouring contries . Attributed to Abu salieh Armenian .

Translated from original arabic . B . T . A EVE TTS , M . A

فهرس

الصفحة

المشروع القومي للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضري
ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لوسي سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفي عبد الوهاب / فاروق القاضي / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة العناني
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسي سعد الدين
المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت : صبري محمد عبد الغني
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت: حسين محمود
السياسي العجوز	ت. س. إليوت	ت: فؤاد مجلي
نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومكنز	ت: حسن ناظم وعلي حاكم
صلاح الدين والمماليك في مصر	ل. ا. سيميونوفا	ت: حسن بيومي
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت: أحمد درويش
جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت: عبد المقصود عبد الكريم
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من الكتاب	ت: محمود علي مكي
العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت: أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت: سعيد الغانمي وناصر حلاوي
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت: إبراهيم فتحي سليمان

(تحت الطبع)

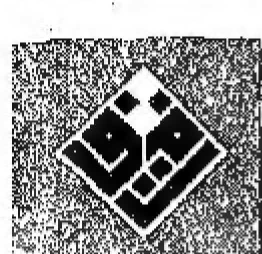
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٣)
المختار من نقد ت . س . إليوت
منصور الحلاج
الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
الجماعات المتخيلة
مختارات من ثاريد بن
تاريخ السينما العالمية
مسرح ميجيل دي أونامونو
مختارات من المسرح الإسباني
صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر
لابتلاء بالتاريخ

طول الليل
نون والقلم
الحب الأول
أوبرا ماهوجاني
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
حروب المياه
ثلاث زنبقات ووردة
الأدب الأندلسي
الأدب المقارن
راية التمرد
السياسة والتسامح

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٣٨٠ / ١٩٩٨





САЛАХ АД-ДИН И МАМЛЮКИ В ЕГИПТЕ

Л. А. СЕМЕНОВА

هذا الكتاب يقدم دراسة عن الحياة الاقتصادية الاجتماعية فى مصر ابتداء من ١١٧١م ، أى بداية حكم صلاح الدين ، إلى الغزو العثمانى فى ١٥١٧م .

وهذه الدراسة تنطلق أساساً من المفهوم الديالكتيكى للتاريخ فى دراسته للمشكلات الاقتصادية الاجتماعية كمراحل طبيعية فى تطور الإنسانية .

وهى ترتكز على كتابات الكثيرين من مؤرخى هذه الفترة كالمقريزى وابن إياس ، وابن تغر بردى وأبو شامة وعبد اللطيف البغدادى وابن الأثير ... إلخ ، وهى تتجادل مع عدد من المستشرقين والباحثين أمثال : سلفستر دى ساسى ، وبيكر ، وبولياك ، وكلودكهن ... إلخ ، حول مفاهيم الإقطاع ، وأشكال توزيع الإقطاعات ، والعلاقات المتنوعة فى المجتمع سواء كانت عسكرية أو سياسية ، دينية أو أخلاقية ، اجتماعية أو اقتصادية ... إلخ .

الغلاف : عماد حليم